

DAMAGE BOOK

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190304

UNIVERSAL
LIBRARY

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ۳۳۹۴/ع.م. Accession No. ۱۲۳۵۴

Author عظیم الشان

Title مکررات عظیم الشان

This book should be returned on or before the date last marked below.

مذكرات عليوم الثاني

﴿ اشترك في نقلها الى اللغة العربية ﴾

محب الدين الخطيب
مفتي مجلة الزهراء

و

اسعد واشهر
المحرر بمريدة الاحرام

القاهرة

١٣٤١

﴿ طبعت بنفقة ﴾

المطبعة البيلغيتية - ومكينتها
مضاجعيتما: محب الدين الخطيب ومفتيها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين * وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
وبعد فان ألمانيا هي المملكة التي تفرّدت بتفوقها الصناعي والعسكري
ربا، وكانت لها المكانة الاولى في العلم والعمل، كما كان لعاهلها -
الذكورات - المقام الأعلى في تكوينها بالشكل الذي أراد أن
بين سنتي ١٩١٤ و ١٩١٨. ولما كان مركزه السامي قد خوّله الوقوف
على السبيل في أدوارها المختلفة، فان مذكراته هذه - مهما حا
ها ذريعة للدفاع عن نفسه - قد كشفت التنوع عن كثير من الح
ن الشرق والغرب

وقد كتب غليوم الثاني هذه المذكرات باللغة الانكليزية لتذ
كأسنة ١٩٢٢ (١٣٤١) وبالالمانية لتشرع عقب ذلك في ألمانيا، وفي
العالم من هذين المصدرين. وفي الشهر الذي بدأت المذكرات تن
والسيد أسعد داغر في الصحف الفرنسية نسيوة تقلا عن
تقلا عن الاصل الالمانى. فباشر هو ق
فرنسية، وأخذت
نسيوة أهملت بعض ما أثبتته الصحف التركية مما يخالف مصلحة الفرنسي
التركية أسقطت بعض ما احتفظت به الصحف الفرنسية مما لا
ومعارضه الترجمتين والمقارنة بينهما أخرجا هذه المذكرات
در الاستطاعة. والله نعيم العون

محب الدين الخطيب

مقدمة

« لقد حكمت علينا المحكمة الابدية
مدافع الحلفاء ، وبسعاية نور شكيلة
(كتيبي) الا دفاعاً سهلاً
الاستئناف التي هي الرأي العا
المهاديء »
غليوم

ذلك ما قاله إمبراطور ألمانيا السابق ، للكاتب الألماني فون فر
شيان في ظلال أشجار السنديان بمدينة قصر دورن . إذاع هذا
مؤلف هذه المذكرات في خلال مقال عنها وسنه نشرته مجلة
« Current-History »

وإذا قال غليوم الثاني « كتيبي » فليكن

١ - هذه المذكرات ، وعنوانها :

٢ - كتاب « المناضد التاريخية » وهو بقلمه أيضاً

٣ - كتاب السكولة نيل نيمن المنشور بعنوان « أحادي

الإمبراطور »

إن إمبراطور ألمانيا السابق يصرف جميع وقته بالك
في منازعة الحاضر . ومما قاله للكاتب فرك في هذا

رأ في كل يوم أمهات الصحف الصادرة في الممالك التي كانت عدوة
 الكونية ، وأطلعُ - مع هذا - على كل ما ينشر في موضوع
 الحرب الكونية « من الكتب والرسائل . ومنذ نزلتُ بلادَ
 هذه لا يمضي عليَّ يومٌ إلا بتمحيص ما يقع عليه نظري من المواد المتعلقة بهذا
 الموضوع ، وأتولى بنفسني تصنيفها وترتيبها والمقارنة فيما بينها ، باستمرار

هذه الظاهر أن هذه المذكرات - التي سماها غليوم الثاني : حوادث وأشخاص -
 عالمي هم ما عني به ، وهو يقول في وصفها :
 خاتمة أشبه بتقرير موجه إلى الرأي العام لدخض أكاذيب الحرب . وقد
 نكون بياناً لذيذاً للحكايات التاريخية التي كانت تكون جافة
 من الذكريات المختلفة ، والنكت الشخصية

ولم تجأ فيها إلى زخرف القول ، والمجادعة في الاحتجاج والاستدلال ،
 فيها الحقيقة بأساطتها وبكل صراحه . والذي جعلته نصبَ عيني في
 الحوادث كما دعت ، غير ناظر إلى ما يترتب عليها من انتقادي
 في حكم ألمانيا . وأي فائدة لي من الطعن في مساعدي
 أنا الذي كنت أخذ على نفسي مسئولية الأعمال التي ألقى
 على عاتقي ، ألك في هذه الأعمال ما هو من ثمرات آراء
 تفكيري وإرادتي . إن كل فكرة أو خطة كنت
 مسئوليتها على ، وإن لم توافق رأيي الخاص

التاريخ السياسي لعهد حكلي لاسيل إلى تدوينه تدويناً علمياً إلا بعد
 الحرب الكونية التي لانزال مثوقة (1) رغم كل ماعقدوه من
 مثوقة مصابة بأفة

معاهدات ، والأبعد أن تتغير الحالة العقلية الحاضرة الم
الكونية ، والأبعد أن تفتح خزائن المستندات الم
جميع الأمم

« ان ألمانيا قد فتحت دفاترها للعالم ، وأما الحلفاء فإن
إسهاميت من مستنداتهم ليس إلا نزرأ ، وأنفضح نزر آخر منها
من أنباء أنفسهم ، وما سوى ذلك وهو الأكثر لا يزال سرّاً مذكراً
كثيراً من أسرارهم على كاتب التاريخ الاستفادة منه في التحقيق ، و
يمكن استخلاصه من بقايا يوميات أو مذكرات سفولسكي وسازو
وكليمنسو وبوتكراريه ودلكاسيه وادوارد غراي واسكويث ولويد
وويلسن ، وأي اعتراف يمكن أن تأخذه من خطهم لتكشف بيواطنه عما
من الظواهر

« قد تكون مذكراتي - حوادث وأشخاص - ظهرت قبل الآن
ولكنني فضل سدم الانتظار ، مؤثراً مصلحة قومي على مصلحتي ؛
هذه المذكرات سيفاً من الحق مسلولاً في وجه أكاذيب فرساي »



== حوادث و اشخاص ==

الفصل الأول

بسمرك

لني بسمرك وأنا أمير — وزارة الخارجية مدة بسمرك — الاستعمار والاسطول
سياسة بسمرك مع روسيا وانكترا — مؤتمر برلين — رحلتي الاولى الى روسيا
مهمتي في برست ليتوفسك — سياسة بسمرك مع روسيا — وفاة والدي — الرجل
الذين استعنت بهم بعد تنويعي — سياحتي الاولى في عهد امبراطوريتي
بسمرك وتركيا — الاحزاب السياسية — سلطة بسمرك — اغتصاب
مناجم الفحم — مبارضة بسمرك — المؤتمر الاجتماعي العام
انقذاع صلاتي ببسمرك — سياسة بسمرك الاجتماعية المنهجة
قانون حماية العمال — غنلة الانكترا عن الانظمة
الالمانية — مساعدة البحرية التجارية

صانئ بسمرك وأنا أمير

ان عظمة (بسمرك) السياسية، وخدماته الجليلة لملكة بروسيا والدولة
الالمانية كلها، لمن الامور التاريخية التي لها من الاهمية والمكانة مالا يحجراً
معه أحد من الناس أياً كان على ان يرتاب فيها
ولهذا فان ما قيل عني من أنني أبيت الاعتراف بتفوق بسمرك وعبقريته
يجب أن يحمل على محمل الروايات الكاذبة . والحقيقة التي لامراء فيها هي انني
اكرمت الرجل كل الاكرام، وانزلته منزلة الالهية، بما حففته به من مظاهر
الاعتبار والاحترام . وهل كان في امكاني ان افعل غير هذا ، وانا الذي
ترعرت وشببت في جيل يصح أن يطلق عليه اسم جيل عبادة بسمرك ؟
لقد أوجد هذا الرجل الامبراطورية الالمانية، وكان الساعد الايمن
لجدي ، وكنا نعبده اكبر رجال السياسة في عصره ، ونفاخر العالم بأنه الماني
كان بسمرك في هيكل تقسي الاله الذي أعبدته . غير ان الملوك كسائر

البشر من لحم ودم ، فهم مثلهم يتأثرون بمعاملة الناس . ولهذا فان بسمرك
قد حطم بيده تمثاله الروحي الذي كنت أعبدته ، بما أصلاني من نيران المطر
والمقاومة . ومع هذا فان اعتباري له ، وتقديري لعلوكه في السياح
يتأثرا بذلك ولم يتزعزعا



« البرنس أوتو بسمرك : ١٨١٥ — ١٨٩٨ »

لما كنت أمير برهميا ظالما كنت أقول لي بمشي : « عسى الله ان يطيل
حياة المستشار (بسمرك) لاني سوف اكون مطمئناً الى مؤازرته اذا كنت
بإعباء الملك »

ولكن احترامي له لم يكن ليوجب عليّ — بعد صيرورتي امبراطور :
ان اوافق على مشروعاته السياسية التي كنت واثقاً بعدم صوابها . ومن هذه
المشروعات التي كنت أرى خطأها (مؤتمر برلين) الذي انعقد سنة ١٨٧٨ .



« غليوم الثاني — وهو أمير بروسيا »

ثم جاء قانون حماية العمل ، فأسفت كل الاسف لنشوب خلاف بيننا عليه ، ولكني لم أجد سبيلا الى ملاقاته لان الواجب كان يقضي علي اذ ذاك بان أسلك سبيل التوفيق ، سواء في السياسة الداخلية أو في السياسة الخارجية ؛ وهي السبيل التي وقع عليها اختياري ، وقد منعتني اختياري لها ان اناصب الحزب الاشتراكي الديمقراطي العدااء الذي كان ينصح به البرنس بسمرك . لكن هذا الاختلاف في الرأي على مسائل سياسية لم يضعف اعجابي بالرجل ، وطل بسمرك في نظري خالق الامبراطورية الالمانية ، وهل كان عليه ان يفعل أكثر من هذا ليستحق شكر الوطن ويكون قبة بنيه ؟

ان عمله العظيم - الذي أوجد وحدة الامبراطورية - كان منقوشاً على منححات ذاكرتي ، وكانت تتحطم عنده كل الدسائس والمسايعي التي كان خصومه يحاربونه بها في الخفاء . ولم تضعف ثقتي به ، على ما كان يقال فيه من

صعدت الى العرش بعد جدي ، فكأنني سبقت الزمن ووثبت من فوق جيل .
ولا يخفى ما في مثل هذا الموقف من صعوبة ، لاني وجدني وسط رجال
ابيض نواصيهم وعلا مقامهم ، فكانوا أقرب الى الماضي منهم الى الحاضر ،
وكان ثقل الشيخوخة يعوقهم عن التدرج الى مستوى المستقبل
كنت في بادئ الامر مرتاحا الى وصولي للعرش بعد جدي . وكان الناس
يقولون ان ارتقائي ذروة الملك في شرح الشباب نعمة احسد عليها
ولكن سرعان ما علمت ان ارتياحي كان في غير محله ، وان الناس كانوا
على ضلال في اعتقادهم بسعادتي ، بعد ان خربت مشقة العمل مع رجل سياسي
كبسمرك بلغ من العمر عتيا ، ومن العظمة والمجد مكانا قصيا
والذين طالعوا (مذكرات بسمر ك) يعلمون حق العلم اني على صواب
فيما أقول ، فقد اعترف المستشار نفسه بتلك المشقة في معرض كلامه عن
« المستشار الشيخ والامبراطور الفتى » . ولما أطلته « بالين » على مشروع
ميناء همبورغ شعر بأن الايام قد تبدلت ، وان البلاد دخلت في جيل جديد
يفوته ادراك حقائقه ، فأخذ يقول ويردّد هذه العبارة : « هذا عالم جديد !
هذا عالم جديد ! »

وهكذا كان شعوره وقوله أيضاً يوم زاره الاميرال « فون تيربتز » -
وكانت الايام قد أثقلت كاهله - ليحمله على تأييده في مشروع بناء الاسطول
أما انا فقد شعرت نفسي بالارتياح لما عهد اليّ البرنس بسمر ك سنة ١٨٨٦
بمهمة دقيقة جداً في « برست ليتوفسك » ، ثم لما اتصل بي انه قال غني :
« ان هذا الرجل سيكون يوماً ما مستشار نفسه » ، يعني انه سيكون لي من
الخبرة والدهاء ما يجعلني في غنى عن سواي . وهذا يدل على ان البرنس
كان يحسبني شيئاً

في وزارة الخارجية

في النصف الاول من سنة ١٨٨٠ عينت - باقتراح البرنس بسمر ك -

انه حاكم بلاط « هو هنزولن » ، وعلى ما كان معروفاً عنه من انه يسعى
 لجعل السيطرة السياسية وراثية في أسرته ، بدليل انه كان يأسف على ان
 لا تصراف ابنه « بل » عن السياسة وعدم اهتمامه بها ، ويفكر في
 من بعده في يد « هربرت » ابنه الآخر
 والسبب فيما وقع بيني وبين بسمرك من الخلافات المؤلمة



في وزارة الخارجية التي كان يديرها الكونت هربرت بسمرك (ابن البرنس بسمرك) . وقبل أن أباشر عملي وصف لي البرنس بسمرك الاشخاص الذين سأتعرف بهم في (ويلهستراس) وصفاً موجزاً . ولما ذكر لي اسم فون (هولستين) وهو من أهم الرجال الذين يعملون معه شعرت من أقوال البرنس بالتلميح الى ضرورة الاحتراس من هذا الرجل . وأعطيني مكتباً خاصاً بي في الوزارة ، وسأهوني مجموعة مستندات تتعلق باتفاقيتنا مع النمسا ، وكيفية حصول هذه الاتفاقية وغير ذلك . وصرت أوصل زيارة البرنس بسمرك وابنه الكونت في منزلها المرة بعد المرة . فلما وثقاني صارا يباهران امامي بالكلام عن (هوستين) ، وكانا يخافانه كثيراً ، ويعترفان بنشاطه العظيم ، ويصفانه بالغرور ، فضلاً عن كونه رجلاً خطراً . وكان البرنس بسمرك يقول « ان له عيني ضبع » . وكانت هذه الوزارة في يد الكونت هربرت خاضعة للنظام الذي وضعه لها . وقد وجدته فظلاً في معاملته الموظفين الذين تحت اشرافه ، بل اني دهشت لمبالغته في فظاظته . وكان رجال الوزارة يرتعدون خوفاً كلما دعا الكونت أحدهم الى مكتبه أو كلما أشار اليه بالانصراف ، حتى اننا كنا نضحك كثيراً مما نراه من مظاهر خوفهم وارتعاشهم

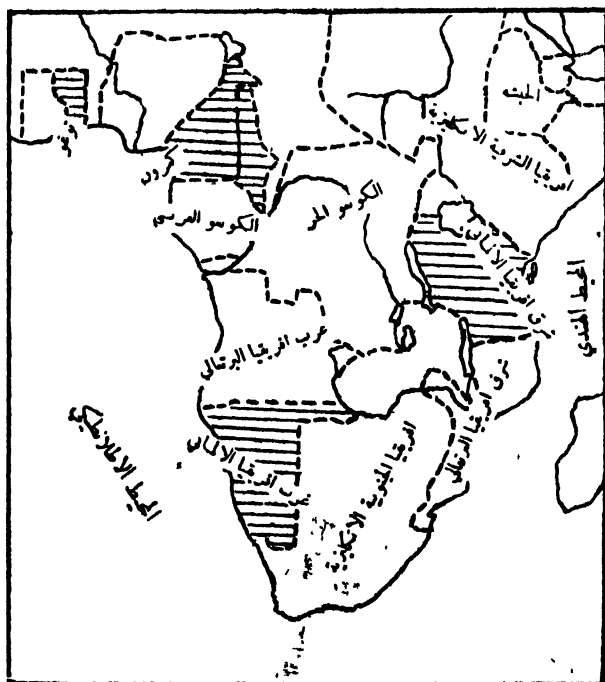
كان (بسمرك) يضع خطة السياسة الخارجية وحده بعد المداولة مع الكونت هربرت . وكان الكونت واسطة نقل أوامر البرنس الى مرءوسيه فيضعها كتابة بشكل مذكرات . وعلى هذه الصورة كانت وزارة الخارجية مكتباً تابعاً للمستشار لا يتم فيها عمل الا بأمره وإشارته . والحقيقة هي ان هذه الوزارة لم تهذب ولم تخرج رجالاً ذوي قيمة شخصية وافكار خاصة مستقلة ، خلافاً لما كان يجري في اركان حرب الجنرال « مولتسكي » حيث كان الضباط الجدد يتلقون تعليماً يؤهلهم لتكوين افكار خاصة مستقلة ، مع الاحتفاظ بالمبادئ القوية التي شهد الاختبار بصحتها وبالتقاليد القديمة العزيزة

لم يكن في وزارة الخارجية الا آلات تتحرك لتنفيذ ارادة معلومة ، ولم تكن هذه الآلات نفسها تدار بصورة تدع الواحدة منها تتصل بجماراتها وتطلع على كل دقائق المسألة التي كانت تقوم يبحث قسم منها ، فكان التضامن في العمل الواحد أمراً مستحيلاً

مكان البرنس بسمرق في وزارة الخارجية كصخرة من الغرايت قائمة
وسط المروج اذا زحزحتها لم تعثر تحتها الا على الديدان والجذوع المتشعبة

الاستعمار والأُسْطُور

وكنت قد وفقت الى الحصول على ثقة البرنس فصار يكثر من الكلام معي . ولما فتح باب أول عمالية استعمارية في افريقية طلب اليّ ان أطلعه على



✽ خريطة مستعمرات الالمان في أفريقيا ✽

ما كان لهذه العملية من التأثير في جمهور الامة وفي الدوائر البحرية . فوصفت له الالبتهاج الذي قابل به الشعب طريق الاستعمار الجديد المفتوح امامه ، فكان جواب البرنس : ان الضجة التي احدثتها العملية اكبر من العملية نفسها وسنحت لي فرص كثيرة بعد ذلك لمحادثة البرنس في المسألة الاستعمارية فعلمت منه انه عازم عزمًا اكيداً على استعمال المستعمرات كأداة مفاوضة ومساومة بدلا من استثمارها لخير البلاد والاستفادة مما فيها من المواد الخام . فرأيت من الواجب عليّ أن الفت نظر البرنس الى ان جماعة التجار وأصحاب الاموال قد نشطوا لترقية المستعمرات وانهم يعتمدون على الاساطيل لشد أزهرهم . وأبنت له ان الوقت قد حان للاهتمام بانشاء اسطول لنا حتى لا تكون املا كنا فيما وراء البحر معرضة للضياع . وقلت : ان البرنس قد رفع العلم الالماني في بلاد بعيدة ، ووراء هذا العلم شعب كبير ، فيجب أن يكون وراء هذا الشعب اسطول . ولكن بسمرك لم يصغ الى كلامي ، وكان في كل مرة يجيبني بهذه العبارة التي كان يرتاح الى ترديددا : « اذا حدث الانكليز أنفسهم بالنزول في أرضنا فاني أمر رجالي بانقبض عليهم » . وكان يرى ان الدفاع عن المستعمرات الالمانية يكون في ألمانيا

وما كان يهم البرنس بسمرك ان يعلم ان فكرة امكان نزول الانكليز في الاراضي الالمانية كانت مما لا يطيقه الشعب الالماني (وفي ذلك الوقت كانت جزيرة « هليغولند » انكليزية) وما كان يريد ان يفهم حاجتنا الى اسطول قوي بل والى جزيرة « هليغولند » نفسها لنجعل نزول الانكليز في أرضنا أمراً مستحيلاً

وكان هم بسمرك السياسي محصوراً في القارة الاوربية فكانت انكلترا على نوع ما خارجة عن حدود همومه اليومية ، لاسيما وان صلاته مع السبوري كانت حسنة منذ اليوم الذي حي فيه هذا السياسي الانكليزي المحالفة الثنائية (ألمانيا - النمسا) أو بالأحرى المحالفة الثلاثية (ألمانيا - النمسا - إيطاليا) حال عقدها

وكان البرنس يميل الى العمل بالاتفاق مع روسيا وانكترا وايطاليا ورومانيا، وكان يراقب باهتمام كبير علاقات هذه الدول بعضها ببعض وعلاقتها مع المانيا، وقد أظهر في ذلك من الدهاء والحنكة شيئاً كثيراً، حتى ان الامبراطور غليوم الاكبر شهد له ذات يوم شهادة لا تدع زيادة



✠ الامبراطور غليوم الاول ✠ - *

لمستريد اذ دخل عليه رئيس مكتبه الجنرال « فون البديل » ووجده في حالة تهيج عصبي شديد - على أثر خطاب ألقاه بسمرك - فخاف الجنرال ان تقضي ثورة الغضب على حياة الامبراطور فقال له : اذا كانت ارادة البرنس مخالفة لارادة مولاه فما على مولاه الا أن يبعده . فقال الامبراطور انه على مايشعر به من الاعجاب بسمرك ، ورغم اعترافه بجميله ، قد فكر فعلا بالانفصال عنه لان مواقفه الاستبدادية أصبحت لا تطاق في بعض الاحيان ؛ ولكنه يرى

أنه والبلاد بحاجة الى بسمرك . ومما قاله الامبراطور : ان البرنس بسمرك هو المشعبذ الوحيد الذي يلعب دائماً بخمس أكر . اثنتان منها في الهواء . وأنا لا أستطيع اللاعب بكل هذه الاكر مع أي امبراطور ولم يفهم البرنس ان استيلاءه على مستعمرات في افريقية كان يوجب عليه ان يرسل نظره الى ما هو أبعد من القارة الاوربية ، وان يسير في معاملاته مع انكترا على خطة سياسية واسعة . وكانت سياسته الخارجية مقصورة على دول اوربا . فلم تنل المستعمرات ولا الاسطول ولا انكترا قسطاً من اهتمامه . كما انه كان قليل الخبرة في السياسة العالمية العامة . وعلى هذه الصورة كانت وزارة الخارجية الالمانية تجهل كل شيء من العقاية الانكليزية والروح الانكليزية . بل ان هذه الروح كانت كيتاباً مقفلاً لا يطلع عليه رجال السياسة فيها . فلا عجب مع هذا ان بقوت البرنس بسمرك ان الانكليز كانوا يرمون الى اسط سيطرتهم على العالم

سياسة بسمرك مع روسيا وانكترا

قال لي البرنس يوماً ان غايته الفصوى هي منع روسيا وانكترا من الوصول الى اتفاق فيما بينهما . نسمحت لنفسى بأن أقول له ان هذه الفرصة قد سنحت لنا في الماضي وانا لو استفدنا منها لجعلنا ذلك الاتفاق مستحيلاً لمدة طويلة . وما كان علينا الا أن ندع الروس يقتربون من الاستانة ^(١) . سنة ١٨٧٧ - ١٨٧٨ . فانهم لو فعلوا ذلك لاسرع الاسطول الانكليزي الى الاستانة للدفاع عنها ولكن ذلك سبباً كافياً لنشوب الحرب بين الفريقين .

(١) ان في هذا الاعتراف عهد وذكرى اكمل نرفي . فلن ساوم الثاني بلوم بسمرك في هذا الموقف . وبعد من خطاته عدم تمكين الروس من الاسياحة على الاستانة . وسيرى القاري في الصفحة ١٧ و ١٨ ان المانيا عرضت على روسيا الاستانة والدردنيل . ومن هذا يدرك القاري ان الاوربيين على احتلانهم لا يسيطرون الا الى منافعهم ، وما الشرق في نظرهم غير سبلعة يسامون بها اويساومون عليها . وستظل الحال كذلك في كل قطر لا يبرهن على انه ليس بسلمة

ولكننا عوضاً عن ذلك أجبرنا الروس على قبول معاهدة « اياستفانوس » واضطروا لهم للتقهقر بعد ان كانت جيوشهم وصلت الى أبواب العاصمة العثمانية عقب معارك هائلة وحرب ضروس

وكانت نتيجة سلوكنا هذا انها جرّت روح الحقد علينا في الجيش الروسي وسوف لا تخمد جذوة هذا الحقد قبل زمن طويل . وقد علمت ذلك من الضباط البروسيين الذين خدموا في صفوف الروس في الحرب الروسية التركية وأولهم الكونت « بقايف »

ثم ظهرت الرغبة في تعديل هذه المعاهدة وابدالها بمعاهدة برلين . وهذا ما زاد في اظهارنا امام الروس اعداء « مصالحهم المشروعة ! في الشرق » . وقد أرجأ هذا العمل الخلاف الذي كان يتوقعه البرنس بين انكارترا وروسيا الى المستقبل البعيد

مؤتمر برلين

ولم يكن البرنس على رأيي في « مؤتمره » ، لانه كان غخوراً بالنتائج التي أحرزها بصفتة « وسيطاً شريفاً » . وقد ذكرني بقسوة انه درأ بذلك حرباً عامة . وانه كان ينبغي له أن يعرض توسطه

وقد نقلت هذا الحديث فيما بعد الى موظف في وزارة الخارجية ، فأخبرني انه كان في وزارة الخارجية لما وصل اليها البرنس بعد توقيع معاهدة برلين ، وانه تقبل فيها تهناتي الموظفين الذين اجتمعوا خاصة لهذا الغرض . وقد رفع البرنس رأسه حينئذ ورد على تهنيتهم قائلاً :

« انى أسوق الآن مركبة أوروبا على أربعة جياذ من أدلى هذا الكرسي » وزاد الموظف على ذلك فقال « ان البرنس كان مخطئاً ، لان الصداقة بين فرنسا وروسيا بدأت منذ ذلك الحين تحل محل الصداقة الروسية البروسية ، نخرج بذلك اثنان من الجياذ التي كانت تبحر المركبة

اكتسبت ثقته بصراحتي وغيرتي فلم أخدعه قط في حياتي
وفي أثناء وجودي في وزارة الخارجية عرض عليّ الهر (رشدو) المستشار
السري أموراً كثيرة منها ما يتعلق بالسياسة الاقتصادية والمستعمرات وغيرها ،
فادركت حينئذ مقدار تسلط انكيترا علينا لاننا لا نملك أسطولا . وعلمت أن
هيلغولند كانت للانكيز

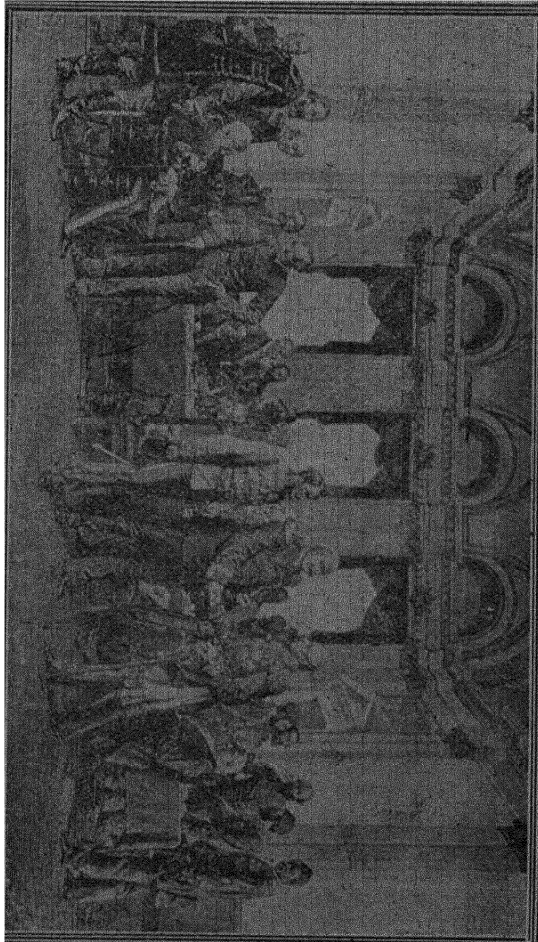
وكان الشعور عظيماً بضرورة توسيع مستعمراتنا بحكم الحاجة ، ولكن
ذلك لم يكن ممكناً الا اذا سمحت به انكيترا . ومثل هذا الموقف شديد الخطر
علينا ، وغير لائق بنا

وكانت افامي في وزارة الخارجية سبباً في أمور ازعجتني كثيراً . فان
أهلي لم يكونوا شديدي الميل الى بسمرك . وقد أسفوا على دخول ابنهم في
محيطه . وخافوا أن اتأثر بالمؤثرات غير المرضية فيما يتعلق بهم . وان ألقن مبادئه
الرجعية . وخلاصة القول انهم كانوا يخشون ان تقوم أمامي المشاكل التي كان
يسببها لهم النمامون الذين جاءوا من انكيترا أو خرجوا من « الاندية الحرة »
واعتمدوا بان والدي كان خير عون لهم . اما أنا فلم أعرض هذه الامور شيئاً
من اهتمامي . ولكن حالي في منزل والدي قد تصعبت من جرّاء ذلك ، وكانت
تبعث على الكآبة في بعض الاحيان

واضطرت أن اتحمل ساكتاً - من أجل البرنس - كثيراً من الامور
المكدره ، لاشتغالي معه . ولشدة تكتمي . وهذا التكتم امتحن مرارا
بأساليب قاسية ، وكان البرنس يجد ذلك طبيعياً

وكانت صلاتي حسنة بالكونت هربرت ، لانه عرف كيف يكون رقيقاً
تسريّ دشرته ، وكيف يجمع حول مائدته خيرة رجال السياسة وغيرهم
على ان هذه الصلات لم تنحول الى صداقة حقيقية . وقد ظهر الدليل على
ذلك حينما رفع استعفائه بعد ذهاب أبيه . فسألته حينئذ أن يبقني معي لكي
يعينني على الاحتفاظ بالتقاليد السياسية ، ولكنه رد عليّ بغلظة قائلاً انه اعتاد

وكان الروس يرون ان مهارة (دزرائيلي) السياسية هي التي حولت
 مساعي بسمرك « الوسيط الشريف » الى فوز انكليزي نمسوي أحرز
 على روسيا



١٨٧٨ سنة
 مؤتمرو برلين

واستمر البرنس على اظهار صداقته ومجاملته لي رغم اختلافنا في الرأي
 على أمور كثيرة . ولم يكن الفرق بين عمرينا حائلا دون علاقاتنا الحسنة ،
 لاني كنت - ككل أفراد أسرتي - من أعظم المعجبين ببسمرك ، ولاني

ان يشتغل مع والده فقط وأن لا يخدم غيره وانه يجب ان لا يطلب منه ان يتأبط محفظته ويضع نفسه في خدمة الغير

رحلتي الأولى الى روسيا

لما بلغ القيصر نقولا الثاني - الذي مات فيما بعد قتيلا - سن الرشد عهد الى - بافتراح البرنس سميرك - الذهاب الى بطرسبرغ لاقصد الغراندوق ولي العهد وسام « النسر الاسود »

وقبل سفري أطلعني الامبراطور والبرنس على أسرار العلاقات بين روسيا والمانيا . وعلى الصلات التي كانت بين البيذين المالكين . وأوقفاني أيضاً على عادات وتقاليد بلاط روسيا . وكلما لي عن كبار الرجال الذين سأراهم فيه . وقد قال لي الامبراطور في ختام الحديث انه يرد على مسمع حفيده نصيحة أعطاهها له الكونت (أدلبرغ) بمناسبة سفرته الاولى الى روسيا - وكان لا يزال شاباً بعد - وهي : « ان رجال البلاط الروسي - كسواء من سائر الرجال - يفضلون سماع المديح على سماع الانقاد »

اما البرنس فانه ختم تعليماته بالملاحظة الآتية :

« ان رجال الشرق الذين يلبسون القميص فوق السروال شرفاء النفس . ولكنهم متى صاروا يخفون أطراف قميصهم تحت السروال ويعلمون الاوسمة في أعناقهم فانهم يصبحون لصوحاً أشراراً »

وقد أرسلت من بطرسبرغ مرات عديدة الى جدي والى البرنس تقارير عما كنت أراه فيها ، وكنت أطلعهما فيها بالطبع على كل تأثيراتي وملاحظاتي بأكثر ما استطيع من الدقة . وقد لفت نظرها بنوع خاص الى ما شعرت به من فتور العواطف الروسية نحونا في تلك الايام ، خلافاً لما كان قاله لي الامبراطور والبرنس قبيل سفري

ولما عدت الى برلين هنا في على السهولة والصراحة التي كنت اكتب

بهما تقاريري ، فكان سروري بتهنئتهما عظيماً جداً ، ولا سيما لاني كنت أخشى
أن تكون تقاريري خيبت ما كان هذان الرجلان العظيمان قد علقاه عليّ
من الآمال

مراعني في برست لينوفسك

وفي أواخر شهر أغسطس - أو في أوائل سبتمبر - سنة ١٨١٦ على أثر
مقابلة « غالستين » بين الامبراطور غليوم الاكبر والبرانس بسمرك وبين
الامبراطور فرنسيس يوسف - وهي مقابلة حضرتها أنا أيضاً بأمر من جدي -



الامبراطور النمساوي السابق

تامة أن أعرض على روسيا الاستانة والدردنيل معاً^(١) (وكان معنى هذا العرض القضاء على معاهدتي أياستفانوس وبرلين). وكانت نية بسمرك متجهة الى محاولة اقناع تركيا بان الاتفاق مع الروس خير لها ولمصلحتها!

ولما وصلت الى « برست ليتوفسك » استقبلني القيصر بكل مظاهر الصداقة فحضرت استعراض الجيش والتمرينات الحربية والدفاعية التي قام بها الى آخر ما هنالك من الاعمال العسكرية التي ظهر لي بكل جلاء انها قائمة على روح العداء لالمانيا

ولما سئحت لي فرصة للاجديد مع القيصر عما جئت اليه من أجله قال لي : « اذا أردت الاستانة فاني قادر على الاستيلاء عليها متى شئت بدون حاجة الى اذن البرنس بسمرك وموافقته ». فظهر لي من هذه الصورة القاسية التي قبول بها اقتراح البرنس اني فشلت في مهمتي . فأسهرت الى كتابة تقرير الى بسمرك سجلت فيه كل ما جرى لي

سياحة بسمرك مع روسيا

ولا شك أن هذا الاقتراح الذي جئت به الى القيصر باسم البرنس بسمرك كان معناه ان البرنس قد ذير الطريق الذي سار عليه الى مؤتمر أياستفانوس ، ثم الى مؤتمر برلين . وقد يكون التطور الذي كان جارياً في السياسة الاوربية العامة في تلك الايام قد أقنعه بان الوقت قد حان لتغيير الورق على مائدة القمار السياسي أو - كما كان يقول جدي - لتغيير « الرقصة » على مسرح السياسة . ولم يكن هذا الانقلاب ممكناً الا لرجل اامتدّ نفوذه على العالم وبلغ أقصى درجات العظمة الادارية والسياسية كما كان بسمرك . فهل كان البرنس دبر خطة جديدة لمعاملة روسيا يمنع بها وقوع حرب عامة ؟ أم كان يريد التزلف لانكلا ترا ؟ وهل كانت مقاومته السابقة لاطاع الروس في الشرق

أمرت بالذهاب الى روسيا لاطلع الامبراطور اسكندر الثالث شخصياً على ما دار من الاحاديث في تلك المقابلة ، ولا فوضه في مسائل تركيا والبحر المتوسط التي كانت لا تزال معلقة

وقد أعطاني البرنس بهذا الصدد تعليمات وافق عليها الامبراطور ، وكانت هذه التعليمات تتعاقب بما كانت تبديه روسيا من الميل الى احتلال الاستانة ، وهو ميل لم يكن البرنس يعارضه في شيء . بل بالعكس فانه عهد اليّ بصراحة



وواجباته ، وانه ينبغي ان ينفذ ارادة جده الاخيرة بلا تردد
وأوضحت ذلك بقولي : ان هذه الارادة ذات صلة بمصلحة من مصالح
المانيا الحيوية ، واني سأحترمها لخير البلاد التي استلمت زمامها بارادة الله .
ولكن الملكة جدتي يمكنها ان تثق باعمالي . واني سأعرف لها جيلها في كل
نصيحة تسديها لي لان التجربة قد حنكتها في مدة ملكها الطويلة . اما فيما



تضمر رغبته البعيدة في العودة يوماً ما الى تنشيط هذه الاطماع ومساعدتها ؟
هذا ما لم يسعني علمه لانب البرنس لم يطلع قط أحداً في يوم من الايام على
تدبير السياسة الخطيرة

واذا كان الامر كذلك فان البرنس - اعتماداً على ما كان له من الثقة
بنفسه - قدّر أن هذه الحنكة السياسية سنؤدي الى جعل الروس أميل الى
موالاتنا من ذي قبل فجعلهم يعتقدون بأن تحقيق أمانهم متوقف على المانيا
وحدها بينما الموقف السياسي العام في أوروبا كان أقل توتراً مما كان سنة
١٨٧٧ - ١٨٧٨ . وتلك المناورة عجيبة لم يكن في استطاعة أحد غير بسمرك
أن يقوم بها . غير ان هذه المناورة السياسية لم تكن لتخلو من الضعف والوهن
الذين يظهران غالباً في مشروعات عظماء الرجال

وهل أطلع البرنس انكترا على ذلك الاقتراح الذي عرضه على روسيا ؟
لا شك ان انكترا كانت مصممة على أن تقاوم بكل حال هذا المشروع كما
قاومته سنة ١٨٧٨ . وفي كلا الحالين فان بسمرك كان قد اختط لنفسه - منذ
تلك اللحظة - السياسة الجديدة التي قاب لها بالرفض لما أشرت عليه بها (١)
ملفتاً نظره الى ما خيب به آمال الروس بمنعه إياهم من الدخول الى الاستانة
بعد وصولهم الى أبوابها

ولما كنت في التمرينات الحربية في (برست ليتوفسك) شعرت شعوراً
تاماً بأن الضباط الروس كانوا في معاماتهم اياي أقل اكتراثاً بي ، واكثر ابتعاداً
عني ، مما كانوا وقت زيارتي الاولى لبطرسبرغ . ولم أسمع كلمة تشف عن الميل
الى المانيا الا من بعض شيوخ القواد الذين ألحقوا بخدمة البلاط القيصري في
عهد اسكندر الثاني ، فعرفوا الامبراطور غليوم الاكبر وحافظوا على اخلاصهم
له ، ولم يتمتعوا قط عن اظهار ما كان له في نفوسهم من الاحترام . وقد جرى لي
حديث مع أحدهم عن العلاقات بين البلاطين الروسى والالمانى وبين الجيشين

والبلايين فقلت له اني ارى انقلاباً محسوساً في هذه العلاقات . فقال « الذنب في ذلك على مؤتمر برلين ! تلك غلطة كبرى ارتكبها بسمرك : فقد قضى على الصداقة القديمة التي كانت بيننا وازال الثقة بالمانيا من البلاط ومن الحكومة وجعل الجيش يشعر بانه جنى عليه جناية عظمى بعد الحرب الدموية التي خاض غمارها سنة ١٨٧٧ وبانه لا بد له من أن ينتقم لنفسه . وهكذا فانك تبعدنا الآن حافاء هذه الجمهورية الفرنسية الماعونة الممتلئة بغضاً لكم والقائمة على أفكار مخربة تد تكون ذداً السبب في انهيار بيتنا المالك اذا وقعت الحرب بيننا وبينكم » . وما أعجب هذه النبوءة بمصير البيت المالك في روسيا !

وعدت من (برست ليتوفسك) الى (ستراسبورغ) حيث كان جدي الا براطور موجوداً للاشراف على التمرينات العسكرية . فعلمت عند وصولي ان الحالة السياسية حسنة رغم فشل مهمتي . وقد ارتاح جدي الى السلام الودي الذي حملنيه القيصر اليه ، وعده دليلاً على ان العلاقات الشخصية بين الامبراطورين لم يطرأ عليها تغيير . وما كان أشد دهشي اذ تلقيت كتاباً من البرنس بسمرك يعرب لي فيه عن شكره وتقديره لنشاطي وللمعلومات التي عدت بها . وكان هذا دليلاً على أن الاستنتاجات التي كنت استنتجتها من رحلتي لم ترق في عين جدي ولا في عين البرنس

كان مؤتمر برلين قد اوجد في الدوائر العسكرية الروسية كرهاً لكل ما هو بروسي أو الماني ، وزاد في هذا الكره ما كان لهذه الدوائر من الصلات بالضباط الفرنسيين الذين كانوا يسعون لتحويله الى عدااء ينتهي بحرب انتقام . ونسي الروس صلات الاخاء المسلح التي كانت تجمع بينهم وبيننا والتي كانت لا تزال محترمة في بلادنا . وعلى هذه الصورة أُلقيت في تربة روسيا البذور التي استثمرها الحلفاء في الحرب الكبرى لشفاء حقدهم ، واتحد مبدأ الانتقام لفشل (سيدان) بمبدأ الانتقام لمؤتمر (اياستفانوس) ان الكلمات التي قالها لي ذلك القائد الشيخ في (برست ليتوفسك) نقش

على صفحات ذاكرتي . وهي التي حملتني على مقابلة اسكندر الثالث ونقولا الثاني مقابلات عديدة . وكنت في كل مرة أجتمع فيها بأحدهما أجعل نصب عيني ضرورة تحسين العلاقات بين روسيا والمانيا ، لاسيما وان جدي كان أورثني هذه الرغبة وهو على فراش الموت



الامبراطورة السابقة أوغستا فكتوريا — زوجة غليوم الثاني
(تزوج بها سنة ١٨٨١ — توفيت سنة ١٩٢٠)

وفي سنة ١٨٩٠ بينما كنت في تمرينات (نارفا) العسكرية حملتني الظروف على أن أقص على اليعزر الروسي حكاية تنحية بسمرك بتفصيلها . فأصغى الى حديثي اصغاء تاداً . ولما جئت على آخر كلامي قبض هذا العاهل على يدي — مع ما كان مشهوراً به من التحفظ والبرود والاقلال من التكلم بالسياسة — وشكر لي ما قدمته له من برهان على ثقتي به . وبعد ان صرح لي بانه آسف لاضطراري الى الانفصال عن بسمرك قال لي ما يأتي بالحرف :

« اني أهمهم خطة عملك . فالبرنس — على ما كان له من الصيت والعظمة — لم يكن في حقيقة الامر الا موظفاً من موظفيك وعاملاً من عمالك . ولهذا

فكان من الطبيعي ان تنحيه متى رفض ان يأتمر بأوامرك . اما فيما يخصني انا فاني كنت دائماً ذليلاً الثقة به ولم أصدق قط كلمة واحدة مما كان يقوله لي أو يوحي بتقديمه الي . لاني كنت على يقين بأنه كان دائماً يهزأ بي ويكذب علي . واما فيما يتعلق بالعلاقات فيما بيننا نحن الاثنين يا عزيزي غليوم - وكانت تلك المرة الاولى التي يخادبني فيها القيصر باسمي - فان سقوط البرنس بسمرك سيكون له أحسن النتائج . فيزول الارتياح وتنفي الشكوك . اني اثق بك ، وفي وسعك ان تثق بي »

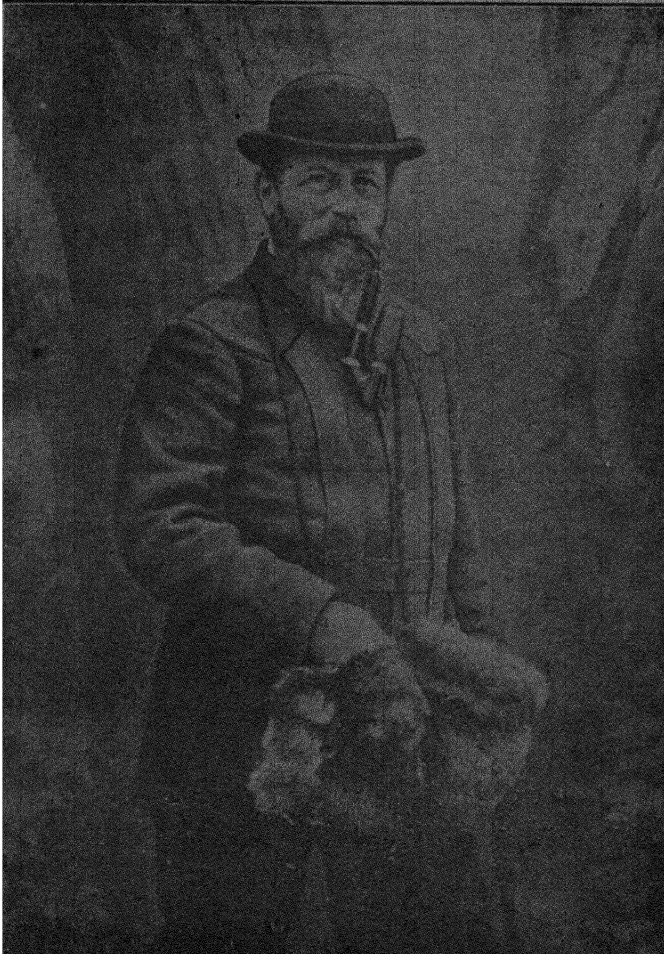
فأدركت في الحال المعنى الحقيقي لهذه الكلمات التي كانت في الحقيقة على جانب خطير من الاهمية . ولست الا من الذين يفهمون بسرعة الى أي حد تصل الجأمة بين عاهل وعاهل . ولهذا فقد استخلصت من كلمات القيصر أنه كان شديد الارتياح لاعتزال رجل سياسي عظيم كبسمرك ميدان العمل والسياسة ، وفي هذا ما يدل على ان البرنس كان على خطأ في اعتقاده بأنه حائز علي ثقة القيصر . غير ان ارتياح اسكندر الثالث الى ابعاده لا ينمي على كل حال تقديره العظيم لحنكته السياسية

وعلى أي حال فان القيصر أوفى بوعده حتى آخر لحظة من حياته . غير ان وفاءه لم يغير شيئاً كبيراً في سياسة روسيا العامة . ولكنه كان صادقاً لالمانيا على ان روسيا لاتهاجمها . وكان هذا الامر متركزاً على صدق اسكندر الثالث ، وعلو اخلاصه . غير ان الحالة تغيرت لما خلفه على العرش ابنه الضعيف الارادة

وفاء الامبراطور فريدريك الثالث

ولم اكن أجهل تطورات الداء الخبيث الذي أودى بحياة والذي الامبراطور فريدريك الثالث ، لان الاطباء الالمان الذين دعوا للاستشارة مع السر (مورلي ماكنزي) الطبيب الانكليزي بسطوا لي الحالة تماماً ، وكان

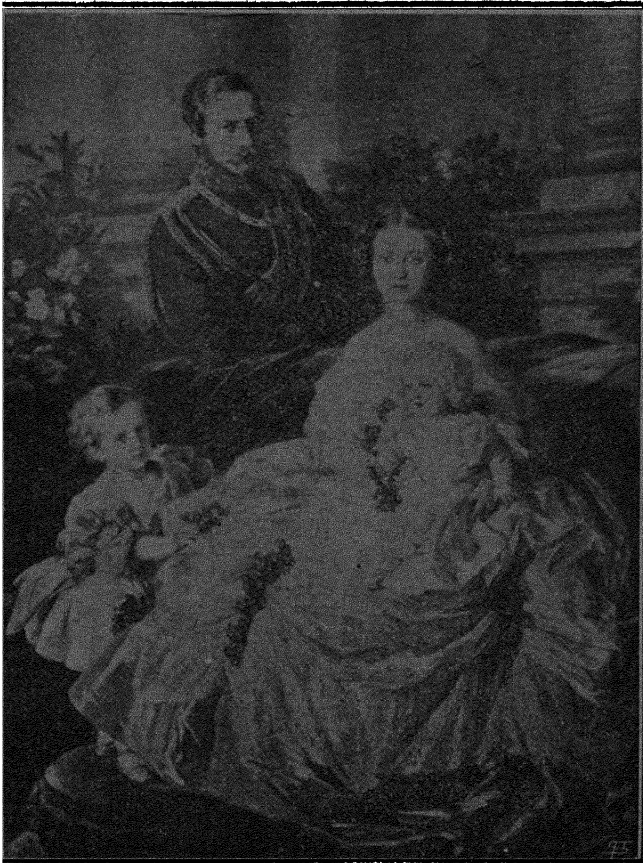
ألمي وقلتي عظيمين جداً ولا سيما لأنه لم يكن في امكاني الاجتماع بوالدي
العزیز علی حدة لان الاطباء الانكايز كانوا محيطين به احاطتهم بأسير حقيقي



✠ الامبراطور فردريك الثالث (والد غليوم الثاني) : ١٨٣١ - ١٨٨٨ ✠

وقد كان في طاقة مكاتبي جميع الصحف ان يقفوا على سير المرض بمجرد
مرورهم في غرفة الاطباء ، اما انا فكانوا يختلقون الموانع ويقيمون العقبات
لمنعي من الوصول الى والدي أو من مكاتبتة ، وكانت رسائي تصدر غالباً

ولا تسلم اليه . وفضلاً عن ذلك فإن رجال الدولة في عهد والدي حملوا علي بواسطة الصحف ، وافتروا علي أموراً كثيرة . وامتاز بذلك اثنان من الصحفيين أحدهما (شيندروفيتش) والثاني (جاك سن سر) في (الفيجارو) . ولقد قرت عين والدي وهو في ساعة احتضاره برؤية الاستعراض الذي جرى بقيادتي وإدارتي ، فقد كتب لي رسالة قبل موته يعرب لي فيها عن سروره بذلك . فكان سروره هذا نوراً في ظلمة الاحزان التي تراكمت يومئذ



طفولة غايوم الثاني وأخيه البرنس هنري -
(وهما في حجر أبويهما فردريك وفكتوريا)

في نفسي بسبب ما اعتراني من قلق وقهر وشبهات ؛ ولا سيما العداء الموجه
علناً الى والدتي ، واهانتهم اياي بزعمهم أن بيني وبين والدي اختلافاً

الرجال الذين استعفت بلامهم

ولما أغمض الامبراطور فريدريك الثالث عينيه الى الابد وقعت أعباء
الحكم الثقيلة على عاتقي وانا شاب . فاضطرت في بدء الامر الى تغيير موظفي
بعض المصالح ، لان كثيرين كانوا من الشيوخ في حاشية الامبراطور العسكرية
وبين الموظفين أنفسهم . فان الحاشية العسكرية التي كانت للامبراطور غليوم
الاكبر ابقاها الامبراطور فريدريك الثالث على ما كانت عليه من غير ان



يستفيد الجيش من رجالها ثم ضم اليها عدداً من ضباطه فيما بعد . وقد استغثت
 - بكل لطف - عن الذين جاء دور حالتهم الى المعاش ، اما الباقون فقد انتظم
 بعضهم في الجيش العامل وابتقيت الشبان منهم في خدمتي في فترة الانتقال
 ثم اطلقت على « الحاشية العسكرية » اسم « هيئة أركان حرب جلالته »
 واخترت الجنرال فون (فيتيخ) وكيلا لرئاسة اركان حربي والجنرال فون
 (هانكي) قائد الفرقة الثانية من فرق المشاة في الحرس رئيساً لدائرتي
 العسكرية وقد كان صديقاً للامبراطور فريدريك الثالث وكان رئيساً لي حينما
 كنت في ألابي الفرسان الاول من الحرس الامبراطوري

وكانت لهذين الرجلين خبرة عظيمة في الشؤون العسكرية ، ووقوف على
 المبادئ الجديدة . وقد ظلا الى آخر أيامهما على اتفاق تام في الرأي مع
 وليكهما . وكان اخلاصهما لي اخلاصاً حقيقياً وذا مغزى

واخترت الكونت أوغست أولنبورغ مشيراً (مرشالا) أول لبلاط ،
 وكنت قد عرفته منذ صباي ، وكان في مثل هذه الوظيفة في عهد والدي .
 وظل قائماً بالمهام التي ألقيتها على عاتقه في القصر الى أن بلغ الثانية والثمانين من
 العمر حيث أدركته الوفاة في شهر يوليو سنة ١٩٢١

وكان رجلاً كاه ظرف وأدب ، بعيد النظر في شؤون البلاط وشؤون
 السياسة ، حر الضمير ، شديد الاخلاص لملكه ولابيت المالكة

ثم اخترت الهرفون (لوكانوس) بعد معاونة البرنس بسمرك ، وجعلته
 رئيساً للديوان السياسي ، وكنت قد أخذته من وزارة الاديان والمذاهب
 أما البرنس بسمرك فقد ظلت صلاتي به حسنة وثقتي كبيرة منذ أقت في
 وزارة الخارجية للتمرن على الاعمال . وكنت أحترم الوزير القادر بكل قوى
 نفسي الشابة ، وأفاخر باني اشتغلت تحت رئاسته ، وبأني سأواصل عملي
 بالاشتراك معه بعد ما صار وزيراً لي

سيامنى الاولى فى عهد امبراطورينى

وكان البرنس قد شهد آخر ساعات الامبراطور الشيخ وسمع « وصيته السياسية » لتنتقل الى حفيده ، ولا سيما نصائحه بشأن العناية الخاصة التي يجب أن تكتنف صلاتنا بروسيا . لذلك رأى ان زيارة بطرسبرغ في الصيف أول عمل سياسي يجب أن أقوم به إزاء العالم . لانه يعد تنويراً بعلاقاتنا مع روسيا طبقاً لما أراد جدي في وصيته الأخيرة . وقد أعد البرنس « تعليمات السفر » وعرضها عليّ

وصادف تنفيذ هذا المشروع بعض الصعوبات . فان الملكة فكتوريا أرسلت اليّ كتاباً باهجة الحيرة ، ولكن مظاهر السلطة بادية فيه ، فقالت انها لا توافق على الزيارة التي أعدتها لبطرسبرغ ، وترى من الملائم ان انتظر مرور سنة الحداد . وان أول زيارتي بعد ذلك يجب ان تكون لها هي جدي ، ولانكثرا التي هي وطن والدتي ، ثم يأتي دور سائر الدول بعد ذلك

ولما أطلعت بسمرك على هذا الكتاب استشاط غضباً ، وجرت على لسانه كلمات « الخالة انكثرا » و « تدخلها الذي لا معنى له » . ثم أعلن انه يجب وضع حد لهذه الحال ، وقال « ان لهجة هذا الكتاب تعلمنا كيف كانت الحماسة والزوجة تدبران ولي العهد والامبراطور فريدريك . . . الخ »

ثم أراد البرنس ان يعرض نص الرد الذي يرسل الى الملكة على بساط البحث ، فقالت له اني أعرف كيف أكتب هذا الرد وحدي ، وانه سيكون كما يجب ان يكون ، وسأذكر اني حفيد وامبراطور معاً . وسأطلع البرنس عليه قبل ارساله

وكان هذا الرد من حيث الشكل كما يجب ان يكون لانه مرسل من حفيد الى جدة حملته على ذراعيها حينما كان طفلاً ، فضلاً عن ان عمرها يستحق الاحترام . ولكنه بسط بكل جلاء ووضوح حالة الامبراطور الالماني

يتعلق بالشئون الألمانية فينبغي لي ان اطلب الحرية في اعمالي ، فسفري الى
 بطرسبرغ ضرورة سياسية ، وقد أمرني جدي الامبراطور ان ازيد عرى
 الروابط العائلية وثوقا مع الاسرة الملكية في روسيا
 وافق البرنس على النص الذي وضعته لارد على الملكة ثكتوريا . وقد
 وصلني جوابها عليه بعد مدة فكان مفاجأة كبيرة لنا . لان الملكة اعطت
 حفيدها الحق فيما قرره ، وقالت انه يجب علي ان أفعل ما تقضي به مصالح
 بلادی . ثم اعربت عن سرورها لانها ستاتي قريباً الى جانبها
 ومن ذلك الحين صارت علاقتي بالملكة على أحسن ما يرام ، الى درجة
 ربما أخافت أولادها . وبدأت تعامل حفيدها كملك وبقاعدة المساواة
 ورافقتني في هذه الرحلة - التي كانت في بداية حكمي - الكونت هربرت
 بسمرك بصفته ممثلاً لوزارة الخارجية ، فكان ينشيء متون الخطب ، ويقوم
 بوظيفة الدلالة لي في المناقشات السياسية ، وفقاً للتعليمات التي تلقاها من أبيه
بسمرك ونركيا

وبعد عودتي من الاستانة سنة ١٨٨٩ اعربت للبرنس - بناء على طلبه -
 عما شعرت به في اثناء زيارتي لليونان . وكانت شقيقتي (صوفيا) قد اقترنت
 حديثاً بقسطنطين ولي العهد . ثم تكلمت معه عن الاستانة أيضاً
 وقد دهشت لانه أعرب عن احتقاره الشديد لتركيا ورجالها ولكل ماله
 صلة بها . خاولت ان أغير رأيه في هذا الشأن . ونوهت ببعض العوامل الملائمة
 لمصلحة الترك . ولكن ذلك لم يخدم نفعاً . ولما سألته عن الاساس الذي بني
 عليه رأيه قال : ان الكونت هربرت يعتقد ان تركيا لا تعدّ ، ولا يحسب
 لها حساب . ولم يعدل البرنس والكونت هربرت عواطفهما ازاء تركيا ، ولم
 يخدم سياستي التركية ^(١) مع انها كانت السياسة القديمة التي اتبعها
 فريدريك الاكبر

الامزاج السياسية

لما استلمت زمام الحكم بعد وفاة والدي كما قلت آنفاً كانت نتيجة ذلك انتقال زمام الامور من يد الرجال المعاصرين لجدي الى يد الرجال المعاصرين لحفيده . وبذلك صار الرجال المعاصرون لوالدي محرومين من أن يكون لهم دور يتولون فيه مقاليد الحكم . وكان هؤلاء الرجال متشبعين بالافكار الحرة لصلاتهم بفرديريك ولهم ولى العهد ، ولأنهم كانوا يعلقون الآمال على الاصلاحات المنتظرة في عهده . فلما توفي والدي فرديريك ولهم حبطت آمال هؤلاء الساسة لأنهم تركوا وشأنهم بنوع ما . ومع أنهم لم يعلموا شيئاً مني ، ولم يعرفوا امانى واغراضى ؛ فانهم أبدوا التحفظ أمامي والحذر مني ، عوضاً من أن يعلقوا على الابن الآمال التي علقوها على أبيه لمصلحة البلاد

ولم يشذ عنهم في ذلك الا أحد ممثلي حزب الاحرار القوميين ، وهذا الرجل الممتاز الذي كان حينئذ في ابان شبابه هو الهر (فون بندا) ، وكنت قد تعرفت به من قبل لما كنت امير بروسيا في حفلة صيد الارانب التي اقامها المستشار (دياز) في (ياربي) . وقد اكتسب منذ ذلك الحين عظمي وثقتي عندهما كنت أسمعته يتناقش مع أولئك الرجال المسنين في المسائل السياسية والزراعية والاقتصادية ، فقد لاحظت أنه كان أكثر استقلالاً في الرأي . ودعاني الى قصره في (بودوف) من ضواحي برلين فاجبت دعوته بسرور ، ثم جعلت هذه الزيارة عادة لي في كل عام . ولا تزال في تسمي ذكرى جميلة لهذا الوسط العائلي الذي كنت أتمتع فيه بسماع الموسيقى الجميلة بفضل ما كان لبناته من مهارة . ولما كنت أتحدث مع (فون بندا) في المسائل السياسية رأيت له نظرات بعيدة وآراء مجردة من تأثير جميع الطبقات الاجتماعية عليها . لذلك كان في امكانه ان يدبر الشؤون المختلفة في الحكومة . وقد اسداني نصائح كثيرة كان يحتمل فيها الامور الحزبية بصدر واسع ،

فنفعتني هذه النصائح تفعاً جزيلاً في مستقبل أيامي ، وكانت صادرة من قاب الرجل البروسي العريق في الشرف الذي يرى أكبر همه الاخلاص للمليكة ان كل مدة امبراطوريتي تشهد لي بأنني لم اناويء حزب الاحرار ، ولم اكن خصماً لحزب من الاحزاب ، اللهم الا الاشتراكيين المتطرفين . وكان (ميكل) أشهر وزراء ماليتي من الاحرار ، وأكبر وزير لي في وزارة التجارة (مول) من الاحرار أيضاً . وان فون (بينيكس) رئيس حزب الاحرار نفسه تولى رئاسة وزارة (هانوفر) . وفي الشطر الاخير من مدة حكمي تعرفت بواسطة فون ميكل بنائب من قدماء الاحرار أعني فون (سيندل) صاحب الاملاك في الشرق ، فقد صارت لي به صلات متينة ، وقد عمل مع فون ميكل في شؤون السكك الحديد والاقنية . وهو رجل متوقد الذكاء وعلى جانب من الحس السليم ، وله مكانة عليّة . وانه من أشد انصار الحرية وان كان مظهره يوم أنه رجعي

وكانت صلاتي بحزب المحافظين واحتكاكي به عظيمين ، وكان هؤلاء الأشراف المرارعون يقابلونني مراراً أمّا في حفلات الصيد التي كان يقيمها البلاط ، أو في غيرها ، أو في البلاط عينه حيث كانت لهم بعض الوظائف . وكنت افف بواسطتهم على جميع الشؤون التي تهم الزراعة بالتفصيل ، وقد عرفت العوامل التي تؤثر في الفلاح ، والامور التي يشكو منها

أما جماعة الافكار الحرة فيما يتعلق بالعقائد الدينية فقد ظلوا ثابتين في خطة المعارضة ، ولم تكن لهم بي صلة قط ، لما كان عليه قادتهم من شدة وصلابة وكان الحزب الذي أحدثه جماعة (كولتور كامبف) - وهو الخصم القوي الدود للبروتستانتين - غير ظاهر بمظهر التعضيد للامبراطورية ، ومع ذلك فقد كانت لي صلات متواصلة بكثيرين من كبار رجاله ، حتى اني تمكنت من اقناعهم بالتعاون الفعلي لمصلحة المجموع . وكان اهر شورلر (الاب) خير عون لي في هذه المهمة ، فانه لم يخف يوماً ما عواطف اخلاصه لعرش بروسيا

وقد انضم نجله وزير الزراعة الى حزب المحافظين
 اما حزب الوسط - الذي كان له في شخص زعيمه القديم (وند هورست)
 أقوى دماغ سياسي في البرلمان - فقد كان مؤيداً لكثير من المشروعات .
 ولكن لم يكن من الممكن - رغم كل هذا النشاط - ان لا نعترف بوجود
 المحافظة على مصالح كثيرة من مصالح الكنيسة الرومانية
 وعند ما كنت الامير ولهم ، أرسلت الى الرئيس الاول فون (اهنباخ)
 - من مقاطعة براندبورغ - لاتمرن عنده على الادارة الداخلية والشؤون
 الاقتصادية ، وكان اهتمامي عظيماً فيما بعد بكل الالاحات التي يجب ان تتم في
 جميع المصالح ، من حفر الاقنية وانشاء الطرق وادارة النابات واصلاح وسائل
 النقل والعناية بصحة السكان واستخدام الآلات في الزراعة والرقي الذي
 يتطلب منها من هذه الوجهة . وقد تبيت عناية خاصة بحفر الاقنية وانشاء
 السكك الحديدية في المقاطعات الشرفية حيث كانت مهمة تماماً

سليمان بسمرك

ولما ارتقيت العرش بحثت في هذه المسألة مع الوزراء ، وكنت متفقاً
 معهم على تنشيط جميع الهمم في دوائرهم المختلفة . ولكن هذا البرنامج
 اتضح لي استحالة تنفيذه مادام البرانس بسمرك في منصب الحكم ، لانه كان
 يريد ان تكون الكلمة العليا له في جميع الاحوال . وكان يقضي بذلك على كل
 روح استقلالية في مساعديه . فأدركت من ذلك أن الوزراء الذين كانوا تحت
 سلطة بسمرك لم يفهموا شيئاً من « افكار » العاهل « الفقى » و « البدع »
 التي يأتيهم بها . وعلى هذا فان الوزارات كانت آلات يديرها بسمرك ، وكان
 ذلك أمراً طبيعياً لسابقة رئيسهم في خدمة الوطن والاحسان الى ألمانيا
 وامتيازه بالمقدرة والدهاء ، فلا غرو اذا كانت له عليهم هذه السلطة .
 ولكن هذه الحال كانت تؤدي بي من مشكلة الى مشكلة . فكلمنا اقترحت

اقترحاً كان جوابهم لي « ان البرنس لم يرض بذلك ، ولا يمكن الحصول على موافقته » أو يقولون « ان الامبراطور غليوم الاول لم يطلب مثل هذا الطلب ، وهو مخالف لتقاليدنا . . الخ . . الخ » . وحسبي أن أورد مثلاً واحداً لما كانت عليه سيرة الوزراء معي مدة بسمرك : فقد كنا نفكر في تجديد قانون كان البرنس بسمرك استصدره لسحق الاشتراكيين ؛ فرأيت ان تخفف أحكام بعض المواد ، ورفض بسمرك قبول هذا التعديل ؛ فاشتدت المناقشة في ذلك ؛ وأخيراً عقدت المجلس الامبراطوري الاعلى ، فوقف بسمرك في ممشي القصر وقال لاحد الياورين التابعين لي « لقد نسي الامبراطور انني ذو سلطة واسعة ومطلقة واني في الوقت نفسه أحمل سيفاً فاذا حاول الاشتراكيون احداث ثورة فاني أخمدها بقوة الجيش » . ثم قال : « ينبغي للامبراطور أن يدعني حراً ، وأن يكون هو في راحة . وأصر بسمرك في المجلس الامبراطوري الاعلى على رأيه ، فأخذت رأي الوزراء واحداً بعد واحد ، فكانوا يبدون آراءهم بغير اكتراث ، ثم جمعنا الاصوات فكانت أصوات جميع الوزراء ضدي . وان مسألة جمع الاصوات قد برهنت لي مرة أخرى على ما لرئيس الوزراء من السلطة المطلقة على الوزراء . فاني لما ذكرت هذا الامر للهـر (لوكانوس) الذي كان مثلي في دهشة وحيرة بادر لوكانوس الى الاجتماع ببعض الوزراء وفاوضهم في هذا الامر فصرحوا له بأنهم « ليسوا في المركز الذي يخولهم معارضة بسمرك » وان تكليفهم بابداء رأي مخالف لرأيه ليس من الامور الممكنة

اعتصاب الممرنين

فوجئت الادارة الملكية في ربيع سنة ١٨٨٩ بالاعتصاب الكبير الذي أعلنه المعدّنون في وستفاليا ، فاضاع موظفو الحكومة المحلية رشدهم ، ولم يدروا ماذا يفعلون ؛ ثم طلبوا مساعدة الجيش . وقد طالب كل صاحب منجم

قوة من الجند تقيم امام بابه اذا امكن ذلك . وبسط لي قواد الجيش الذين ارسلوا الى محل الحادثة الحالة كما رأوها . وكان بين هؤلاء الضباط احد رفقائي القدماء في ألاي (الهوسار) في الحرس الامبراطوري وهو (فون ميخائيليس) الذي اشتهر ببعده نظره ، فقد امتطى جواده ومر وحده من غير سلاح بين جواهر العمال الذين كانوا يستريحون في حر ذلك الفصل الشديد خارج المناجم فاكسب بظرفه ثقة هؤلاء الناس ، وتوطدت العلاقات الودية بينه وبينهم . ثم بدأ يطرح عليهم الاسئلة ، وتمسكن بذلك من الحصول على معلومات مفيدة جداً . فان العمال شرحوا له الاسباب التي دعهم - خطأ أم صواباً - الى الاعتقاد بانهم مغدورون وأوضحوا له مشروعاتهم وآمالهم في المستقبل . وأدى ذلك الى اكتسابه ثقة جميع العمال وصدقاتهم ، وقد عرف كيف يعاملهم حتى أعاد النظام التام الى نصابه في المنطقة التي عهد اليه بحفظ الامن فيها وكنت ألتقي التلغرافات المشربة بروح القلق والتهيج من كبار رجال الصناعة والموظفين - الذين كانوا يرسلون شكواهم الى المستشار ايضاً - فطلبت من ميخائيليس ان يعلني رأيه في الحالة ، فكان رده التلغرافي عليّ كما يأتي :

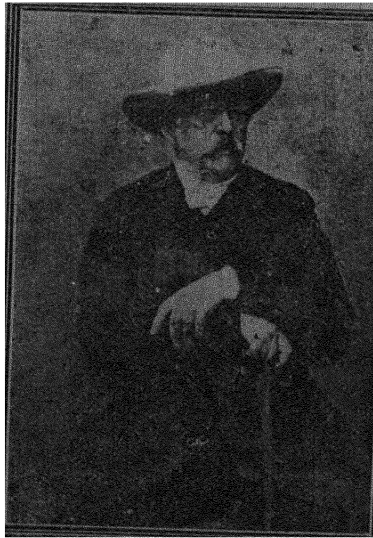
« كل شيء هاديء الا الموظفون »

واثبتت الاخبار والتقارير التي وردت في ربيع تلك السنة وصيفها ان حالة الصناعة لاتسير الى التحسن ، وان بين مطالب العمال مطالب عادلة كان يجب على الموظفين واصحاب المعامل فخصها بدقة وعناية وأيدني في هذه النظرية الدكتور (هنز بر) المستشار الخاص ، الذي كان استاذاً لي فيما مضى ، وكان خبيراً بالشئون الاجتماعية ولاسيما شئون مقاطعته ، فنضجت حينئذ في نفسي الرغبة في دعوة مجلس شورى الدولة الى الاجتماع برياستي للبحث في الاساس الذي يجب أن تبني عليه المفاوضات بين العمال واصحاب الاعمال ودرس مسألة العمل وتمحيصها توصلاً الى وضع المبادئ التي تمكن الحكومة من النظر في مشروع القوانين اللازمة للبلاد

وبدأتُ حينئذ بمفاوضة الهرفون بوتيشير Botticher وأطلعته على رغبتى فقال لي في الحال « ان وزير الامبراطورية يعارض في هذه الخطة » ونصح لي بان لا أفعل اكثر مما فعلت . ولكنني بقيت مصراً على رأيي في هذا الشأن ، وكان ذلك منطبقاً على مبدأ فردريك الاكبر ؛ او ليس هو القائل : « أريد أن أكون ملك الصعاليك والفقراء » ؟ وكان من واجبي ان اعنى بأبناء بلادي الذين يعملون لمصلحة الصناعة ، وان أصون قواهم ، وأحسن طريقة معيشتهم

معارضة بسمرك

ولم يبطيء المستشار كثيراً في اظهار معارضته ، وتعبت كثيراً الى أن تمكنت من تنفيذ مشروعي ، لان كثيرين من ارباب الصناعة اتحدوا لشد أزر المستشار . ولما عقد مجلس شورى الدولة برياستي دخل البرنس خُباء المجلس في جلسته الافتتاحية ، ولم يكن حضوره منتظراً ، وألقى خطبة ضمنها شيئاً من



الهرء وانتقد فيها كل ماعلمته ، ثم قال أنه لا يوافق على المشروع ولا يؤيده .
وخرج من الجلسة

وكان لهذا السلوك الغريب وقع شديد في المجلس ، ولا سيما بعد خروج
المستشار . فان الفظاظة وقلة الاحترام اللتين قابل بهما المستشار الكبير اعماله
ومساعي . بغية الدفاع عن خطته الخاصة واعتقاداً منه بان الصواب كله في آرائه
قد اثرتا في وفي جميع الحاضرين تأثيراً عظيماً واحداثاً جرحاً بليغاً في نفسي
واستأنف المجلس اعماله بعد ذلك . فأعد المعدات الثمينة التي ساعدت على
سن الشرائع الاجتماعية ، تلك التي تمنها الامبراطور ولهم الاكبر في حياته ،
والتي هي عنوان مجد المانيا ونفخها . لانها تكفل مصالح العمال بأسلوب لامثيل
له في سائر ممالك العالم

المؤتمر الاجتماعي العام

ثم قر قرارى على عقد مؤتمر اجتماعى عام . وقد عارضني البرنس بسمرك
في ذلك ايضا . ورأت سويسرا مثل هذا الرأي فعزمت على عقد مؤتمر في
برن . ولما كان الهر روت Roth سفير سويسرا في برلين واقفا على مشروعى
اشار على حكومته بان لاترسل الدعوة الى مؤتمر برن لكي يتيسر لهذا المؤتمر
أن يعقد في برلين . وهكذا كان . فتمكنا بفضل الهر روت من عقد مؤتمر
برلين . ولكن النتائج التي حصلنا عليها لم يستفد منها غير المانيا وحدها من
وجهة الانظمة الاجتماعية

انقطاع صلتى بسمرك

وتحاورت مع البرنس بسمرك بعد ذلك فيما يتصوره من امكان قع
مظاهرات الاشتراكيين الثورية بالسيف والمدفع . وحاولت اقناعه بأني لا
أستطيع أن أتلطخ بدماء أبناء بلادي في السنة الاولى من سنوات حكمي ،
عقب دور مقدس من أدوار الامبراطورية ، وفي وقت قريب جداً من يوم

وفاة الامبراطور ويلهلم الكبير ، فلم يجد كل ذلك تقبلاً وأصرَّ بسمرك على رأيه ، وقال انه يعمل ذلك على مسؤوليته ، وما عليَّ الا أن أطلق يده ليعمل ما يراه . فأجبتهُ بأن هذه الطريقة ليست مما يرضى به ضميري ، ولا مما يوافق العهد الذي عاهدت الله عليه . وفوق هذا وذاك فاني على علم بالموقف السيء الذي وصلت اليه شئون العمال . ومقتنع تمام الاقتناع بأن حالتهم الحيوية والمعيشية لا مناص من اصلاحها

أما السبب الحقيقي الذي أدى الى قطع العلاقات بيني وبين المستشار فيجب أن نجده في هذا التناقض الشديد بين آرائنا في الشؤون الاجتماعية ، أي في الوسائل التي يمكن التوصل بها لتحسين حالة العمال وزيادة رفاهتهم بفضل اشتراك الدولة في الامر . وهذا الخلاف سبب كره بسمرك لي ، ذلك الكره الذي أورثني عداءً شديداً بين معظم طبقات الامة الالمانية التي كانت مخلصه للمستشار ولاسيما بين طبقات الموظفين

سياسة بسمرك الاجتماعية العنيفة

على ان بسمرك - وهذا ما يجب ان أقوله - لم يكن عدوا للعامل بل كان صديقاً له . فبسمرك رجل السياسة العظيم كان اكبر من أن ينكر ما مسألة العمل من الالهية في الدولة . ولكن هذه المسألة كانت في نظره من المسائل التي تجب العناية بها من وجهة المصلحة السياسية فقط

فالدولة ينبغي لها ان تعنى بالعمال ، ولكن بالشكل والاسلوب الملائمين للحكومة . وفي حالة عنايتها بأمرهم بالوجه المذكور آتفا لا يجوز التفكير في التعاون مع العمال على القيام بهذه المهمة . وكان من الواجب ان تقمع الثورات بلا شفقة وبقوة السلاح اذا اقتضت الحال . هكذا كانت سياسة بسمرك الاجتماعية . فهي سياسة النظر الى بعيد في رأي فريق من الامة ، وسياسة اليد المصفحة بالحديد في رأي الفريق الآخر

أما أنا فكنت عازماً على اكتساب حب العمال الالمان . وقد جاهدت كثيراً في سبيل ذلك لاني كنت أشعر بالواجب وبعظم التبعة التي تحملتها ازاء شعبي ، أي ازاء جميع طبقاته العاملة . فان الحق والعدل يقضيان بأن ينال العمال ما يستحقونه ، ان لم يكن من أصحاب رءوس الاموال فمن الحكومة والامبراطور . وكما شعرت بالحاجة الى الاصلاح ، ورأيت أصحاب رءوس الاموال لا يريدون اتفاده . أتولى بنفسني أمر الدفاع عن العمال انتصاراً للحق والعدل

أنا أعرف من « التاريخ » المقدار الذي أدرك به ان حصول الامة على السعادة الكاملة انما هو وهم من الاوهام ، فليس في امكان أي فرد أن يجعل الامة سعيدة . وانما تكون الامة سعيدة يوم تعلن رضاها ، أو عند ما تسعى لان تكون راضية ، وهي مع ذلك ذات عزيمة تميز بها بين الممكن وغير الممكن ، ولا تغفل فيها عن معرفة الحقائق . ومما يؤسف له ان هذه الشروط لا تتوفر دائماً

واني لم أكن أجهل ان زعماء الاشتراكيين لم يكونوا على حق في بعض ما يشتملون في طلبه من المطالب الواسعة . ولكن مقاومة هذه المطالب باقتناع وحرية ضمير لا تكون الا بعد الاعتراف لهم بالمطالب العادلة والمعقولة

فانونه صحابة العمال

ان هذه السياسة التي كانت ترمي الى خير العمال ألفت على عاتق أرباب الصناعة الالمانية اعباء ثقيلة غلت أيديهم في المعركة الاقتصادية التي اضطروا الى خوض غمارها في أسواق العالم ، وعرقلت مساعيهم ازاء بعض الصناعات . ولا سيما الصناعة البلجيكية التي تمكنت من استخدام جميع القوى والمجهودات في العمال البلجيكيين رغم الاجور القليلة التي كانوا يتقاضونها . وقد استطاعت هذه الصناعة أن تفعل ما فعلته دون أن تشعر بشيء من تأنيب الضمير أو

بأقل شفقة على الشعب الذي بات بلا حماية ، وقد أنهكت قواه وساعدت على انحطاط أخلاقه

وقد جعلت هذه الحالة غير ممكن وقوعها في المانيا بسن القوانين اللازمة لذلك . وعهدت الى الجنرال البارون فون (بيلسنگ) بتنفيذ هذه القوانين في البلجيكي خلال الحرب العظمي وذلك لخير الشعب البلجيكي ومصالحته . ولكن اصدار مثل هذا القانون أدى في بدء الامر الى غل يد الصناعة الالمانية في معترك التزاحم العالمي ، وأساء الى كثيرين من كبار رجال الصناعة الذين يمكننا أن نجد لهم عذراً في تدميرهم اذا نظرنا الى الحالة بعيونهم . ولكن الملك يجب عليه أن يضع دائماً نصب عينيه الخير العام والمصالحة القومية ، لذلك واصلت السير على هذه الخطة من غير تردد ولا ارتباك

على ان العمال الذين ساروا وراء الزعماء الاشتراكيين سيراً اعمى لم يعرفوا لي جيلاً ، لاعلى الحماية التي اكتسفتهم بها ، ولا على العناء الذي تكبدته في سبيلهم . وذلك لان رمز (هو هنزولرن) يفصل بيننا فهو يقول « كل وما ملك » فيرد عليه الاشتراكيون « ملك الجميع لكل انسان »

وقد عنيت ايضاً بامر آخر وهو تحديد التزاحم في الصناعة الاوربية بوضع قانون للانتاج اساسه تحديد الوارد من البلاد الاجنبية تحديداً ينشأ عنه انقاص الانتاج وتحسين الحالة الحيوية في الطبقات العاملة

غفر الانكليز عن الانظمة الالمانية

وكانت العاطفة التي يشعر بها العمال الاجانب حين اطلاعهم على الانظمة الاجتماعية الالمانية عاطفة ذات مغزى عظيم . وقد شعرت انكليترا على أثر ضغط العمال عليها بأن من مصلحتها زيادة العناية بشئونهم . وبدأ هذا الشعور يزداد فيها قبيل الحرب بسنوات قليلة فارسلت الى المانيا لجائاً عين احداها العمال أنفسهم . فزارت هذه الاجان - بارشاد النواب الالمان الذين كانوا

نواباً اشتراكين أيضاً - المناجم والمعامل والجمعيات الخيرية ومستشفيات شركات التأمين على الحياة وغيرها ، ورأت فيها كلها ما أدهشها وقد قام رئيس لجنة العمال الانكليزية في المأدبة الاكرامية الاخيرة ووجه السؤال التالي الى الهر (بابل) قائلاً : « بعد كل ما رأيناه وكل ما فعلته المانيا من أجل العمال الا تزالون اشتراكين ؟ اني أطلب جواباً منك على هذا السؤال »

وهكذا اعترف الانكليز أمام رجل من أصحاب الشأن بأنهم اذا تمكنوا بعد نزاعهم الطويل مع برلمان بلادهم من الحصول على عشر ما حصل عليه العمال الالمان قبل سنوات لكانوا يعانون رضاهم وسرورهم وكنت أراقب زيارة هذا الوفد الانكليزي باهتمام ، وقد استغربت جهله أحوال المانيا الاجتماعية . واستغربت أكثر من ذلك الاسئلة التي طرحتها علينا الحكومة الانكليزية في هذا الشأن بواسطة سفيرها ، لانها كانت تدل على الجهل المطبق للتطورات التي نشأت عن الاصلاحات الاجتماعية في المانيا . وقد سألت السفير عن ذلك ثم قلت له ان انكلترا كانت ممثلة في المؤتمر الاجتماعي الذي عقد في برلين سنة ١٨٩٠ . وبديهي انها وقفت ولو بواسطة سفيرها على المناقشات المهمة التي دارت في الرخستاغ حول القوانين الاجتماعية . فرد عليّ السفير قائلاً انه خطر له ما خطرتي وانه أمر بالبحث بين اوراق السفارة وقد ثبت حينئذ ان السفير كان يرسل الى لندن تقارير مسببة جداً وانه أوقف حكومته بدقة تامة على كل تطور مهم في سير الاصلاحات الاجتماعية قال السفير الانكليزي : « ولكن بما أن هذه التقارير واردة من المانيا لم يكن يقرأها أحد . بل كانت توضع فوق الرف حيث لا تزال الى الآن . فهذا مما يبعث على الخجل الشديد لانه ليس في بلادنا من يهتم بالمانيا »

هكذا تكلم هذا الانكليزي وهو يهز رأسه ، وهكذا لم يكن للملك ولا للبرلمان ضمير ولا وقت ولا رغبة في الوقوف علي رقي طبقات العمال . لانهم

كانوا يرون ان (سياسة الخنق) التي ترمي الى خراب المانيا ولاسيما صناعتها أي خراب الطبقات العاملة فيها هي أهم شأنًا وأعظم فائدة. وفي ٩ نوفمبر سنة ١٩١٨ اشترك زعماء الاشتراكيين المتطرفين من الالماني، وجميع الذين ساروا وراءهم، بهذا العمل الذي قامت به انكاثرا للقضاء على كيان المانيا (١) ولقد عملت بمنتهى جهدي لتنفيذ هذه المباديء الاجتماعية في كل منطقة أرى لي ساطعة فيها. فعملت بذلك في البلاط، وفي فروع نادي السيارات الامبراطوري. وطالبت أن يؤسس صندوق خاص بخدام القصر توضع فيه العقود التي يدفعها الزائرون منحة لهؤلاء الخدام، وقد تراكم من هذه المدحات الصغيرة مبلغ كبير استطاع هؤلاء الخدام أن ينفقوا منه على الذهاب هم وعائلاتهم الى الحمامات المعدنية. وأن يدفعوا منه النفقات التي تطرأ عليهم عند وقوع الامراض وحوادث الوفاة وعند تزويج اولادهم

ولما تأسس نادي السيارات الامبراطوري وطلب مؤسسوه أن يكون تحت رعايتي حضرت مأدبة الغداء التي أقامها (ايه) في القاعة الفخمة من فندقه، وكان فيمن دعي اليها دوك (راتيبور) و (دوجست) وأهل الطبقة العالية من النبلاء وبعض متمولي برلين وأصحاب المعامل فيها ممن يحبون أن يظهروا بمظهر النبلاء. ودار الحديث حول سائقي السيارات، فافترحت تخصيص مبلغ من المال لاستثماره باسم سائقي السيارات والاتفاق من ريعه على معالجتهم اذا أصيبوا ببعض مصائب القدر، أو للاتفاق على ذويهم اذا فقدوا حياتهم. فوافق الجميع بالاجماع على اقتراحي، ووضعوا مبلغا لهذا المشروع جاء بعد ذلك بخير النتائج. وفعلت مثل ذلك في نادي السفن الامبراطوري في (كيل)

وان (ماجا) القيصر ويلهم لرعاية الاطفال (الموجود في (ألبك) قد سرنى سرورا عظيما لا يوائه في زمن السلم عدداً من الاطفال الذين يأتون اليه

(١) يشير الى حادثة خلعه واطلاق الجمهورية الالمانية

من الاحياء الفقيرة في برلين . وان هذا الملجأ - الذي تديره سيدة فاضلة كالآنسة (كيرشمر) بنت رئيس بلدية برلين السابق - لا يزال مثابراً على عمله الذي حصلنا منه على نتائج مادية ومعنوية عظيمة الفائدة . ولا غرو فان الذين اضناهم الفقر من أطفال العاصمة البائسين الضعيفين قد اكتسبوا في هذا الملجأ صحة وقوة ، وكنت أهتم اهتماماً شخصياً باسعاد هؤلاء الاطفال بقدر ما يسمح لي الوقت والحال

مساعدة البحرية التجارية

بما اني تكلمت عن خلافي مع بسمرك على مسألة العمال أريد ان اذكر علاوة على ما قلته عن مبادئ المستشار وخطته في هذه المسألة مثالا يثبت كيف استطاع البرنس ان يهيج خطة بدیعة برهن بها على مكارم أخلاقه في احوال كانت طبقة العمال فيها عرضة للخطر . نعم انه رضى بذلك لاسباب قومية ولكنه أدرك في الحال وبلا تردد ان الواجب يقضي بتدخله لحماية عدد عظیم من العمال العاطلين ، ولذلك تناول المسألة بيده اليمنى وبكل ماله من السلطة . وكنت في ذلك الحين - سنة ١٨٨٦ - ولياً للعهد ، وقد علمت ان معامل « فولكان » البحرية الكبرى في (ستيتين) اوشكت ان تعلن افلاسها لعدم ورود الطلبات عليها ، واذا وقع ذلك بات ألاف من العمال بلا قوت ، وأصبحت مدينة ستيتين عينها بنكبة عظيمة

ولم يكن في الامكان اتقاذ هذه المعامل من الافلاس الا اذا اوصاها أحد بطليبة كبيرة . وكان الاميرال فون (ستاخ) قد أوصى هذه المعامل بانشاء سفينة ، فباشرت شركة « فولكان » العمل بشجاعة ، رغبة في تحريرنا من أسر المعامل البريطانية ، وانشأت المدرعة الالمانية الاولى التي احتفل بانزاها الى البحر سنة ١٨٧٤ امام والدتي في يوم عيد مولدها . وشهدت هذه الحفلة أنا أيضاً . وكانت البوارج التي تخرج من معامل فولكان ترضي وزارة البحرية

ولكن هذه الوزارة لم تنشئ البواخر الا نادراً
اما الاسطول التجاري فلم يجرأ على الاقتداء بالعمل الجريء الذي أقدم
عليه الاميرال فون (ستاخ) ، لذلك كانت المعامل الألمانية التي لاتنقصها
الا الجرأة والشجاعة عرضة للخراب على الدوام . وقد رفضت شركة
« برومر لويدي » الطلب الذي قدم لها لانشاء باخرة جديدة ، بحجة ان الانكليز
أقدر بكثير على القيام بهذه المهمة لتجارهم الطويلة
وكان الخطر عظيماً ، فأسرعت الى زيارة البرنس بسمرك وبسطت له الحالة ،
فاستشاط غضباً وأرغى وأزبد ، ثم ضرب المائدة بيده وقال : « وهل قفف
البهار هذه تفضل صنع أحذيتها في انكلترا على صنعها في بلادنا ؟ انه لأمر غريب
جداً ان ندع المعامل الألمانية تسير الى الخراب . فالى جهنم كل هؤلاء التجار »
ثم استدعى الخادم وقال له « أريد في الحال أن أرى المستشار الخاص
لوزارة الخارجية » . وبعد بضع دقائق قضاها البرنس وهو يسير في القاعة
ذهاباً واياباً دخل الموظف المطلوب فقال له البرنس : « سترسل البرقية التالية
الى مندوبنا في هامبورغ » وكانت البرقية مؤلفة من هذه الالفاظ الموجزة :
« يجب أن تنشئ شركة برومر لويدي باخرتها الجديدة في معامل فولكان
في ستيتين »

وتوارى المستشار الخاص حينئذ بمثل السرعة التي ظهر فيها . وخرج من
الباب وذيوله ترتجف

ووجه البرنس خطابه الى فقال : « اشكرك شكراً عظيماً لانك خدمت
البلاد وخدمتني خدمة جلى . فمن الآن وصاعداً لا ينشئ أحد من الالمان
شيئاً في الخارج . وسأعرف كيف افهم هؤلاء الناس مرامي . ويمكنك ان
تبرق الى شركة فولكان بأن المستشار يكفل هذه (الطلبية) ، وارجو أن
يكون ذلك مقدمة لاعمال عظيمة ، فعلى العمال الذين أنقذتهم من خطر البطالة
أن يشكروك »

وقد أرسلت ذلك بالتلغراف الى الهر (شلوتو) المستشار الخاص في
(ستيتين) حيث كان السرور عظيماً جداً . وهكذا كانت المقدمات التي أدت
الى انشاء بواخرنا البديعة ذات السرعة العظيمة

وزرت (ستيتين) في شهر ديسمبر سنة ١٨٨٨ - على أثر ارتقائي العرش -
لتعليق الأوسمة على أعلام أليات (غريناديه) البورماينية . ثم تفقدت معامل
(فولكان) بطلب الادارة ودعوتها . فاستقبلني المديرون عند مدخل المعامل
وفتحت الابواب الكبيرة فدخلتها . ولكني بدلا من أن أستقبل بضوضاء
العمل وأصوات المطارق استقبلت بالسكوت التام لان العمال اجتمعوا حولي
بشكل نصف دائرة ورفعوا قبعاتهم . وكان أكبرهم سنّاً واقفاً في وسطهم
وقد ابيض شعر لحيته حتى غدا كالثلج . وحمل بيده اكليلاً من الغار ، فأثر
ذلك في نفسي أعظم تأثير . وهمس (شلوتو) في أذني قائلاً : « هذه حفلة
صغيرة أقامها العمال من تلقاء أنفسهم »

وتقدم العامل العجوز فألقى خطبة متينة حسنة المعنى أعرب فيها عن
شكر العمال الذين لا ينسون اني أنقذتهم وأنقذت نساءهم وأطفالهم خاصة من
الفاقة والجوع بتوسطي لدى بسمرك لانشاء الباخرة الكبيرة . وقد رجا
العمال مني ان أقبل اكليل الغار عربوناً على اعترافهم بالجميل
وقد حدث ذلك سنة ١٨٨٨ . وكان العمال الالمان حينئذ يعرفون ان
العمل نعمة وبركة



الفصل الثاني

كأبريشي

كأبريشي وزير البحرية — دونه الى منصب المستشار — استكار معاهدة الصمانات
مع روسيا — مناوأة المحافظين ومارسة بسرك — املاك هليغولاند

كأبريشي وزير البحرية

كان الجنرال فون كأبريشي وزيراً للبحرية لما ارتقيت العرش ، وهو آخر
جنرال تقلد هذا المنصب . وكنت قد أخذت بيدي المني انشاء الاسطول
الامبراطوري الالماني في الحال وبكل همة ونشاط . كما نظرت بعين الاهتمام
الى الاصلاحات الاخرى التي تقضي بها المصلحة . ويمكنني ان أقول بهذه
المناسبة انه كان علينا ان تفعل كل شيء . وقد استرشدت في عملي هذا
بالدروس التي تلقيتها في انكلترا وفي بلادي أيضاً

ولم يكن هذا ليرضي الجنرال لانه كان عنيداً مع اقتداره ، ولم يكن خالياً
من الغرور . نعم انه خدم البلاد خدماً جلي فيما يتعلق بالتجديد واصلاح
سلك الضباط . وساعد على انشاء المدرات وترقيتها ؛ ولكنه لم يعن
بالانشاءات البحرية . ولا باستبدال المعدات القديمة . وهذا مما أضر
بالاسطول والمعامل البحرية التي كانت حينئذ في أول عهدها ، وكان من
الواجب العناية بها

كان الجنرال (كأبريشي) — بصفته جنرالاً بروسيا قديماً — من أصحاب
الافكار التي سادت في زمانه وزمان معاصريه ، أي في أدوار سنة ١٨٦٤
و ١٨٦٦ و ١٨٧٠ . فانهم كانوا مقتنعين بأن كل الامور كانت تعمل في كل
الازمان بواسطة الجيش ، وأن الحال ستظل كذلك في كل الازمان الاتية .
لذلك هو يرى في طاب الاعتمادات للاسطول شيئاً من الخطر لانه يعتقد بأنها

تحدث نقصاً في اعتمادات الجيش وتؤثر على سيره في سبيل التقدم والارتقاء . ولم يكن في الامكان انتزاع هذا الفكر من دماغ (كابريني) رغم كونه وهماً من الاوهام . فان الاعتمادات ليست ماء يملأ في صهرج وينقل الى وزارتي الحربية والبحرية بمواسير وحنفيات حتى يكون ما يزداد في احدهما ينقص من الآخر . وسواء أعطيت اعتمادات للاسطول أم لا فان وزير الحربية لا يستطيع أن ينفق على الجيش قرشاً واحداً زائداً على الاعتمادات الممنوحة له . لقد اقتضت الحال أن نطلب الاعتمادات اللازمة لانشاء وزارة للبحرية مستقلة عن وزارة الحربية تمام الاستقلال ، ولاحداث اسطول بحري مستعمراتنا وتجارتنا . وهذا ما حصل أخيراً

وبعد زمن قليل طلب (كابريني) اقالته من منصبه الذي صار لا يروق له ، ولا سيما لا اعتقاده بأن آرائي في مستقبل بحريتنا لا يمكن تحقيقها لاسباب منها عدم وجود الضباط الذين ينشأ لنا منهم في السنة ستون الى ثمانين ضابطاً فقط على ما فيهم من النقائص ، والاسطول الكبير لا يكون الا بوجود العدد الكافي من الضباط . وفضلاً عن ذلك فان (كابريني) قال انه رأي - اثناء تفتيشي البحرية - أكثر علماً منه بها وان ذلك مما أثر على منزلته في نظر مرءوسيه

وبناء على ذلك نحيث (كابريني) عن البحرية ، وعهدت اليه بقيادة فيلق . وللمرة الاولى عينت لوزارة البحرية واحداً من رجالها وهو الاميرال (مونتنس)

دعوة لبريفي الى منصب المستشار

ولما قدم البرنس بسمرك استعفاه الذي لم أكن أتوقعه تعذر علي أن أجد من يخلفه في منصبه . فان خليفة هذا المستشار القدير - مهما يكن من أمره - لا بد له من ان يقبل مقدماً كل التوضيحات من غير ان يتوقع ثناء أو

شكراً . لانه يحسب مغتصباً لمنصب لا يستطيع القيام بشئونه . فالانتقاد ، ثم الانتقاد ، ثم الانتقاد ؛ هذا كل ما يقدم للمستشار الجديد غذاء له في كل يوم من أيام حياته . وكان يجب عليه ان يتوقع عداء جميع أنصار البرنس ، وعداء الذين ينضمون اليهم بكثرة من معارضي الحكومة الذين لم يجرأوا في الماضي أو لم تسنح لهم الفرصة لظهار عدائهم لبسمرك . ثم لابد من ظهور تيار شديد ضد المستشار الجديد يكون البرنس العجوز بلا ريب من العاملين فيه ، وهو ليس من أقلهم نشاطاً وسعياً

وقد نظرت الى كل ذلك بعين الاهتمام ، ثم عزمت على انتقاء المستشار الجديد من معاصري بسمرك الذين شغلوا مناصب كبيرة في خلال الحرب وتنقلوا في وظائف الحكومة تحت اشراف البرنس . لذلك اخترت كاپريشي ، وقد وجدت من تقدمه في السن ضماناً لي على انه سيكون مستشاراً مفكراً حكماً للامبراطور الشاب الذي ترك وأهمل

(١) انظر معاهدة الضمانات مع روسيا

وما كاد يتم ذلك حتى عرضت معاهدة الضمانات المبرمة مع روسيا على بساط البحث . فاعلن كاپريشي انه لا يستطيع ان يجدد هذه المعاهدة أكراما

(١) معاهدة الضمانات - بين بسمرك وروسيا

أعلنت شركة (راديو) البيانات التالية عن كيفية عقد معاهدة الضمانات ، وهي من أعظم المعاهدات التي أبرمها المستشار الالماني الاول وأطلق عليها اسم « سرّ بسمرك الروسي »

اولا - ان الكونت (هربرت بسمرك) وزير الخارجية بسط في حديثه مع الغراندوق (فلاديمير) الروسي « شقيق القيصر » في ٢١ نوفمبر سنة ١٨٨٦ خطة والده السياسية كما يأتي قال :

قلت للغراندوق « انه أشير على المستشار من مصادر رسمية وغير رسمية

لننمسا ، لان السهم الذي صوبته هذه المعاهدة الى النمسا يحدث رد فعل مؤلم في قينا حيث لم يعد في الامكان اخفاؤها . وهذا مادعا الى ترك المعاهدة . وكان رأيي حينئذ انها فقدت أهميتها الاساسية لان قاب روسيا لم يعد معنا . ثم جاءت مذكرة الكونت (برشام) وزير الخارجية ومساعد البرنس بسمرك مؤيدة لهذا الرأي

« نابع لمعاهدة الضمانات »

بأن لا يعرب عن رغبتنا في مساعدة روسيا في مسألة المضيقين . وأن يترك القيصر على شك من أمرنا . ولكن المستشار لم يعمل بهذه النصائح ، بل أعلن ان ثقته بالقيصر لا يعتريها أقل وهن ، وأنه عازم على معاملته بكل صراحة . وقد أراد ان يفاوضه مفاوضة وذية كما فعل الى ذلك الحين . وأن يبسط له بأجلى بيان ما يستتبع النزاع عنه لروسيا ، والمجال الذي يمكننا من العمل لتسهيل مهمتها »

ثانياً - وصل الكونت (بيارشوالوف) شقيق سفير روسيا في برلين يحمل كتاباً خطياً من القيصر الى الامبراطور . واجتمع الكونت بيار بالكونت هربرت بسمرك (يوم ٣ يناير سنة ١٨٨٧) اجتماعاً مهماً جداً أسفر عن وضع المشروع التالي وهو :

« تستطيع روسيا ان تعتمد على حياد ألمانيا المشرب بالولاء . اذا قضت مصالح روسيا على القيصر بتأمين قفل المضيقين ، والاحتفاظ بمفتاح البحر الاسود

وتستطيع ألمانيا أيضاً أن تعتمد على مثل هذا الحياد الودي من جانب روسيا في كل مشكلة تنشأ بينها وبين فرنسا

ثالثاً - في ١٧ فبراير سنة ١٨٨٧ أرسل بسمرك نفسه كتاباً الى الكونت (رادوفيتز) سفير ألمانيا في الاستانة تذر فيه من الصعاب التي تعترض سير المفاوضات مع روسيا ، واورد على ذلك المثال التالي فقال : « منذ أكثر من شهر أفهمت بطرسبرغ سراً وبالاساليب السياسية اننا مستعدون لربط سياستنا بسياسة روسيا في جهات (الطونة) والبحر الاسود لغاية واسعة

مناوأة المحافظين ومعارضة بسمرك

واتحد المحافظون الزراع على مناوأة كبريقي الذي كان ذنبه في نظرهم انه لا يملك شبراً من الارض . واشتد الخلاف من جهة أخرى على المعاهدات

- ٥٥ - تابع للمعاهدة الضمانات - ٥٥ -

النطاق اذا وثقنا بحياذ روسيا ازاء كل اعتداء فرنسوي يقع علينا «
وقد اسفرت المفاوضات في ١٨ يونيو سنة ١٨٨٧ عن ابرام اتفاق بين
الروس والالمان في برلين هذه أهم موادها :

« اذا دخل أحد الفريقين المتعاقدين في حرب مع دولة أخرى فان الفريق
الناني يبقى على الحياد المشرب بالعطف ، ويبذل جهده لحصر نطاق الحرب
ولكن هذا القول لا ينطبق على حرب تعلن ضد النمسا وفرنسا اذا
نشأت هذه الحرب عن هجوم أحد الفريقين المتعاقدين على دولة من الدولتين
المشار اليهما أو عليهما ككتيما »

وهذه الفقرة الاخيرة ادجت في المعاهدة بطلب بسمرك رغبة منه في
التوفيق بين هذه المعاهدة والمعاهدة الالمانية النمسية
ثم اضيف الى هذه المعاهدة ملحق سري جاء فيه ما يأتي :

« اذا اضطر صاحب الجلالة قيصر روسيا الى ان يقوم بنفسه بامر الدفاع
عن مدخل البحر الاسود دفاعاً عن مصالح روسيا فان المانيا تتعهد بأن تنهج
خطة الحياد المشرب بالعطف وان تشد أزر جلالته سياسياً وأديباً في التدابير
التي يراها لازمة للاحتفاظ بمفتاح امبراطوريته »

وكانت معاهدة الحياد قد أبرمت في سنة ١٨٨١ - وهي معاهدة
الامبراطرة الثلاثة - وجددت سنة ١٨٨٤ ولكن مدتها انتهت سنة ١٨٨٧
فجاءت المعاهدة الجديدة لتجديدها . وهذا ما قاله بسمرك للامبراطور غليوم
الاول عند مفاوضه في أهمية المعاهدة

وكان ينتظر من اطلاق يد روسيا في الاستانة ان ينشأ خلاف بينها وبين
الدول البحرية ولا سيما انكارتا وبعدها فرنسا

التجارية . ونجرت الازمة بعد ذلك لان البرنس بسمرك انكر مبادئه الاولى ونهض لمعارضة خلفه بكل ما أوتيته من عزم ونشاط . وهكذا بدأت مناوأة المحافظين للحكومة والعرش . وكان البرنس البذرة التي نمت وتجت عنها فيما بعد مسألة « بسمرك الذي أنكرت خدماته » والمسألة الاخرى التي تناولتها الصحف غير مرة وهي مسألة « النفور من الامبراطورية »

نغرافة « بسمرك الذي أنكرت خدماته » كانت طول مدة حكمي روح المعارضة الدائمة لكل مشروعاتي وآرائي . وقد قامت هذه المعارضة بالخطابة والكتابة وبالمقاومة السلبية والانتقاد الخالي من التروسي . فلم يعمل شيء الا كان عرضة للتأويل والهزء والانتقاد من أوله الى آخره في جميع الصحف التي كانت تأتمر بأوامر البرنس والتي كانت اشد « بسمركية » من بسمرك نفسه

تملك جزيرة هليغولاند ومزاياها

وظهرت هذه الخطة باتم مظاهرها في ابان تملكنا لجزيرة هليغولاند . فان هذه الجزيرة القائمة على مقربة من طرق الملاحة الكبرى والمؤدية الى معاقل تجارة « هانسا » ^(١) كانت في يد الانكليز خطراً دائماً على (هامبورغ) و (برم) ، وقد جعلت انشاء الاساطيل أمراً مستحيلاً . لذلك عزمنا عزماً أكيداً على ان أردّ لمانيا هذه الجزيرة الالمانية القديمة

أما الوسائل التي تحمل انكلترا على ترك هذه الصخرة من الغرائث الاحمر فقد وجدتها في المستعمرات . فان الورد (سالسبوري) أعرب عن ارتياحه الى التنازل عن « الصخرة القاحلة » مقابل (زنجبار) و (ويتو) في افريقية الشرقية . وكنت قد علمت من الاندية التجارية ، ومن تقارير قواد الطرادات والمدمرات الالمانية التي كانت تنتقل في مياه المستعمرات الالمانية

(١) هانسا او « الاتحاد الهانسيكي » هو اتحاد المدن التجارية في الشمال الغربي من المانيا بإشراف مدينة لوبك . وقد تم هذا الاتحاد سنة ١٢٤١

الجديدة في شرقي افريقية ان ميناء (زنجبار) سيفقد اهميته كمنفذ اساسي على الشاطئ بما يتم من الاصلاحات في (التانغا) و (دار السلام) وغيرهما على شواطئ افريقية . حينما تنتهي أعمال الحفر والتوسيع في هذه الموانئ وتوضع فيها الحياض اللازمة يستغنى عن ارسال البضائع الواردة من الداخل الى الشاطئ بطريق (زنجبار) ، لان اصدارها من الموانئ الجديدة رأساً يصير ممكناً . لذلك اعتقدت بان هذه المبادلة يمكن قبولها ، ولا سيما لأنها تكفل دره أسباب الخلاف في المستعمرات بيننا وبين الانكليز وتساعد على الاتفاق معهم اتفاقاً ودياً

وكان (كاريثي) على رأي في هذا الشأن . فبدأت المفاوضات ثم انتهت ، وتمكنت ذات ليلة قبل العشاء من ان ابشر الامبراطورة وبعض الاخصاء بهذا الخبر السار ، وهو ان هليغولاند عادت ألمانية ، وكان من حظ الامبراطورية ان تغرم غنيمة ثمينة من غير ان تريق نقطة من الدم وهكذا نفذ الشرط الاساسي الاول من الشروط اللازمة لانشاء الاسطول . وتحققت الآمال التي قضى سكان « هانسا » وسكان الشمال قروناً عديدة في انتظار تحقيقها ، وقد تم هذا الحادث العظيم سراً ومن غير ان يشعر به أحد

على ان جزيرة هليغولاند لو أعيدت الى المانيا في عهد البرنس بسمرك لتقبل ذلك بأعظم مظاهر الحماسة والسرور . ولكنها أعيدت في عهد كاريثي ، وهذا يكني مبرراً للانتقاد . فان الذي استرد هليغولاند لم يكن لسوء الحظ الا هذا المغتصب كاريثي الذي تجاسر على التربع في منصب المستشار . وذلك الامبراطور الشاب « المتقلب ، السريع التأثر ، الناصر الجليل » هو الذي تمكن من تنفيذ هذا العمل . ولو ان بسمرك كلف نفسه ان يريد ذلك ، أو لو انه اراده ، لكان استولى على « الصخرة القاحلة » من زمن بعيد . ولكن الامر الذي لم يكن ليفعله هو التنازل للانكليز عن

المستعمرات الافريقية ذات المستقبل العظيم والدخول في المفاوضات بأسلوب خال من الحنكة والمهارة أدى الى تلاعب الانكايز بنا كتلاعب الصبية بالاكبر

هذا ما كنا نسمعه من كل الجهات تقريباً . وكانت صحف البرنس بسمرك تردد صدى هذه الانتقادات غير مكترثة بعواطف « هانسا » واستيائها

والغريب في هذا الامر ان يرد الانتقاد على التنازل عن (زنجبار) و (ويتو) في صحف ذلك البرنس الذي كان يردد دائماً - لما كنت اشتغل تحت إشرافه - انه لا يعلق أهمية ما على المستعمرات ولا يعدها الا وسيلة للمساومة والمبادلة حينما تظهر مشا كل يجب تسويتها مع انكلترا . ولم ينهج خلفه في مسألة هليغولاند الا النهج الذي أشار به هو نفسه . ومع ذلك فقد اتخذت هذه المسألة حجة لا تنقاده والحملة عليه بأقصى ما يمكن من الشدة

وقد رأيت الصحف الالمانية في خلال الحرب العظمى تعترف للمرة الاولى في مقالاتها بأن امتلاك هليغولاند كان نتيجة سياسة بعيدة النظر ، وتتساءل عما كان يحل بالمانيا لو لم تكن هليغولاند الالمانية

فللشعب الالمانى والحالة هذه كل الاسباب التي تحمله على الاعتراف بمجمل كاپريشي ، لاف الفضل في انشاء الاسطول وفي الانتصار بمعركة (سكاجرراك) فيما بعد يعود كله الى استيلائنا على هليغولاند ^(١) . وقد أدرك البحارة الالمانيون هذه الحقيقة منذ زمن طويل

(١) قالت جريدة (صباح) التركية تليقاً على هذا الموضع من (مذكرات غليوم) : يذكر القراء أن (معركة سكاجرراك) أعظم معركة بحرية نشبت في الحرب العظمى ان لم تكن المعركة البحرية الوحيدة . وقد اشتبك فيها القتال بين الاسطول الالمانى واسطول انكليزي بقيادة الاميرال (جليكو) ، فتمكنك العمارة الالمانية من اغراق بضع مدرعات انكليزية والانتصار على ذلك الاسطول الانكليزي قبل أن تصل اليه النجدة من العمارة البريطانية الكبرى . وقد اشترك مع الالمان في هذه المعركة عدد من البحارة النمانيين الذين كانوا يتعلمون في الاسطول الالمانى

وفي تلك الاثناء أحدث (فانرن التعليم) الذي وضعه الكونت (زوليتز) مشاكل جديدة على جانب عظيم من الشدة . ولما ظهر للملأ ان هذه المشاكل ستؤدي الى استعفاء زوليتز ارتفع صوت من صفوف انصاره يقول : « اذا خرج الكونت من الحكومة فلا بد من خروج المستشار أيضا »

وهذا مادعا الى استعفاء كاپريشي ، وقد استعفى بأنفة ومن غير ضوضاء . وكان قد حاول - باخلاص تام وبكل ما أوتيته من المواهب - أن يواصل السير وفقاً لتقاليد البرنس بسمرك ، ولكنه لم يلق من الاحزاب الا مساعدة ضئيلة جداً في هذه المهمة الشاقة ، بينما الجمهور والرجال الذين كان العدل يقضي عليهم بالانضمام اليه خدمة لمصالح الدولة كانوا ينتهزون كل الفرص لانتقاده والحملة عليه

ولم ينبث كاپريشي ببنت شفة دفاعاً عن نفسه ، بل قضى آخر سني حياته بشرف وصمت معتزلاً الناس



الفصل الثالث

﴿هوهنلوه﴾

البحث مرة أخرى عن مستشار — شخصية البرنس هوهنلوه — مقابلة البرنس لوبانوف
عند عودته الى بطرسبرغ — المانيا ومحطات المحم في الصين — خطة انكترا في طلبنا
محطة للفحم — اتفاق انكترا وفرنسا وأمريكا — صعوبة تربية السياسيين في المانيا
تقدم تسنغ تاو — الخطر الاصغر — مسألة سيونزاكي — تلغرافي الى
كروغر — خرافة اتفاقنا مع الفرنسيين والروس على انكترا
السياسة الشرقية : رحلتى الى الاستانة وسورية
استقالة هوهنلوه

البحث مرة أخرى عن مستشار

اضطرت مرة أخرى الى البحث عن مستشار، وكانت هذه المهمة شاقة جداً
لان المستشار الجديد سيجد نفسه في مثل الاحوال التي اكتنفت سلفه ويرى
نشاطه عرضة للتجارب عينها . وقد اشتدت الرغبة في اختيار رجل من رجال
السياسة متقدم في السن يستطيع أن يحرز ثقة بسمرك اكثر مما يحرزها قائد
بسيط، فضلاً عن أن رجل السياسة يعرف كيف يقتدي بالبرنس وكيف يدرأ
انتقاداته وحملاته جهد الطاقة

وكانت معارضة بسمرك الشديدة في تلك الاثناء قد أحدثت قلقاً واستياء
لا يمكن تجاهلها ، ولا سيما بين صفوف الموظفين الذين خدم معظمهم تحت
ادارته . وقد ألحقت هذه الحالة اضراراً عظيمة في سير الحكومة وانتظام
اعمالها ، كما انها اسفرت عن تعزيز معارضة البرلمان بانضمام جماعات من مؤيدي
الحكومة الى خصومها . وكانت هذه المعارضة تقوى وتشتد على الدوام ،

حتى أنها أثرت في (هولستين) نفسه في وزارة الخارجية . وهو الرجل الذي يمثل فيها « تقاليد بسمرك وتجاربه » . وظهر هذا التأثير بمظهر الملل من العمل مع الامبراطور ، حتى ان الناس بدأوا يجاهرون بوجوب استئناف سياسة بسمرك والاستقلال بتنفيذها

قصيدة البرنس هو هونلوه

وقد قررتُ بعد بحث دقيق وتأمل طويل أن أعهد بمهمة المستشار الى (البرنس هو هونلوه) الذي كان حاكماً لللاثراس والورين . وهذا الرجل كان وزيراً لبافاريا في حرب السبعين ، وهو الذي حمل بافاريا على شد أزور بروسيا والسير معها جنباً الى جنب . وقد قدر البرنس بسمرك اخلاصه للامبراطورية حق قدره ، وأنزله من نفسه منزلة سامية من الاحترام . لذلك كنا نرجو أن يخفف البرنس وطأة معارضته أو يعدل عنها اذا كان البرنس هو هونلوه هو الذي يخلفه . وقد اخترته في النهاية مراعاة للبرنس بسمرك وللرأى العام الذي كان متسلطاً عليه

وكان البرنس هو هونلوه متقدماً في السن ، يدل ظاهره على شرف نسبه ، وتم حركاته على وفرة أدبه ، وقد امتاز بعقل ثاقب ، وبشيء من المازح اللطيف الذي كسرت الايام حدته . وكان يعرف كيف يدرس الرجال ويصدر حكمه عليهم بكل اعتدال . وتمكننا من أن نتفاهم معاً رغم اختلاف عمرينا . ومما زاد هذا التفاهم الحسن ظهوراً أنني أنا والامبراطورة كنا نعامله معاملة العم وكنا نسميه بهذا الاسم . لذلك كان الجو المحيط بنا مشرباً بالثقة العائلية . وقد استطاع في المحادثات التي دارت بيننا - ولا سيما فيما يتعلق بتقدير قيمة الموظفين الذين يدعون الى العمل - أن يبدي فيهم رأياً صائباً معزراً بالملاحظات الفلسفية التي كانت تدل على عظم خبرته في الحياة والناس ، ويجدد المرء فيها كل تجارب هذا العذر الطويل ، وكل حنكته ونضوج آرائه

مقابلة البرنس لوبانوف

بعد عودته الى بطرسبرغ

وقع حادث في أول عهد وزارة هوهنلوه ازاح الستار عن صلاتنا بفرنسا وروسيا . ففي الساعة التي ابرمت فيها (المحالفة الروسية الفرنسية) ابلغتني هيئة اركان الحرب وسفارة باريس معلومات أكيدة عن عزم فرنسا على اعادة قسم من جيشها المارابط في (الجزائر) وحشده في جنوب بلادها لتستخدمه حين الحاجة ضد ايطاليا أو ضد الالزاس . وقد بسطت المسألة على القيصر نقولا الثاني وأبلغته أنني سأرى نفسي مضطراً الى اتخاذ التدابير الواقية ، اذا لم يمنع تحرش حلفائه بي

وكان البرنس (لوبانوف) حينئذ وزيراً للخارجية في روسيا . وقد كان قبل ذلك سفيراً في فيينا ، وامتاز بشدة ميله الى فرنسا حيث قضى صيف سنة ١٨٩٥ مغموراً هنالك بكل مظاهر الحفاوة والاحلال

وفي خريف تلك السنة جاءني البرنس (لوبانوف) وأنا في القنص بقصر (هوبرتوستوك) وطلب مقابلي باسم القيصر . وكان حينئذ عائداً من باريس فوصف لي روح السكينة والحكمة والهدوء التي وجدها في باريس . وحاول أن يهديء خاطري بشأن التعبئة التي تكلمت عنها آنفاً . وكانت المسألة كلها في نظره هذيان لا أساس له . وأكّد لي تأكيداً قطعياً بأنه « ليس ثمة ما يدعوا الى الخوف » . فقلت له بعد ما شكرته على بلاغه : « ان كلمة خوف لا أثر لها في قاموس الضباط الالمان . فاذا كانت فرنسا وروسيا تريدان الحرب فلا أستطيع أن أغير رأيهما »

فرفع البرنس رأسه حينئذ الى السماء وظهرت عليه دلائل الخشوع كأن نظره قد وقع على صليب وقال : « الحرب ؟ يا لها من فكرة ! من ذا الذي يفكر فيها ؟ ان ذلك يجب ان لا يكون » . فقلت له حينئذ : اني لا أفكر

في الحرب ، ولكن الذي يرقب الأمور ولو « سطحياً » يرى في الحفلات والخطب والزيارات الرسمية وغير الرسمية بين باريس وبطرسبرغ أدلة أكيدة لا يمكن تجاهلها . وقد أحدثت استياءً عظيماً في ألمانيا فاذا قضت الحال بالحرب رغماً مني ومن شعبي فان ثقتي بالله والجيش والأمة تجعلني اعتقد بأن ألمانيا ستتغلب على خصمين

ثم ذكرت لمحدثي كلاماً نقل الي من باريس وقد فاه به ضابط من ضباط اللجنة الروسية التي كانت حينئذ في فرنسا . وذلك ان أحد زملائه الفرنسيين سأله « هل الروس هم أيضاً على ثقة تامة بكسر الألمان ؟ » فأجاب « كلا يا عزيزي . فاننا سنقهر بلا جدال . ولكن ذلك لا يهمنا ، مادام ذلك يجعلنا نحن أيضاً حاصلين على الجمهورية بالأقل » فخدق بي البرنس في بدء الأمر من غير ان ينبث بينث شفة ، ثم هز رأسه وقال : « آه من الحرب ! يجب أن لا تمر على الخاطر ولو في المنام »

على ان الضابط لم يعرب الا عن رأي شائع في الاندية الروسية وبين المفكرين من الروس

وقد أعلنت لي احدى الغردوقات في ابان زيارتي لبطرسبرغ سنة ١٨٨٠ بكل صراحة ورباطة جأش — وكانت جارتي على المائدة — ما يأتي : « اننا نعيش هنا فوق بركان دائم ، لاننا ننتظر الثورة كل يوم . فالصقابة ليسوا مخلصين ، ولا يوجد بينهم أحد من الحزب الملكي ، بل جميعهم جمهوريون قلماً ، ولكنهم مرءون يكذبون كل يوم وفي كل حال »

ألمانيا ومحطات النهم في الصين

امتازت وزارة البرنس (هو هنلوه) بثلاث حوادث خطيرة الشأن تتعلق بالسياسة الخارجية وهي :

الاحتفال بفتح « قنال الامبراطور غليوم » في سنة ١٨٩٥ (بين البحر

الشمالي والبلطيك) وكان قد بدىء العمل به في عهد غليوم الا كبر وقد دعيت الى هذه الحفلة أساطيل العالم وبواخره ،

وامتلاك (تسنغ تاو) في سنة ١٨٩٧ ،

ثم تلغراف كروغر الشهير الذي أفسح مجالا واسعا للمناقشات

كان للبرنس هو هنلوه شأن كبير في تملك (تسنغ تاو) فقد كان مقتنعا بأن المانيا يجب أن يكون لها موانئ لتكوين بواخراها بالفحم . وكنا من جهة أخرى مضطربين الى الموافقة على ما تطلبه أنديةنا التجارية بشدة من انتهاء الفرصة السانحة في بلاد الصين التي فتحت أبوابها للتجارة الدولية . لذلك وجب علينا أن نفشيء مدينة تجارية ذات محطة بحرية للفحم ، بعد الاعتراف بامتيازات السيادة الصينية ، وتسوية جميع الحقوق التي تتطلب التسوية . وقد كنا نفكر في تحويل الصين أوسع المزايا التي تمكنها من التعاون معنا . وقلنا ان المدينة التي نختارها يجب أن تستخدم قبل كل شيء للتجارة ، وان تكون التدابير العسكرية التي تتخذ فيها قاصرة على حماية رقيها التجاري فقط ، فاننا لم نكن نتوخى الفتح ، ولا إيجاد مركز صالح للأعمال الحربية

وقد فكرنا في عدة مدن لم نجد لها صالحة ، إما لفقدان مواصلاتها مع الداخلية ، أو لصعوبة تلك المواصلات ، واما لانها ليست ذات مستقبل من الوجهة الاقتصادية ، أو لان تعهداتها كثيرة ازاء الاجانب . وأخيراً وقع الاختيار على خليج (كياوتشو) على أثر تقرير الاميرال (تربيتز) الذي كان قائداً لاسطول الطرادات في الشرق الأقصى ، والآراء التي أبداه الجغرافي المحقق البارون فون (رينخت هوفن) وكان هذا البارون قد أعطى معلومات ملائمة جداً عن احتمال ترقية (تشانغ تونغ) رداً على الاسئلة التي وجهت اليه في هذا الشأن

وبدأ وزير الامبراطورية حينئذ يبحث في المشروع من وجهته السياسية .

وكان يهمننا قبل كل شيء ان لا نجعل مصالحنا تتعارض مع مصالح روسيا وان لا نفرضها • فعهدنا الى اسطولنا في الشرق الأقصى بأن يحصل على معلومات أخرى • فكان رده باعناً على الأمل بعظم مستقبل الميناء ، فان المكان الذي ترسو فيه البواخر حسن جداً وخايج (كياوتشو) في مأمن من الجليد • وقد علم قوادنا من زملائهم الروس في الصين ان الاميرال الروسي قضى كل الشتاء في الميناء بأمر حكومته • ولكن الروس رأوا المكان فقراً والبلاد صحراء (لانهم لم يجدوا منازل لتناول الشاي ولا لغير ذلك مما يحتاجون اليه في الشتاء) فوطدوا النية على أن لا يعودوا اليه ثانية • وكان الاميرال الروسي قد أسدى حكومته النصائح الشديدة طالباً منها ان لا تفكر في الاقامة في هذا الميناء الذي لا أمل فيه ولا مكسب يرجى منه • فثبت لنا حينئذ أن روسيا لا مطمع لها في (كياوتشو)

وردت علينا هذه المعلومات الأخيرة في الساعة التي تلقى فيها سفير ألمانيا رد الكونت (مورافيا) وزير خارجية روسيا في هذا الشأن • فان مستشار الامبراطورية عهد الى سفيرنا في (بطرسبرغ) في أن يعجم عود الروس ، فقال له الكونت (مورافيا) ان روسيا لا يمكنها ان تدعي أقل حق في الميناء نشأ عن معاهدة مع الصين • ولكن ذلك لا يمنعها من ان تعد نفسها صاحبة الحق في احتلاله لان أساطيلها رست فيه قبل أساطيل الدول الأخرى • وكان هذا مناقصاً لما ورد في تقرير أميرال أسطولنا في الشرق الأدنى نقلاً عن الاميرال الروسي عينه

واجتمعت مع الاميرال (هولمان) عند مستشار الامبراطورية للبحث في هذا الرد الذي طالعه البرنس وابتسامة الهزء على شفتيه • ثم قال لنا انه لم يجد في وزارة الخارجية متشرعاً جديراً بأن يفسر له تأكيد مورافيا الغريب • فهل للاسطول ان يساعد على ذلك ؟

وأكد الاميرال (هولمان) استناداً الى اختباره الواسعة في مدة

خدمته الطويلة في الخارج أنه لم يسمع على الإطلاق أقل إشارة الى الحق الذي تدعيه روسيا . فان هذا الادعاء لا يستند الى اساس . انما هو اختلاق محض ابتكره (موراقياف) لمنع أية دولة أجنبية من ترسيخ اقدامها في تلك الجهة ولكي تتضح لي المسألة بجلاء طلبت من الهر (بيرل) مستشار البحرية الخاص الذي امتاز بسعة معلوماته في القوانين البحرية أن يبدي رأيه في هذه المسألة ، ففعل منعنداً ادعاء (موراقياف) ومؤيداً آراء (هولمان) بأدلة تثبت ان « حق سبق في رسو البواخر » من الخرافات

. ومرت الأشهر وتوالت الأيام الى أن كان موعد زيارة (پترهوف) في أغسطس سنة ١٨٩٧ فاتفقت مع البرنس عمي على ان أفاوض القيصر شخصياً في المسألة بكل صراحة ووضوح رغبة في تفسير مذكرة (موراقياف) اذا أمكن واجتناب كل مغالطة وكل تأويل

ودار البحث حول هذه المسألة في (پترهوف) فأعلن القيصر ان البلاد الواقعة جنوبي خط (تيان — تسين — بكين) لاتهمه . وانه لا يرغب في أن يقيم العقبات في سبيلنا بشأن (تشان تونغ) وأنه — منذ أقام له الانكاز العراقي في (موكبو) — حصر كل اهتمامه في جهات (پالو) و (پور ارثور) وغيرها . على انه أعرب عن سروره بأن يرى المانيا في المستقبل وراء خليج (تشيلي) وقال أن مجاورتها تسر روسيا وتفرحها

ثم فاوضت (موراقياف) فاستنجد بكل حيله ومناوراته و ابان المناوضة ، وأدلى بكل حججه الى ان أخرج أخيراً من حقيقته « حق سبق البواخر الى الرسو » . وكنت أنتظر هذه الساعة لا شرع بالهجوم ، وحملت عليه بكل ما في أدلة (بيرل) من قوة الاقتناع . ثم أخبرته في النهاية بنتيجة ما جرى بيني وبين القيصر — وكان جلالته قد أشار بذلك — فتلثم الوزير ، وفقد الثقة التي كان يتظاهر بها في كلامه ثم القى سلاحه

وكانت السبل ممهدة على هذا الاسلوب من الوجهة السياسية . فلما وصل

كتاب من أسقف (انزار) في الخريف ينبغي بمقتل اثنين من المبشرين الالمان في (تشانغ تونغ) قام الكاثوليك الالمان حينئذ ولا سيما دعاة الاستعمار من حزب الوسط وطلبوا اتخاذ أشد التدابير الفعالة . وقد اقترح المستشار أن أتدخل في أقرب آن ، فبدأنا نبحث في الخطة التي يجب اتباعها ، وكنا في برج صغير من أبراج قصر (تزلنغن) حيث كنت في الصيد . وعرض عليّ البرنس حينئذ تعيين البرنس (هنري) البروسي الذي كان معنا في (تزلنغن) قائداً للأسطول المنوي إرساله لتعزيز أسطول الشرق الأقصى . وقد أبلغت المسألة الى شقيقى على مسمع المستشار ، فسر سموه وجميع الحاضرين سروراً عظيماً . وأصدر المستشار الامر بذلك الى وزارة الخارجية والى الهر (فون ييلوف) وزيرها الجديد الذى كان متغيباً في تلك الاثناء

خطة انكلترا في طلبنا محطة الفحم

احتللتنا (كيا وتشاو) في نوفمبر سنة ١٨٩٧ . وسافر البرنس هنري في ديسمبر من السنة عينها على ظهر البارجة (دتشلد) قاصداً الشرق الأقصى على رأس أسطوله . ثم عين قائداً للأساطيل الالمانية كلها في الشرق الأقصى بعد وصوله بأيام قليلة . وفي ٦ مارس سنة ١٨٩٨ وقع صك ايجار (كياوتشو) مع الصين . وكان المستر (تشمبرلن) في تلك الاثناء يقترح على البارون (كاتو) سفير اليابان في لندن ابرام محالة بين الانكليز واليابان غايتها توقيف توغل الروس في الشرق الأقصى

ورب قائل يقول : لماذا لم يرد ذكر انكلترا في كل هذه المساعي الجريئة التي تهمها ؟ ذلك لأن مقدمات هذه المسألة كانت قد سويت مع انكلترا . فاني لما رأيت محطات الفحم الالمانية قليلة جداً فكرت في انشاء محطات جديدة أو في شرائها أو استئجارها بالاتفاق مع الانكليز . وتوهمت أن المفاوضات تكون سهلة لأن عمى المستشار هو نسيب الملكة (فكتوريا) لكونه من آل

هو هنلوه ولأنها تعرفه شخصياً وتجه حباً جاً . ولكن سرعان ماخاب ظني .
 فالمفاوضات استغرقت زمناً طويلاً ولم يكن البت في نتیجتها ممكناً
 وقد سألتني المستشار حينئذ أن أبحث مع سفير انكلترا في هذا الشأن ،
 فشكوت له أعمال حكومته ، وقلت اننا لانجد منها الا معارضة حتى في أشد
 مطالبنا انطباقاً على الحق . فقال السفير ببراعة أني محق في قولي ، واعرب عن
 دهشته من قصر نظر انكلترا وقلة اندفاعها . وقال ان الشعب الالماني الشاب
 المقدم الذي لا يمكن خنقه قد وجه انظاره الى انكلترا للاتفاق معها على ما
 يرغب في ضمه الى بلاده بدلاً من أن يفعل ذلك منفرداً أو بالاتفاق مع الدول
 الاخرى . وهذا أكثر مما تستطيع انكلترا ان تطلبه . وزاد السفير على
 ذلك ان انكلترا تملك الآن العالم كله ومن الممكن ايجاد مكان تستطيع المانيا
 أن تجعله محطة لها . ثم قال انه لا يفهم مقاصد هؤلاء السادة المتربعين في شارع
 « دووننغ ستريت » لأن المانيا اذا لم تنل ما تطلبه بموافقة انكلترا فلا
 يبعد أن تناله من غير موفققتها . ولا يوجد حق يجوز التمسك به لمنعها من
 ان تنهج هذه الخطة

فأجبت عليه قائلاً : ان هذا هو رأيي . وأجلت له الموقف في النهاية كما
 يأتي : ان المانيا هي الدولة الوحيدة التي لاتملك محطات للفحم رغم كثرة
 مستعمراتها . واتساع نطاق تجارتها . ونحن نفضل ان نحصل على هذه المحطات
 بالاتفاق مع انكلترا ولكنها اذا رفضت أن تفهم موقفنا ولم ترد معاملتنا
 بالحسنى فالتنا نجب على الالتفات الى دولة اخرى من الدول العظمى لكي ننشيء
 محطاتنا بمعرفتها ومساعدتها

على أن هذا الحديث لم يؤثر في المسألة أقل تأثير ، فقد قطعت انكلترا
 المفاوضات بغلظة من غير أن تسفر عن نتيجة ، وذلك مما حملنا انا والمستشار
 على توجيه انظارنا الى روسيا

ودهشت انكلترا من احتلالنا (كياوتشو) ونفرت منه . وكانت قد

حسبت اننا لانلقى مساعدة من أحد اذا هي رفضت مساعدتنا ، ولكنها لما
وأتم ما لم يكن في حسابها عمدت الى التذمر والشكوى . واراد سفيرها ان
ينقل لي شكواها فذكرته بالحديث الذي دار بيننا ، وقلت له اذا كانت انكلترا
لم تتمكن من الاتفاق معنا فاللوم واقع عليها وحدها

الاتفاقية الانكليزية الفرنسية الامريكية

سنة ١٨٩٧

كانت خطة انكلترا البعيدة عن المسالمة واللين سبباً في دهشنا واستغرابنا
ولكن الحوادث التي لم أكن اعرفها من قبل أوضحت لي اليوم خطة انكلترا.
فقد نشر كتاب في (لاهي) سنة ١٩١٨ بعنوان « مشكلة اليابان » ولم يذكر
اسم مؤلفه بغير العبارة التالية « احد رجال السياسة السابقين في الشرق
الاقصى » وقد اشير في هذا الكتاب الى المؤلف للاستاذ (ولاند اوشر) استاذ
التاريخ في (جامعة وشنطن) في (سان لويس) وكانت وزارة الخارجية في
وشنطن تستشير الاستاذ (اوشر) هذا كما تستشير زميله الاستاذ (جون باست
مور) من (جامعة كولومبيا) في (نيويورك) في جميع الشؤون السياسية
الخارجية لانه من أكثر رجال امريكا وقوفا على كنهه المشاكل الدولية التي
تهم الولايات المتحدة

فالكتاب الذي نشره الاستاذ (اوشر) سنة ١٩١٣ أشار لأول مرة
الى وجود معاهدة سرية أبرمت بين انكلترا وأوربا وفرنسا في ربيع سنة
١٨٩٧ وقضت باشتراك امريكا مع انكلترا وفرنسا ومساعدتهما بكل قواها
في كل حرب تعلنها المانيا أو النمسا أو كلاتهما معاً لتحقيق الفكرة الجرمانية
وأسهب الاستاذ (اوشر) في بسط الاسباب المختلفة التي تقضي بها مصلحة
الاستعمار وغيرها من المصالح الامريكية وتحمل الولايات المتحدة على شد أزر
انكلترا وفرنسا في حربهما مع المانيا . وقد أعلن الاستاذ منذ ١٩١٣ ان

هذه الحرب لا بد من وقوعها في القريب العاجل

وان مؤلف « مشكلة اليابان » المجهول قد كلف نفسه عناء البحث في الاتفاقات المبرمة سنة ١٨٩٧ بين انكلترا وفرنسا وأمريكا ووضعها في لائحة منظمة فوضح بذلك العهود التي قطعتها هذه الدول على نفسها ايضاحاً تاماً . والفصل الذي ذكرت فيه هذه المعاهدات من الكتاب على أعظم جانب من الاهمية لانه يبسط الاحوال التي سبقت اعلان الحرب العظمى والتدابير التي اتخذها « الحلفاء » لاعدادها ضد المانيا قبل أن يلقبوا أنفسهم باسم « دول التحالف الودي » . وقد قال السياسي السابق الذكر بهذه المناسبة ما يأتي : « انهم الآن ازاء معاهدة أكد الاستاذ (أوشر) انها ابرمت في سنة ١٨٩٧ ، ونصت مقدماً على واجبات انكلترا وفرنسا وأمريكا ازاء الحوادث المنتظرة ، وفي جملتها احتلال المستعمرات الاسبانية ، واقامة المراقبة على المكسيك وأمريكا الوسطى ، وتقرير الباب المفتوح في الصين ، وضم محطات الفحم . ويريد الاستاذ (أوشر) أن يقنعنا الآن بأن كل هذه التدابير انما اتخذت لحماية العالم من خطر الفكرة الجرمانية »

واستطرد « السياسي السابق » الكلام فقال : « لا حاجة الى تذكير الاستاذ (أوشر) بأن الفكرة الجرمانية - التي نفرض جدلاً انها كانت موجودة - لم يسمع بها أحد في سنة ١٨٩٧ ، لان المانيا لم تكن بعد قد وضعت برنامجها البحري الواسع الذي عرف في سنة ١٨٩٨ فقط . فهل المشروعات التي عزاها الاستاذ (أوشر) الى فرنسا وانكلترا وأمريكا صحيحة ياترى ؟ وهل ابرمت هذه الدول معاهدة عزمت على تنفيذها ؛ فاذا كان الجواب بالايجاب تعذر الاعتقاد بأن ظهور الفكرة الجرمانية كان السبب الوحيد لكل هذه المشروعات ولكل التدابير التي اتخذت فيما بعد لتنفيذها »

ان هذه الامور تدعو الى الدهشة والاستغراب ، فقد فكر الغاليون والانفلوسكسونيون في اعلان السلم بابرام معاهدة ترمي الى تقسيم اسبانيا

وألمانيا وغيرها . ونظموا هذا المشروع تنظيمًا دقيقًا حتى في أصغر تفاصيله من غير أن يشعروا بوخز الضمير ، مع علمهم بأن الغاية منه القضاء على ألمانيا والنمسا وعلى مزاحمتها التجارية في اسواق العالم . وقد وقع الغاليون والانغلو سكسونيون هذه المعاهدة قبل أن تعلن الحرب بسبعة عشر عاماً ، وقضوا هذه المدة في الاستعداد لها استعداداً منظمًا . وهذا ما يجعلنا ندرك السهولة التي صادفها الملك ادورد السابع في تنفيذ سياسة « الخلق » . فان الادوار المهمة كانت مدبرة بالاتفاق بين هذه الدول من زمن بعيد . ولما أطلق على الاتفاق الثنائي اسم « التحالف الودي » في حفلة العهاد أحدث هذا المولود الجديد دهشة مقرونة بالاستياء في ألمانيا ، ولكنه كان في نظر الحلفاء اعترافاً رسمياً بحالة معروفة من قديم

وهذا الاتفاق يوضح لنا أيضاً الاسباب التي منعت انكثرا من مسابقة ألمانيا بشأن محطات الفحم ، وغرست في نفسها الحقد على ألمانيا بعد ما رأتها تتفق مع روسيا وتولد أقدامها في الصين ، تلك البلاد التي كانت الدول الثلاث قد انتهت من تقرير مصيرها من غير مساعدة ألمانيا

فلاستاذ (أوشر) دلّ - بما أوشاه من المكنونات - على الجهة التي يجب البحث فيها عن المسؤولين الحقيقيين عن الحرب . لان المعاهدة الموجهة ضد ألمانيا وقد اطلق عليها اسم « اتفاق الاشراف » والتي أبرمت سنة ١٨٩٧ هي الاساس الحقيقي للحرب العظمى ، وهي المحور الذي قضت دول الحلفاء ١٧ عاماً في تحسينه ، حتى اذا ما تمكنت من الاتفاق مع روسيا واليابان ضربت ضربتها الشديدة بعد ما تلاعبت صربيا بمجناية (سراي بوسنة) التي كانت شرارة من النار وقعت في برميل مملوء بالبارود

وتدل المعلومات التي جاء بها الاستاذ (أوشر) على خطأ الذين توهموا ان دخول أمريكا في الحرب ناشئ عن بعض الاعمال العسكرية التي قامت بها ألمانيا ، كغرق الباخرة (لويزيتانيا) ، أو اعلان حرب الفواصات ، فان هذا الوهم لا نصيب له من الصحة

وقد أثبت الكتاب النفيس الذي أصدره أخيراً المستر (جون كنيث تورنر) بعنوان «هل تتكرر ثانية» أن الأسباب والاعراض التي بسطها المستر ولسن لم تكن الا وسيلة أراد التوصل بها لاعلان الحرب . وأدلى على ذلك بأدلة قاطعة لا سبيل الى انكارها . فقد كان في عزم أمريكا — أو بالأحرى الرئيس ولسن — منذ بدء الحرب ، أو منذ سنة ١٩١٥ على الأقل ، الانضمام الى الحلفاء ضدنا . وقد فعلت أمريكا ذلك بحجة الغواصات ولكن الحقيقة انها سيقى الى هذه الحرب بتأثير الممولين الاقوياء ، وتلبية لدعوة فرنسا التي أوشكت ان تستنفد كل مواردها في الرجال . ولم تكن أمريكا لترغب في ان تترك فرنسا خائرة القوى ازاء انكثرا . لان اطماع هذه الدولة في (كاله) و (دنكرك) وغيرها كانت معروفة لديها

شكواى من وزارة خارجيةنا

مسئولية بسمرك — وصعوبة تربية الساسة في ألمانيا

لقد كان من مصائب ألمانيا — وأقول هذا الآن عرضاً — أن لا تتمكن وزارة خارجيتنا من الوقوف — بما يشبه مهارة الآخرين السياسية — في وجه « سياسة الخنق » التي نهجتها انكثرا علناً . وخطة المواربة التي اتبعتها روسيا وفرنسا

وفي جملة الأسباب التي أدت الى هذا التقصير أن وزارة خارجيتنا لم تكن قد تمرّنت تمرّناً صحيحاً على يد البرنس (بسمرك) ، فان الروح والارادة اللتين كانتا تشرفان على جميع الأعمال قد ذهبتا بذهاب البرنس (بسمرك) وابنه الكونت (هربرت) . لذلك لم يكن في طاقة الوزارة أن تقوم بواجبها وأن تحتفظ باستقلالها في ادارة دفة السياسة الخارجية ، ولا سيما لأن تربية الساسة القادرين من الأمور الصعبة في ألمانيا ، ولأن شعبنا ينقصه الذوق ، وينقصه بعض المواهب التي لم تظهر بأنهم مظاهرها الا في بعض عظماء رجالنا

أمثال فردريك الأكبر وبسمرك

لقد مضت سنوات عديدة ووزراء الدولة الألمانية يتغيرون بلا انقطاع ، وكان المستشارون يريدون أن يهجموا نهج بسمرك فيحتفظوا بسلطتهم على وزارة الخارجية ، لذلك كانوا يختارون الوزراء بانفسهم . وقد راعت رغبتهم هذه ، لاني اعترفتُ للمستشار بحق انتقاء كبار مساعديه في الشؤون الخارجية . ولكن التغييرات المتوالية في وزارة الخارجية لم يكن من شأنها تمكيننا من الاستمرار في سياستنا ، وهذا هو السبب الأول فيما أصابنا من الفشل وكانت عبارة « احذروا ايجاد المشاكل بين الدول » أساساً لأعمال وزارة الخارجية ، كما كانت عبارة « دعونا من قصصكم » نصيحة وجهها أحد القواد الفرنسيين لفصيصة من الجند بلغه أنها عازمت على شق عصا الطاعة واني لفت في أحد الأيام أنظار وزير للخارجية الى مشكلة رأيها تدخل في شكل يبعث على القلق . فكان جوابه لي :

— كل هذه الأمور ستسوى في النهاية

وكان المبدأ الذي تطأطأ له جميع الرؤوس في وزارة خارجيةما « السلم قبل كل شيء »

ان فيما تقدم تفسيراً لرد سفير ألمانيا لدى إحدى جمهوريات أمريكا الجنوبية على تاجر ألماني جاء يطلب منه مساعدته ووساطته اذ نُهب مخزنه وفقد كل ثروته ؛ فقد قال له السفير :

— دعنا من كل هذه الأمور ، فقد أنشأنا الآن صلات حسنة مع

الجمهورية ، وربما يضر هذه الصلات الحسنة توسطي في مسألتك :

ولا حاجة بي الى القول بأنني كنت استعمل الشدة بلا تردد مع كل

موظف أسمع عنه أنه يمثل هذه العقلية

وكان النفور العام من وزارة خارجيتنا شديداً جداً في الأمة وفي الجيش .

واني طلبت غير مرة من مستشارين مختلفين أن يعنوا باصلاح هذه الوزارة

أصلاحاً جوهرياً ، فلم يأت شيء من ذلك بفائدة ، لأن كل مستشار جديد — ولا سيما إذا لم يكن من موظفي الخارجية — يشعر بحاجته الى هذه الوزارة للوقوف على مجرى السياسة . فاذا تم له ذلك بعد مدة من الزمن يتغلب عليه عاطفة عرفان الجميل ، وفضلاً عن ذلك فإنه يرى نفسه — في الوقت ذاته — رازحاً تحت أثقال العمل فلا يجرأ على القيام باصلاحات جوهريّة ، أضف الى ذلك قلة اختباره في هذه الشؤون ، فيخشى أن يحرم من استشارة من هم دونه من الموظفين الذين سبقت لهم التجارب

تقدم تسنغ تاو

وحسد انكلترا

أعود الآن الى (تسنغ — تاو) فقد كانت كل الوسائل اللازمة لتسهيل التجارة والصناعة قد أعدت فيها . وقد تم ذلك بالاتفاق مع الصينيين الذين كانت أعلامهم تحفّق فوق الجمارك ، وبلغ تقدم هذه المحطة مبلغاً عظيماً حتى صارت تعدّ — في السنوات التي تقدّمت اعلان الحرب — من موانئ الصين التجارية الكبرى ، فهي تنلو (تيان تسين) في الأهمية ، ويعتبرونها الثغر السادس من الثغور الصينية

كانت مدينة (تسنغ — تاو) مركزاً تجارياً يبعث على أعظم الآمال ، وكان الصينيون يحبونها ويعجبون بها . وقد عمل معنا كثيرون منهم على ترقيتها . حتى صارت مستودعاً لنماذج المعارف والصناعات الألمانية وكفاءة السكان ، وان الصينيين ينتقون منها ما يروق لهم فيحذون على مثاله . ولم يكونوا يعرفون شيئاً من قبل عن ألمانيا وصناعاتها وصادرتها ، فلما ظهرت (تسنغ — تاو) رأوا الفرق العظيم بينها وبين الموانئ الروسية والانكليزية التي لم تنشأ الا لأغراض عسكرية صرفة ترمي الى التملك وانفتح

وان تقدم هذه المدينة السريع قد أثار الحسد في نفوس اليابانيين

والانكليز نمحونا . وكان هؤلاء يقدرون جمال شواطئها ، ولطف هواها .
والفندق البديع الذي أنشيء على شاطئها ، فيأتون اليها بأسرهم فراراً من حر
(هونغ كونغ) و (كانتون) و (شنغاي) فيقضون أوقاتهم فيها بأعب
(البولو) و (التنيس)

واندفعت انكلترا بعامل الحسد ، فطلبت من اليابان سنة ١٩١٤ أن
تستولي على (تسنغ - تاو) التي كانت مدينة صينية فعلاً . فلبت اليابان هذا
الطلب بسرور ، بعد ما وعدت برد هذه المدينة الى الصين . ولكنها لم تبر
بوعدها إلا في أوائل سنة ١٩٢٢ بعد أن أكرهت على ذلك ، لأنها كانت
قد تعهدت لامريكا بأن لا تقوم بأقل تعديل جغرافي في الصين الا باستشرافها .
وهكذا قضى حسد انكلترا التجاري على عمل عظيم من أعمال ألمانيا اثنائية
في الخارج ، وعلى نموذج للأساليب التي تمكن أمنه مما من تلقين حضارتها
لامة أخرى وجعلها تنفيذ من كل مزاياها

غير أن انكلترا سوف تتقدم على ما صنعت ، متى حلّ بمستعمرتها
(هونغ كونغ) ما حلّ بمستعمرتنا (تسنغ تاو) ، فتلوم نفسها على إهمالها
المبدأ الذي طالما استفادت منه في الماضي ، وهو المبدأ القائل : « الأبيض
كلهم معاً ضد مختلفي الألوان » ، وعند ما نحقق اليابان برنامجها المبني على
أساس « آسيا للأسيويين » . وتبسط سلطتها على الصين والهند ، وحينئذ
ترسل انكلترا انظارها باحثة عن ألمانيا وعن الأسطول الألماني

الخطر الاصفر — مخاوف نقولا الثاني

اجتمعت بالقيصر نقولا الثاني بعد الحرب الروسية اليابانية فتكلمنا عن
الخطر الاصفر ، وكان القيصر لا يزال حينئذ تحت تأثير « النمو الياباني »
والخطر الذي ينشأ عنه ويهدد روسيا وأوروبا . فسألني عن رأيي في هذا

الأمر ، فقالت له :

« اذا انتظم الروس في صفوف دول أوربا المتمدنة وجب عليهم أن يستعدوا للدفاع عنها ضد الخطر الاصفر ، وأن يحاربوا مع أوروبا ، ولأجل أوروبا : دفاعاً عن كياناتهم وعن حضارتهم المشتركة . لما إذا شعر الروس أنهم اسيويون فانهم يتحدثون مع الخطر الاصفر ، وينتفضون معه على أوروبا . فعلى القيصر والحالة هذه ان ينظم طرق للدفع عن بلاده . وان يعد جيشه للقيام بالمهمة التي يختارها له »

وسألني القيصر عن المهمة التي أظن أن الروس يخارونها . فقلت له : « انها الثانية » . فغضب القيصر لدى سماعه هذا الجواب ، وطلب مني في الحال أن أبين له الاسباب التي بنيت عليها حكى . فقلت له : « ان رأيي هذا بنيته على ما أراه من انشاء السكك الحديد على الحدود الروسية - النمسية ، وتعبية الجيوش الروسية على هذه الحدود » . فاحتج القيصر على ذلك قائلاً : « انه هو وأسرته من أوروبا ، وأن بلاده ومن فيها من الروس سينضمون الى أوروبا بلا جدال ، ويفاخرون بالدفاع عنها ، ضد الجنس الاصفر . فقلت له : « اذا كانت الحالة كذلك فمن الضروري البدء بالاستعداد العسكري في الحال » . ولكن القيصر ظل ساكناً

وقد حاولت في كل الأحوال أن استثمر خوف القيصر تقولا الثاني من « نمو قوة اليابان » لمصلحة ألمانيا ، ومصلحة الحضارة الأوروبية كلها . على أن روسيا انحازت في الحرب العظمى الى الجانب الذي فيه اليابان وكانت أول من أصيب بكارثة الاضمحلال في تلك الحرب

ان حكماء الساسة اليابانيين — وما اكثر الحكماء في اليابان ! — يترددون في الجواب عند ما يتساءلون : هل بلادهم خاضت غمار الحرب العالمية في الجهة

الملائمة لهم ام لا ؟ ولعلمهم يقولون ان حيلولة اليابان دون وقوع الحرب العظمى كان اكثر ملاءمة لمصالحهم ، ولا ريب ان ذلك كان في استطاعتها لو وقفت في جانب دولتي اوربا الوسطى اللتين طالما استمدت منهما العلم والعرفان. لو ان اليابان اندفعت في الوقت الملائم وراء التيار السياسي الملائم ، ولو انها نهجت منهج المانيا بما تذرعت به من الوسائل السامية للحصول على المركز التجاري اللائق بها في العالم ، لاهملت الخطر الاصفر بكل سرور ، وحيث اليابانيين - بروسبي الشرق - تحيي لامة مسالمة يعاها المستقبل بأبهج الآمال

ولما اشتدت الازمة سنة ١٩١٤ لم يأسف احد اكثر من اسني لرؤية كلمة « الخطر الاصفر » محتفظة بكل معانيها ، ولكن تجارب الحرب العظمى قد تستطيع تعديل الأمور

مسألة سيمونوزاكي

اضطرت المانيا - بحكم موقفها السياسي الاوروبي - الى اقتفاء أثر فرنسا وروسيا في (مسألة سيمونوزاكي) ؛ فانها وجدت نفسها « محشورة » بين روسيا التي كانت تهدد الحدود عسكرياً . وفرنسا التي كانت تعزز حدودها وحصونها واستحكاماتها . وقد اتحدت الدولتان ضد المانيا ، وكانت برلين تنظر الى المستقبل بعين القلق ؛ لان التسليم في هاتين الدولتين كان أحسن منه عندنا ، ولان أساطيلهما احدث صنعاً واشد فتكاً . ولم يكن لدى المانيا حينئذ الا بعض بواخر قديمة لا تكاد تصلح للظهور في معركة بحرية

لذلك رأينا من الحكمة ان نوافق على اقتراح التحالف الفرنسي، الروسي القوي ؛ رغبة منا في منع فرنسا وروسيا من الاتجاه الى انكسار ومنع هذه الدولة من ان تنضم اليهما فتعزز مركزهما وتزيدهما قوة ومنعة . ولو كننا رفضنا ذلك الاقتراح لنفذت الخطة المدبرة ضدنا قبل سنة ١٩١٤ وكان موقفه

ألمانيا صعباً ومخيفاً ، ولا سيما لأن اليابان كانت قد بدأت تنقاد الى انكسار مدفوعة بعوامل الصداقة

وكان في طاقة ألمانيا ، بعد ما نهجت سياسة مشتركة في الشرق الأدنى ، ان تفعل مثل ذلك تقريباً في أوروبا ، بانضمامها الى التحالف الفرنسي الروسي ، وانشاء صلات مع هاتين الجارتين تدعو الى الثقة والاطمئنان وتقريج الموقف واصلاح الحال . وقد نهجنا في هذه المسألة كلها نهجاً يرمي الى ما كنا نرمي اليه دائماً وهو توطيد دعائم الأمن في العالم

التلغراف الاضطرابي الى كروغر

أبدي البرنس (هو هنلو) رغم تقدمه في السن نظراً ثاقباً وسرعة خاطر يستحق الاعجاب في مسائل « كياو تشاو » من أولها الى آخرها . ولكن أصالة رأيه التي رافقته دائماً قد خاتمه لسوء الحظ في الحادثة المعروفة باسم « حادثة تلغراف كروغر » ولولا ذلك لنعذر علينا أن ندرك اصراره على ارسال هذا التلغراف . ومن المحتمل أن يكون الهرفون (مرشال) الذي كان حينئذ سكرتيراً عاماً قد أثر بما امتاز به من صدق العزيمة وقوة الحجة تأثيراً كبيراً في هذه المسألة ، ولا يبعد أيضاً أن تكون اغاني الهرفون (هولستين) قد تضمنت أنعاماً لذيدة لم يتمكن البرنس من مقاومتها

ومهما يكن الأمر فقد أساء بهذه المسألة اساءة كبيرة الى بلاده وسبب لي مشا كل كثيرة في انكسار فضلاً عن ألمانيا . وهذا التلغراف — الذي أحدث ضوضاء كبيرة في العالم وأدى الى نتائج سياسية عظيمة الشأن — ذو أهمية كبيرة . فلا يسعني الاشارة اليه من غير أن اذكر شيئاً عن تاريخه

أحدثت اغارة (جرمن) تأثيراً عظيماً في ألمانيا كلها . وكان هذا التأثير يزداد يوماً فيوماً ، لأن الشعب الألماني صبّ نغمته وسخطه على الذين حاولوا استعباد أمة صغيرة هولندية — أي سكسو ألمانية الأصل —

اكتسبت العطف العام عليها في ألمانيا بهذه القرابة الجنسية . وقد استولى عليّ القلق من جراء هذه الحالة الروحية التي تسربت الى الطبقات العليا وبت أخشى أن تؤدي الى مشاكل خطيرة الشأن مع انكلترا اذا أرادت الاستيلاء على بلاد البوير فليس من يستطيع الوقوف في وجهها . وقد كان عملها هذا في نظري عملاً فظيعاً لا يتفق مع الحق والعدل ، ومع ذلك لم يكن لي في امكاني الوقوف في وجهه النيار امام ، حتى ان الخطة التي نهجتها حينئذ قابلها رجال حاشيتي انفسهم بالانتقاد الشديد

ودخلت يوماً على عمي المستشار لمفاوضته في بعض الشؤون ، فوجدت عنده الاميرال (هولمان) وزير البحرية ثم البارون (مرشال) سكرتير الوزارة الذي دخل علينا فجأة ودلائل الاضطراب على محياه وفي يده ورقة . وقد أعلن أن الهياج بلغ أشده في الامة وفي مجاس (الرخستاغ) وانه لا بد من السماح لهذا الهياج بالظهور . وخير طريقة لذلك هي ارسال تلغراف الى كروغر بالمعنى المدون على الورقة . فقلت حينئذ « انى لا أوافق على هذا بوجه من الوجوه » وشاركني الاميرال (هولمان) في ذاك اما المستشار فلم يتدخل تدخلاً فعلياً في هذه المناقشة . وكنت أعلم أن وزارة الخارجية والبارون (مرشال) على جهل تام بحالة الشعب الانكليزي الروحية حاولت أن اوضح للبارون (مرشال) التأثير الذي لا بد من أن يحدثه مثل هذا التلغراف في انكلترا . وايدني الاميرال (هولمان) فيما قلته ، ولكن البارون (مرشال) لم يكن من الرجال الذين يسهل اقناعهم

وتكلم المستشار حينئذ فقال انه يجب علي بصفتي ملكاً دستورياً ان لا أعارض ارادة الرأي العام وآراء المستشارين الذين أقامهم الدستور الى جانبي . والا فمن المحتمل أن يخرج الشعب عن حده وينقلب علي ، لأن الهياج بلغ أشده في نفسه ولأنه اصيب بجروح مؤلمة في عواطف العدل التي يشعر بها وفي عطفه على الشعب (النيرلندي) . وبدأت الاشاعات السيئة تدور على

السنة الناس فيقولون ان الامبراطور (نصف انكليزي) وأنه متجه الى انكلترا سراً ، وانه بكليته تحت تأثير جدته الماسكة فكتوريا ، وان « الحالة » انكلترا يحسن بها أن تستريح قليلا لان الامبراطور يجب ان يتحرر من الوصاية الانكليزية . . . الخ

وكان المستشار يعترف بصحة اعتراضاتي ، ولكنه قال ان الواجب يقضي عليه بأن يطلب مني توقيع التلغراف باصرار خدمة للمصالح السياسية العامة ولصلاحي الشخصية بشعبى . وقد تحمل هو والبارون (مرشال) - بصفتهم مستشارين دستوريين - تبعة هذا التلغراف وما يؤدي اليه من النتائج

ونشرت (التيمس) في ١١ سبتمبر سنة ١٩٢٠ رسالة للسرا فالتين تشيرول) مكاتبتها في برلين جاء فيها ان البارون فون (مرشال) اخبره في ابان (حرب البوير) وعلى اثر ارسال التلغراف المشار اليه ان هذا التلغراف لا يعبر عن رأي الامبراطور الشخصي فانه كان عملا من اعمال الحكومة يتحمل المستشار والبارون مرشال كل التبعات التي قد تنشأ عنه

وكان المستشار يحاول أن يقطع الأُميرال (هولمان) بصحة رأيه ، وقد طلب منه أن يساعده على اقتناعي بذلك . ولكنه رفض قائلاً ان العالم الانغلو سكسوني لا يحجم عن أن يلقي تبعة التلغراف على عاتقي ويجعلني مسئولا عنه . فلا يعتقد أحد من الانكليز أن هذا التحرش أتى من المستشارين الشيوخ بل يجدون كلهم فيه نزع الامبراطور الشاب وحدته

وقد سعيت كما سعى (هولمان) أن أقنع المستشار والبارون (مرشال) بوجوب العدول عن هذه الخطوة ، ولكنهما استمرا على القول بأن الواجب يقضي علي بتوقيع التلغراف ، وانهما يتحملان تبعة النتائج التي تنشأ عنه . فلم اعرضهما أكثر من ذلك ووقعت البرقية

. وظل الاميرال فون (هولمان) يذكّرني بتفاصيل هذه الحادثة كما ذكرتها هنا حتى أواخر أيامه . وقد وقع ما كنت انتظره ، فحدث التلغراف

عاصفة شديدة في انكترا، وأمطرني الاندية الانكليزية وابلاً من الرسائل بعضها موقع بمضات سيدات من الطبقة العليا لم اكن اعرفهن . وقد تضمنت كلها الانتقادات التي يستطيع الناريء أن يتصورها . ولم يحجم موقعوها عن إهانتى شخصياً . ثم جاء دور الحافة فحملت علي حملة شديدة كلها نيمة واقراء . واكتنفت هذا التلغراف الخرافات والاوهام التي رسخت في النفوس كأنها حجة مسجلة في المحكمة . ولو أن (مرشال) ذكر في مجلس (الرخستاع) حقيقة هذا التلغراف كما ذكرها للمستتر (تشيرول) لخلت التبعة التي القيت على عاتقي في هذه المسألة وخف الانتقاد الموجه الي

مرافعة اتزاننا مع الروس والفرنسيين على انكترا

كانت حرب البوير على أشدها في فبراير سنة ١٩٠٠ وكنت حينئذ مع الاسطول بجوار (هليغولند) حيث كانت الطرادات تقوم بمناورة حربية . وبعد ما شهدت حفلة اليمين التي أداها مجندو (ويلهمهافن) تلقيت تلغرافاً من وزارة الخارجية بطريق (هليغولند) جاء فيه ان روسيا وفرنسا اقترحتا على ألمانيا القيام في وجه انكترا بينما هي مشتبكة في الخارج وعرقلة تجارتها البحرية . فنفرت من هذا الاقتراح وأمرت في الحال بأن نرفضه

وقد اعتقدت ان باريس وبطرسبرغ سييسطان المسألة في لندن بأسلوب يجعلها تعتقد أن الاقتراح الذي رفضته هو اقتراح برلين لا اقتراحهما . فابرت في الحال بطريق هاينغولاند الى الملكة (فكتوريا) والى ولي العهد (ادوارد) وأطلعتهما على ما عرض علي وكيف قابلته بالرفض . وقد ردت الملكة تشكرني شكراً جزيلاً . ورد ولي العهد (أدورد) معلناً استغرابه . ثم افهمني الملكة سراً بعد مدة من الزمن ان (باريس) و (بطرسبرغ) أبلغتاها الحادثة معلومة كما توقعت ، وذلك على أثر وصول تلغرافي اليها ، وزادت جلالتها على ذلك قائلة انها ستسر بافشاء هذه الدسيسة لحكومتها

استناداً الى البلاغ الذي أرسلته لها ، وهكذا تثبت لوزرائها اخلاص ألمانيا في خطتها ازاء انكلترا ، ولا تنسى خدمة الصديق التي أدتها لبلادها في هزم الاحوال الصعبة

سكة هربير (الطب) - (القاهرة)

وفكرة سكة حديد (بغداد)

وجاءني (سيسل رود) في تلك الاثناء لمفاوضتي في انشاء سكة حديدية وأسلاك برقية بين (الكاب) و (القاهرة) بطريق المستعمرة الألمانية في أفريقية الشرقية ، فوافقته على ذلك - بعد استشارة المستشار ووزارة الخارجية - مشروطاً استخدام المواد الألمانية في داخل المستعمرة الألمانية . وإنشاء فرع من هذه السكة الى (تابورا) . فقبل (رود) ذلك بلا تردد ، وأعرب عن شكره لألمانيا لأنها مكنته من تحقيق أعز آماله بعد ما رفض (ليوبولد) ملك البلجيك اجابته الى طلبه

وكان (رود) شديد الاعجاب ببرلين ومعاملها العظيمة التي كان يتردد اليها يومياً . وانتهى به الامر الى الاعراب عن أسفه لأنه لم يسبق له المجيء الى برلين . فيدرك أهمية قوة ألمانيا وعظمتها وما يمكنها القيام به من الاعمال العظيمة ، ويجتمع برجال حكومتها وأصحاب الاعمال فيها

وقد كان ينوي زيارة برلين قبل اغارة (جسون) ، ولكنه لقي في (لندن) ممانعة دون انقاذ فكرته . وقال (رود) انه لو استطاع في ذلك الحين ان ينال موافقتنا على مد السكة الحديدية والاسلاك التلغرافية بين (الكاب) و (القاهرة) - وهما يخرقان بلاد البوير كما يخرقان الاراضى الألمانية - لما عدت ألمانيا وسيلة لمساعدته لدى (كروغر) الذي لم يكن يريد أن يسمع بذلك

ولو تم هذا الأمر لما وقعت اغارة (جسون) ، ولما أرسل التلغراف

لشئوم الى (كروغر) . وزاد (رود) على ذلك أن هذا التلغراف لا غبار عليه ، وأنه لم يحقد علي بسببه ، لأن ألمانيا كانت تجهل سبب اغارة (جسون) والغاية المطلوبة منها ، ولأنها ظنت أن هذا العمل اعتداء ، وكان حقها أن تغضب منه

ثم قال (رود) انه لا يريد غير المساحة اللازمة من الارض لإنشاء سكته الحديدية ، وقد أعطته ألمانيا هذا الامتياز في داخل مستعمرتها ، لان طلبه هذا لم يكن مضرأ بنا ، ولذلك كان يمكنه أن ينتظر منا المساعدة التامة . وقد أكد لي أنه يجب علي أن لا أندم على تلغرافي ، وأن لا أعبأ بمحملات الصحف الانكازية

كان (رود) يقول ذلك وهو مجهل المناقشات التي سبقت ارسال التلغراف ، وقد أراد أن يخفف عني تبعته ظناً منه بأني أنا الذي أرسلته
ثم أشار (رود) علي بإنشاء سكة حديد (بغداد) ، والقيام بأعمال الري في (العراق) ، وقال لي : تلك مهمة ألمانيا كما أن مهمتي انشاء سكة حديد (الكاب) الى (القاهرة)

ولما طلبنا التنازل عن (ساموا) لألمانيا مقابل انشاء هذه السكة ومرورها في داخل أملاكنا قام (رود) يؤيد طلبنا في (لندن) بكل ما أوتيته من قوة وعزم

أما السياسة الداخلية فقد تركها البرنس (هوهنلوه) وشأنها ، على أن صلاته القديمة بأهر فون (هرتلنغ) مكنته من أن يجعل علاقاته حسنة مع النمائيكان ، وقد أظهر لطفأ وتساهلاً مع الممالك الألمانية التي عرفها تمام المعرفة في حياته السياسية الماضية ، ولكنها لم تكافئه على ذلك لان خطته شجعته على التعتت والعناد

وكان البرنس (هوهنلوه) يلجأ دائماً في كل أعماله الى وسيلة واحدة

هي التوسط والتفاهم والمصالحة . وقد لجأ الى هذه الوسيلة مع الاشتراكيين أنفسهم وفي أحوال كانت نقضي بالشدة والحزم

سباماني

وتلقى البرنس (هو هنلوه) رحتي الى الاسنانة وبيت القدس بارتياح عظيم ، وسر كثيراً من توثيق عرى الصداقة مع تركيا وكان يرى مشروع (سكة حديد بغداد) — الذي هو ثمرة من ثمار هذه الصداقة الودية — مشروع عمدين جدير بألمانيا

ووافق بمنزل هذا السرور على السياحة التي قت بها مع قرينتي وولدي في انكلترا سنة ١٨٩٩ بدعوة من جدتي الماسكة التي كانت على حافة القبر . فرغبت في أن ترى أكبر احفادها للمرة الاخيرة . فتوقع المستشار من هذه المسألة تسوية للشا كل التي أوجدها بارساله التلغراف الى (كروغر) وكان في ملاقي من جهة اخرى أن احل بعض المشاكل المهمة في ابان اجتماعي رجال الامة البريلمانية

ورغبت الملكة في منع الصحف الانكليزية من ارتكاب أية هفوة تمس بي . وكانت هذه الصحف قد عيل صبرها من حملات بعض الكتاب الالمانيين بشأن مسأله (البوير) وهي حملات لا مبرر لكثير منها . فجعلت الصحف الانكليزية ترد عليهم بمنزل لهجتهم . فاما كانت أيام زيارتي لانكلترا طلبت الملكة من السر (تيودور مارتين) أن يفهم صحافة انكلترا أن جلالتهما تريد أن تقابل حفيدها مقابلة ودية جديرة به . وهكذا كان ، فانتهدت زيارتي من غير أن يقع حادث ما ، وكانت مرضية من كل الوجوه

واجتمعت باقراطب الدولة البريطانية اجتماعات مهمة لم أشعر في خلالها بأقل اشارة الى التلغراف الذي أرسل الى (كروغر) أما جدتي فانها لم تكتم غني شدة استيائها من حرب (البوير) وتقورها

من مستر (تشمبر لن) واشتمزازها من خطة هذا الوزير . وشكرتني مرة على
رفضتي بسرعة وحزم اقتراح التدخل الذي عرضه علي الروس والفرنسيون
وأعربت لي على سرورها من إخباري إياها بذلك في الحال

وكان من السهل أن نرى مقدار حب الملكة لجيشها البديع ، وقد
فوجئت بانكساراته في بدء الحرب وبالخسائر التي تكبدها ، فكان لذلك تأثير
مؤلم جداً في نفسها

وقال المرشال الشيخ (الدون دي كامبريدج) بهذه المناسبة : « لقد
ثبت النبلاء الانكليز والضباط أنهم يعرفون أن يموتوا بشجاعة وشرف »
وكلفت الملكة حفيدها في ساعة الوداع ان يحمل لابن عمها المستشار الذي
كانت تحبه حباً جما وتدعوه « ابن العم الاعز » - عواطف حبها وشكرها.
وكانت تؤمل أن تساعد حكمة البرنس وخبرته على تعزيز الصلات الحسنة بين
البلادين

وسر المستشار سروراً عظيماً بالتقرير الذي قدمته له عن سياحتي ، لانه
كان ينتظر من هذه السباحة نتائج مرضية من كل الوجوه
على أنني كنت من جهة أخرى عرضة لملات شديد وحبها الي بعض
لصحف وبعض أنصار (البوير) . وذلك لان انيا تقصها الروح التي امتاز
بها الانكليز ، تلك الروح التي بثتها فيهم سياسة الانانية منذ عهد طويل .
فاذا نشبت المعركة فالانكليزي يسير دائماً وراء العلم . متمنلاً بقول القائل :
« لا يمكن ابدال الفارس بعد بدء السباق »

استقالته هو هنلوه

استقال البرنس (هو هنلوه) في خريف سنة ١٩٠٠ لأن اعباء المنصب
كانت ثقيلة على عاتقه المثلث بالاعوام ، ولان الخلاف المستمر بين الاحزاب
لم يكن يروقه ، ولانه كان يتضجر من اللقاء الخطب في (الرخستاغ)

وكذلك تلك الصحف - التي لا تتمثل بغير (بسمرك) - والتي تزعم أنها محافظة على تقاليد (بسمرك) - لم تكن لتسره . ولا سيما بعد ما أخرجت موقفنا كثيراً ازاء الانكليز في ابان (حرب البوير)

وقد كما نطن - عند ما وقع الاختيار على البرنس (هوهنلوه) - أن البرنس (بسمرك) لا يقيم كثيراً من الصعاب في سبيل خلفه الجديد ، ولكن هذا الظن لم يتحقق كله

نعم ، إن مصالحتي مع (بسمرك) - التي سجلت علناً بدخول البرنس الى برلين دخول الظافر ، واقامته في قصر (هوهنزلورن) القديم - قد حلت الأزمة بنوع ما . وصار البرنس أقلّ تحاملاً ، ولكن أنصاره والذين انفوا حوله لم يلقوا سلاحهم

وقد حدث - يوم ذهبت الى (فريدريخسرو) لتهنئته (بسمرك) بدخوله في سن الثمانين - أن ممثلي الشعب رفضوا الاشتراك في الاعراب عن احترامهم للشيخ الذي كان مستشاراً أولاً للامبراطورية ، وكان استمزاز البرنس (هوهنلوه) من هذا العمل عظيماً جداً ، فقد جرحه في أرق عواطفه

وماتوفي (بسمرك) وقع خبر وفاة المستشار الكبير في نفس (هوهنلوه) وقوع الصاعقة كما وقع في نفسي ، فان أسنما - كأسف الشعب الألماني كله - كان عظيماً جداً على البرنس الذي يعد من أعظم أبناء روسيا والمانيا ، بالرغم من الصعاب التي كان يقيمها أمامنا في بعض الاحيان

ولم يتمكن أحد من تحويلي عن عزمي على الرجوع من البلاد الشمالية - حيث كنت حينئذ - لاهدي بحيتي الاخيرة الى الرجل الذي كان خادماً أميناً لمليكه الشيخ ، فساعده على تحقيق الوحدة الألمانية ، والذي خدمت تحت ادارته لما كنت ولياً للعهد وفاخرت بهذه الخدمة على رؤوس الاشهاد

وقد اضطر البرنس (هوهنلوه) الى ترك الخدمة . وتنفيذ استقالته ، باصرار ولده (اسكندر) ونصائحه . لان (اسكندر) كان صاحب الحل

والعقد في منزل أبيه ، وقد لقب في بعض الاندية باقرب ولي العهد ، مع أنه كان على خلاف ما كان عليه أبوه تماماً

وكانت اعمال البرنس (هو هنلوه) في منصب المستشار تتوج بالنجاح ، فقد كسب في المناقشة التي دارت حول « القانون المدني » ، وأشرف على اصلاح « قانون العقوبات العسكري » ، وعلى تقرير « القانون البحري » وعلى ارسال حملة (فالدرس) اثناء ثورة البوكسر ، وعلى توطيد أمر (تسينغ تاو) وعلى عقد معاهدة (يانغ تسنغ)

وفي ١٥ اكتوبر سنة ١٩٠٠ استقالني فأقلته ، وكان كلانا ساعته في حالة تهيج . لأن الامر لم يكن قاصراً على انفصال مستشار عن امبراطوره . بل كان في ذلك افراق عم عن ابن أخيه

لقد كنت مغتبطاً بهذا الشيخ الذي كان وهو في الخامسة والسبعين من عمره واقفاً وقتنه وقوة العقلية لخدمة وطنه . فاما اراد أن يخرج من غرفتي صاخفي مرة اخرى ، وسألني عما اذا كانت المحبة والصدقة بينهما ستبقى كما كانت الى آخر أيامه . ان ذكرى الامير الشيخ ستبقى عزيزة عندي أبداً



الفصل الرابع

﴿ ييلوف ﴾

صلاتي السابقة بالكونت (ييلوف) — نصائحى له في خطتنا مع
'سكترا' — تحذيرى اياه من (هولستين) — احتضار الملكة
(ميكتوريا) — فكرة اتفاقا مع الانكيز علي روسيا
سفري الى (طنجة) — سقوط (دلكاه)
الحكومة اللسانية والاحزاب — اجتماع
(ييلوف) بالملك (ادورد) في (كيل)
زيارتي (ويندسر) — حديث
الدبلي تلفراف — نهاية ييلوف

صلاتي السابقة بالكونت (ييلوف)

في اليوم التالي ليوم استعفاء البرنس (هوهنلوه) تقلد الكونت (ييلوف)
سكرتير الخارجية زمام الحكم . وكنت قد اخترته خلفاً للبرنس ، لانه خير
من يصلح لهذا المنصب ، لوقوفه وقوفاً تاماً على مشاكل السياسة الخارجية
العديدة التي كانت تشتد وتزداد تعقداً يوماً فيوماً ، ولا سيما المشا كل الخاصة
بعلاقاتنا مع اسكترا . وفي الواقع انه برهن في مجاس الرخشتاغ أيضاً على كونه
خطيباً كبيراً وخصماً حاضراً الذهن . ولما لم يكن سلفه قد امتاز بهذه المزية
فان الفرصة كانت دائماً تسنح لاطهارها والاشتهار بها
ولما سمع مجلس الامبراطورية باستقالة البرنس (هوهنلوه) جاءني الكونت
(لرشنفلد) سفير بافاريا في برلين وقال لي بلهجة مؤثرة « ان الواجب يقضي
علي — اكراماً لوجه الله — بان لا أختار لهذا المنصب رجلاً من ألماني
الجنوب ، لانهم — كما أوضح لي — لم يخلقوا ليشغلوا المسكنة الاولى في برلين
حيث يجب أن يقدم الالمان سكان الشمال بطبيعة الحال ، فصلحة الامبراطورية
تقضي اذن بأن يخلف المستشار المستقيل ألماني من الشمال »

وكنت قد عرفت (ييلوف) من زمن طويل : عرفته بما أبداه من النشاط في (رومة) حيث كان سفيراً ، ثم عرفته بأعماله وهو سكرتير للخارجية ، وقد سبقت لي زيارته مراراً في بيته ، وجرت لي معه مباحث طويلة في حديقة منزله . ثم توثقت عرى الصداقة بيننا في ابان سياحتي في الشرق : فقد صحبني الى تلك البلاد ، ومهد لي - بالاتفاق مع السفير البارون (مرشال) - سبل التعرف بولاية الامور الترك . وهكذا كنت أعرف المستشار الجديد وكان يعرفني ، فلا بد والحالة هذه من ان تكون صلاتنا صريحة لا غموض فيها ، لاننا كنا منذ سنوات ننظر الى المشاكل السياسية بعين الحذر ، ونبحث في جميع المسائل والاحتمالات . وكنا من عمر واحد تقريباً ، في حين ان أسلافه كانوا بمنزلة أجدادى . فهو اذن «أول مستشار شاب» للامبراطورية . وهذا ما يسهل لنا طريق العمل المشترك

ولم يكن يمضي يوم طول مدة اقامتي في برلين من غير أن أقضي في صباحه نزهة طويلة مع ييلوف في حديقة قصر المستشار ، فكنا نصدر الاوامر ، ونبحث في جميع مشاكل اليوم . وكنت أدعو نفسي احياناً الى تناول الطعام على مائدته . وقد كان الكونت وامرأته يقابلانني بأعظم مظاهر الاكرام وحسن الضيافة ، فأجتمع عندهما دائماً بنخبة من الرجال الذين يحسن الكونت اختيارهم . وكان هو رجلاً لا يباري في ادارة الكلام ، والبحث في جميع الشؤون المختلفة بروح واحدة وعلى نسق مطرد . لذلك كان سروري يتجدد حينما كنت اجتمع به ، لان له فكراً ثاقباً يعزز شخصيته الكبيرة . وكنت أسراً أيضاً بأن أجتمع عنده بالاساتذة ورجال العلم والفن فضلاً عن الموظفين ورجال السياسة

وكنا نتبادل الآراء المهمة في ذلك الجو النقي الذي لم يكن فيه شيء من مظاهر الرفعة ولا من مزاسم الحكومة والادارة . وكان الكونت بارعاً في رواية القصص والنوادر ، تلك النوادر التي استخلصها من حياة قضاها

بالمطالعة . وكان يرويها بلغات مختلفة . ويجب أن يذكر السنوات التي قضاها
في المناصب السياسية ولا سيما في بطرسبرغ

وكان والد الكونت صديقاً حميماً للبرنس (بسمرك) ومساعداً من أقرب
مساعديه والعاملين معه . وقد بدأ (بيلوف) الشاب حياته السياسية تحت إشراف
«المستشار الكبير وترعرع بين مبادئ (بسمرك) وتقاليده التي أثرت فيه
تأثيراً كبيراً ، ولكنها لم تغلّ يده ، بل ظل محافظاً على استقلاله

نصائحى للكونت بيلوف

في الخطة التي يجب أن تتبع إزاء انكلترا

وقد سألتى (بيلوف) في أول اجتماع عقدته معه بعد ما صار مستشاراً : ما
هو رأيي في الخطة التي يجب اتباعها للسير مع الانكليز على أحسن أسلوب ،
وجعل علاقاتنا حسنة معهم . فقلت له «رأى هو ان الصراحة التامة ضرورية
في مفاوضاتهم . فالانكليزي عنيد في الدفاع عن مصلحته ووجهة نظره بصراحة
تبلغ حد الغلظة . لذلك لا يستغرب معاملة الآخرين له بالمثل بل يفهمها تماماً .
فلنحذر من أن نعد الى السياسة أو الى الحيلة في معاملة الانكليز . لان هذه
الخطة لا تنجح الا مع اللاتين والصقالبة . أما الانكليزي فتزيده حذراً ، وتجعله
يعتقد بأن مخاطبه لم يخلص له ، وأنه ينوي خداعه والتلاعب به . ومتى تسرب
الشك الى قلب الانكليزي فن المحال ان يتم معه عمل رغم عباراته الجميلة الخالصة
ومبالغته بالتساهل والتلطف . لذلك لم استطع أن أنصحه — وهو مستشار
الامبراطورية — الا باستعمال الصراحة في سياسته مع انكلترا

وقد نوهت بهذه النصيحة تنويهاً شديداً لاني رأيت ان المرونة السياسية
التي امتاز بها الكونت (بيلوف) تدفعه الى المراوغة . وقد أصبحت هذه
المرونة طبيعة ثانية فيه

تحذيرى الكونت بيلوف

من (هولستين)

وانتهزت فرصة هذا الكلام لانذر المستشار بوجوب الحذر من (هولستين) ولكن (بيلوف) عمل كثيراً واضطر أن يعمل كثيراً مع (هولستين) بالرغم من هذا الانذار الذي لم يكن الا تكرراراً لما قاله (بسمرك) لي . فقد استطاع (هولستين) - وهو الرجل العجيب - ان يزيد ثقة وزارة الخارجية به تدريجاً ولا سيما بعد ذهاب (بسمرك) واهمال هذه الوزارة اهمالاً نسبياً ، ثم تمكن من ان يحتفظ بمركزه مع ثلاثة مستشارين مختلفين كانوا يرون أنفسهم في حاجة ماسة اليه .

ولا ريب في ان (هولستين) كان ممتازاً بذكاء عجيب تخدمه ذاكرة مدهشة . وكانت له موهبة خاصة في وضع الخطط السياسية . وقد أجمع الموظفون الذين هم أكبر منه سناً على عدّه حامل تقاليد (بسمرك) ورافع لوائها في عهد الامبراطور الشاب ، وهذا هو السبب في ماكان له من النفوذ . وكانت قيمته الحقيقية محصورة في وقوفه على احوال الرجال الذين يشغلون المناصب ويديرون دفة السياسة . فاصبح قوله الفصل في مسائل الترقية ، وبات مستقبل الموظفين الشبان في قبضة يده . فمن السهل والحالة هذه ان تفهم سر نفوذه في الوزارات كلها . وكان في الوقت عينه يحاول ان يكون له الرأي القطعي في ادارة السياسة الخارجية حتى عد في بعض الاحيان المنظم الاكبر لجميع الشؤون الدولية والسياسية

وأهم ماكان يدعو الى الارتياح في (هولستين) اجتنابه كل ما يؤدي الى احتمال المسؤولية ، بينما يعمل لزيادة نفوذه من وراء ستار ، ولا يقبل منصباً ذا مسئولية . ثم انه لم يرغب في رتبة ، ولا في ارتقاء وجاه . فهو يؤثر دائماً العمل وسط منطقة من الاسرار ، والبقاء في الظلام

وخلوت ان أتعرف به فلم أنجح ، ودعوته مراراً الى مائدتي فلم يجب الدعوة ، ولم يوافق على تناول الطعام معي الا مرة واحدة في مكتب وزارة الخارجية ، وكان ذلك بحالة غريبة اذ حضر الطعام بلباس (الردنفوت) مع أن سائر الحاضرين كانوا بلباس (الفراك) ، واعتذر بعدم وجود ملابس عنده

وكانت الخطة المربية التي يابجأ اليها في اعماله لالقاء التبعة عن عاتقه ظاهرة حتى في الأسلوب الذي كان يكتب به تقاريره . ولا ريب في ان هذه التقارير كانت فتاة ولكنها تتضمن من التحفظات والعبارات التي يمكن تأويلها ما يجعلها شبيهة بتنبؤ السكهان . فاذا استندت الحكومة اليها في اعمالها وقراراتها ثم رأى المرفون (هولستين) ان ينتقدها فانه لا يعدم وسيلة لاقناع سامعيه بأن ما قاله في تقريره كان عكس ما فهم منه على خط مستقيم

وكننت أرى نقوذ هذا المستشار المعتزل للمناصب الرسمية ذات المسؤولية لا يخلو من الخطر . وقد جرى لي مراراً — ولا سيما في عهد (ريشتوفن) — أن سفيراً أجنبياً كنت أنصحه بمراجعة الخارجية بعد بحثه معي في الشؤون السياسية فيقول لي السفير الأجنبي « سأفاوض بذلك صديقي هولستين »

ان اقدام موظف في الخارجية على مفاوضه السفراء الا جانب خلصة عن رئيسه كان تطرفاً ، ولكن منح السفراء لقب « صديقهم » لهذا الموظف هو من الأمور التي تعدت كل حد

وقد نشأ عن ذلك ان (هولستين) توصل الى ادارة قسم من السياسة الخارجية . وكان يصنى للمستشار في بعض الأحيان . اما ما يقوله الأمبراطور أو يفكر فيه فكان عديم الأهمية في نظره . واذا أحرزت البلاد فوزاً سياسياً عاد الفضل في ذلك للخارجية ، أما اذا ساءت الحال فالخطأ كله يقع على « الامبراطور الشاب المتحمس »

وانتهى (بيلوث) أخيراً بأن اعتقد أن فون (هولستين) لا يمكن الاستغناء عنه . وقد استمر على العمل مع هذا الرجل الخطر الى أن رأى أنه لم يعد في

طاقته أن يتحمل ضغطه وتشديده على جميع الناس . وحينئذ قام الهرفون (تشير شكي) وزير الخارجية وخدمنا خدمة كبيرة في انقاذنا من هذا الموقف الصعب . فاني لما سألته رأيه في الأمر قال لي ان استبقاء الهرفون (هولستين) غير ممكن لأنه يعمل كل شيء في وزارة الخارجية ، ويحاول أن يخرج به منها ، وأن يقيم الصواب في وجه المستشار . فأمرت حينئذ بالاستغناء عن (هولستين) ، وكان المستشار مريضاً ولكنه وافق على هذا القرار بعد شفائه . اما الهرفون (هولستين) فقد قدم استقالته ووضع نفسه في الحال تحت تصرف (هاردن) لمساعدته في حملته ضد الأمبراطور وخبأت الأقدار للكونت (ييلوف) سنة ١٩٠١ فرصاً عديدة مكنته من الظهور في مفاوضة انكلترا . فانه في أحوال مختلفة ضحى المبدأ الذي كان يعزوه بسمرك وهو « مبدأ وضع حديدتين في النار » أي الاتفاق مع دولة من الدول اتفاقاً ديباً مع المحافظة على الصلات الحسنة بروسيا . وكان يشد أزره في هذه الخطة جميع معارضي « البسمركيين »

امضار المالكة فكتوريا

بينما كانت (برلين) تحتفل بعيد التتويج المئوي الثاني احتفالاً باهراً علمت ان صحة الملكة فكتوريا تبعث على القلق . فأسرعت الى جدتي وهي تعالج سكرات الموت ، وكنت في هذه الرحلة الى انكلترا مع خالي دوق كونوت الذي كان يمثل انكلترا في الاحتفال الجاري في (برلين) وكان الدوق أعز أنجال المالكة وصهرراً للبرنس (فريدريك شارل) وصديقاً شخصياً لي فقباني أمير الغال (ولي العهد) والأسرة المالكة كلها مقابلة ودية في (لندن) . وبينما كانت عرتي تسير الهوينا من المحطة خرج رجل بلباس بسيط من وسط الجمهور الصامت وتقدم الى نافذة العربة ورفع قبعته ثم قال « شكراً لك أيها الأمبراطور » . والتفت لي حينئذ ولي العهد الذي ملك فيما بعد باسم

(ادورد السابع) قائلاً : « هذا ما يفكر فيه جميع الذين تراهم الآن أمامك ، فهم لا ينسوف أبداً أنك جئت اليهم » . على أنهم نسوا ذلك . ونسوه بسرعة مذهشة

. ولما لفظت الملكة أنفاسها الأخيرة بين ذراعيّ - بكل سكينه وهدوء - خيل الي أن ستاراً ألقى على كثير من تذكارات صباي . فان وفاتها كانت خاتمة فصل من تاريخ انكترا ، ودليلاً على حدوث شيء من التغيير في الصلات الانكليزية الألمانية

على أيّ سميت في خلال ذلك للاتصال بكبار رجال الأمة البريطانية بقدر ما كانت الأحوال تسمح لي ، فأدركت أن الرأي العام هنالك عاطف علينا وملائم لنا . وان الناس يعربون جهاراً في لندن عن رغبتهم في توثيق عرى الصداقة مع ألمانيا

وفت أنا والملك (ادورد السابع) في الوليمة التي أقيمت وداعاً لي بكلام لم نكن مستعدين له ، ولكن لهجته والافكار التي تضمنها كانت ودية جداً ، فوقع وقعاً عظيماً في نفوس السامعين . وتقدم اليّ سفير انكترا في (برلين) بعد الوليمة ، وهز يدي قائلاً : « ان خطبة جلالتم أحدثت أعظم تأثير في قلب كل انكليزي ، لأن العبارات التي تضمنتها بسيطة ومشربة بالاخلاص كما يحبها الانكليز . فمن الواجب نشرها في الحال ، لأن صداها سيكون عظيماً في البلاد التي قابلت تشريفكم بالشكر ، ولأنها لا تخلو من فائدة للبلادين » . فقلت : « على الحكومة البريطانية وعلى الملك أن يقررا ذلك ، أما أنا فليس لدي أقل اعتراض شخصي » . ولكن هذه الخطبة لم تنشر ، فلم يطلع الشعب البريطاني على العبارات التي فُت بها حينئذ ، وكانت مظهرًا صحيحاً لعواطف وأفكاره . وقد تدمر هذا السفير نفسه في حديث جرى لي معه في برلين من هذه الحادثة ، ولكنه لم يستطع أن يبين لي أسبابها

فكرة اتفاق ألمانيا مع الانكليز

وأتاماً لملاحظاتي المتعلقة بأيام إقامتي في انكلترا أقول : ان بعض الصحف الألمانية انتهجت يومئذ منهجاً غير ملائم لما يترتب عليّ من الواجبات تجاه أحزان البيت المال في انكلترا والشعب البريطاني ، ولا موافق لمقتضيات السياسة وروابط القرابة

وعند عودتي الى ألمانيا أطلعت المستشار على ما كان لتلك الرحلة من الأثر في نفسي ، فأعرب لي عن ارتياحه الى النتائج التي وصلنا إليها . وتداولنا ملياً في هذا الموضوع ونحن في (هامبورغ) باحثين في الثمرات التي يمكن اجتناؤها من هذه الرحلة . وكان من رأيي ان نسعي على كل حال للوصول الى اتفاق حميد ، لأنني لم أكن في ذلك الوقت اتوقع امكان عقد التحالف الذي ترجح عندي فيما بعد

وبينما انا في (هامبورغ) في ربيع سنة ١٩٠١ دخل عليّ الكونت (مترنج) — وكان مندوباً من جانب وزارة الخارجية لملازمي — فأبلغني مذكرة وردت من مستر (تشمبرلن) يسأل فيها عما اذا كانت ألمانيا ترغب في عقد اتفاق مع بريطانيا العظمى أم لا . فكان أول خاطر تبادر الى ذهني هو ان نسأل الانكليز عن هذا الاتفاق «تجاه من» يريدون ان يكون . وقد ورد علينا الجواب من (لندن) وفيه تعريض بروسيا وموقف التهديد الذي هي واقفة فيه تجاه (الاستانة) و(الهند) . فبادرت في الحال الى تذكير (لندن) بالأواصر التقليدية والحرية التي بين الجيشين الألماني والروسي وبالقرابة التي بين البيتين المالكيين فضلاً عن ذلك فاني أشرت الى ماسيكون من انحياز فرانسأ الى جانب روسيا ، وما ينشأ عن ذلك من ظهور خطر الحرب بين الفريقين . ثم ان ألمانيا قد اتحدت مع فرنسا وروسيا في الشرق الأقصى (١٨٩٥ ، شيمونوزاكي) ، وليس هنالك سبب معقول يدعو الى احداث اختلاف بيننا وبين روسيا

وفي الواقع ان جيش روسيا في زمن السلم كان ضخماً جداً ، وكانت حدودنا في شرقي بروسيا مهددة بالخطر ، ولم يكن في استطاعة انكلترا ان تحول دون استيلاء روسيا على املاكنا الشرقية ، لان اسطولها لا يقدر على القيام بعمل مفيد في بحر البلطيق كما انه ليس في امكانه الدخول الى بحر الشمال . وعلى هذا فان العبء الذي يلتقى على عاتق المانيا كان عبئاً ثقيلاً جداً ، وهو مدعاة للخطر حتى لو لم تتدخل فرنسا في الأمر

وكان فيما أجاب به (تشمبرلن) على هذه الملاحظات أن الحاجة ماسة الى عقد اتفاق وثيق العرى ، وبديهي أن انكلترا تتعهد في هذا الاتفاق بأنها ستشد أزرها وتنتصر لنا . فأجبت على ذلك بأني لا أعير هذا الاتفاق جانب الرضى والقبول الا اذا صادق عليه البرلمان الانكليزي . وكنت أعلم أن البرلمان يهون عليه اسقاط الوزارة البريطانية لنقض مثل هذا الاتفاق . أعني أننا كنا ننظر الى اقتراح مستر (تشمبرلن) لأول وهلة كأنه اقتراح شخصي ، ولكن مستر (تشمبرلن) صرح باستعداده لتحقيق ما نطلبه من موافقة البرلمان على الاتفاقية . وانه ليس على (برلين) سوى التوقيع . ثم لم تبق بعد ذلك حاجة الى توقيعنا . لأن المفاوضات وقفت عند هذا الحد . وباتت فكرة الاتفاق مع الانكليز في خبز كان

وبعد زمن قريب عقدت انكلترا اتفاقاً مع اليابان (هاياش) . وعلى أثر ذلك نشبت الحرب بين اليابان والروس . فقفزت روسيا بعدها من الشرق الى الغرب ، تاركة شئون الصين وأمور البحر المحيط ، ومنصرفه الى الاشتغال بمشاكل البلقان والاسانه والمآرب في الهند . فانطلقت يد اليابان في (كوريا) و(الصين)

السفر الى طنجة

سافرت الى (طنجة) سنة ١٩٠٥ . ولم أكن أرغب في ذلك ولكن القدر قضى به . وسأبسط للقراء كيف تقرر

عزمت في آخر مارس على أن أفعل ما فعلته في العام السابق ترويحاً للنفس فأقوم بسياحة في البحر المتوسط على باخرة من البواخر التي تمرّ بشفر (نابولي) انتقيتها من مرناً (كوكسهافن) . وقد أشار علىّ (بالين) بأن أختار الباخرة « هنبورغ » وأن أصطحب عدداً من المدعويين لأن الباخرة كانت خالية من الركاب . فدعوت حينئذ كثيرين من الرجال بينهم المستشار الخاص « ألهوف » والأميرال (منسنغ) والكونت (بوكار) والسفير فون (قارن بوهلر) والاستاذ (شيان) والاميرال (هولمان) وغيرهم

وماكاد يعلن خبر سفري حتى كتب اليّ (ييلوف) يقول : ان القوم يعدون أنفسهم سعداء إذا رأوني في (لشبونة) . وقد نصحتني بالنزول في هذه المدينة وبزيارة القصر الملكي فيها ، فوافقت

ولما دنا موعد السفر أخبرني (ييلوف) ان زيارتي لمدينة (طنجة) من الأمور المرغوب فيها ، لانها تعزز موقف السلطان ازاء الفرنسيين . وقد رفضت ذلك ، لعلني بأن مسألة (المغرب الاقصى) برميل من البارود الخطر ، وأن هذه الزيارة ربما يكون ضررها أكبر من نفعها . ولكن (ييلوف) أعاد الكرة عليّ مراراً من غير أن يستطيع اقناعي بضرورة هذه الزيارة وفائدتها

ودارت مناقشات كثيرة بشأن هذه الزيارة بعد سفر الباخرة بيني وبين الهرفون (شوهن) الذي كان يصحّني بصفة ممثل للخارجية ، الى ان اتفقنا في النهاية على استحسان تركها . وقد أبلغت ذلك الى المستشار بالتلغراف من (لشبونة) ، ولكن (ييلوف) كرر طلبه بالحاح شديد رغباً اليّ في أن أراعي تيار الرأي العام في الأمة وفي (الرخستاغ) ولا سيما بعد أن قبلت هذه

الفكرة بحماسة نادرة المثال . لذلك اضطرت الى زيارة (طنجة) . وقد وافقت عليها وأنا قلق ، لاني خشيت في تلك الاحوال أن تعدها (باريس) تحرشاً ، وان تقدم (لندن) على شد أزر فرنسا اذا وقعت الحرب . وكنت أتهم (دل كاسه) بأنه يرغب في استعمال (المغرب الأقصى) وسيلة للحرب ، وخفت أن يستفيد في سياسته هذه من زيارتي (طنجة)

على أن هذه الزيارة قد وقعت في جهة أمام طنجة ، ولم يحجم عن الاشتراك في الاحتفال بها الفوضويون من ايطاليا وجنوبى فرنسا ولا النشالون والافاقون وكانت جماعة من الاسبانيين في جهة من الشاطيء تلوح بالاعلام وتهتف هتافاً عالياً . وقد قال لي مندوب الأمن العام الذي كان يصحبني ان هؤلاء الناس من الفوضويين الاسبانيين

ولما وصلت الى (جبل طارق) ظهرت لي بوادر التأثير الذي أحدثته زيارتي (طنجة) . فقد استقبلني الانكليز استقبالاً بارداً مشمولاً بالرسميات ، وهو يختلف اختلافاً عظيماً عن الاستقبال الودّي الذي أعدّوه لي في العام السابق . فأيقنت أن كل ما كنت أتوقعه بدأ يتحقق . ففي (باريس) اشتد الألم وازداد الحقد ، وجعل (دل كاسه) يعمل للحرب ، ولم يفشل في مساعاه الا لأن وزيرى الحربية والبحرية أقنعاه بأن فرنسا لم تكن مستعدة

ثم تحققت أني كنت على صواب فيما كنت أخشاه ، وذلك عند تلاوتي الحديث الذي دار بين الميسو (دل كاسه) وأحد محرري جريدة (الغلوا) فقد أعلن الوزير في هذا الحديث للعالم الذي استولت عليه الدهشة أن الحرب لو أعلنت لكانت انكاثرا قد انضمت الى فرنسا وشدت أزرها فيها . وهكذا كان ممكناً يومئذ أن يلتقوا على عاتقي وأنا في الحالة التي كنت فيها تبعه اعلان حرب عامة كادت أن تنشب من جراء زيارتي (طنجة) ، تلك الزيارة التي أكرهت عليها

ان التفكير والعمل بمقتضى أحكام الدستور هما في أغاب الأحيان من

أصعب واجبات الملك ، لأن التبعة لا بدّ من أن تلقى على عاتقه في نهاية الأمر (١)

وأعلنت جريدة (الماتان) الباريسية في أكتوبر سنة ١٩٠٥ أن الميسو (دلكاسه) صرح في مجلس الوزراء بأن انكثرا كانت قد تمهدت في حالة اعلان الحرب بأن تنزل مئة ألف جندي في (هولستين) وان تستولي على (قنال الامبراطور ولهم) ثم جددت هذا التمهد مرة أخرى فيما بعد واقترحت أن يسجل على الورق . ولكن (جورس) النائب الشهير الذي قتل سنة ١٩١٤ بتأثير سياسة (ايزفولسكي) اطلع على هذا الاقتراح قبل التصريح الذي فاه به الميسو (دلكاسه) وذكرته جريدة (الماتان)

سقوط دلماس

ويعود معظم الفضل في سقوط (دلكاسه) وتعيين (روقيه) الى تفوذ أمير (موناكو) . فان هذا الأمير اجتمع بي في خلال « أسبوع كيال » وجرت له مفاوضات كثيرة معي ومع المستشار وكثيرين من رجال الدولة . وقد اقتنع بأننا نرغب نرغبة أكيدة في الوصول مع فرنسا الى اتفاق يمكننا من أن نعيش معاً براحة وسلم الواحد الى جنب الآخر . وكانت صلات الأمير بالسفير (البرنس رادولين) حسنة فأفرغ قصارى جهده للتقريب بين فرنسا وألمانيا . وقد اعتقد هو أيضاً بأن (دلكاسه) خطر على السلم العام . وكان يتوقع — كما صرح مراراً — قرب سقوط (دلكاسه) وتعيين (روقيه) خلفاً له وكان روقيه هذا رجلاً سياسياً هادئاً يرغب في الاتفاق مع ألمانيا . وقد عرفه أمير (موناكو) شخصياً . لذلك عرض على سفير ألمانيا توسطه في هذا الشأن

(١) ان (غليوم الثاني) على صواب في هذه الشكوى اذا سلكت الملوك سلوكه الذي أدى الى ايثار الامة الجرمانية الحكم الجمهوري . أما اذا التزموا خطة ملوك الانكليز وجروا على دستورهم في توسيد كل أمر الى أهل الاختصاص به فان المسئولية تقع حينئذ على رجال العمل من المسئولين ، ويبقى للملوك المقام الاعلى في قلوب الامة وفي انظمتها

ولقد سقط (دلكاسه) بالفعل ، وعين (روفيه) خلفاً له فقامت حينئذ بعمل نال مساعدة أمير (موناكو) كما كنت أتوقع . وقد أبلغت المستشار أنه يجب تمهيد السبل لتقرب من فرنسا ، وأوصيت البرنس (رادولين) — الذي تلقى مثل هذه التعليمات من (برلين) — بأن يحسن الاستفادة من « مركبة » روفيه ليحول في المستقبل دون كل نزاع يحتمل وقوعه بين البلدين ، وزدت على ذلك أن أمير (موناكو) الذي يعرف (روفيه) معرفة تامة يشير على السفير بكل ما فيه فائدة . وحينئذ سافر البرنس (رادولين) لتنفيذ مهمته ، وقلبه يطفح سروراً ، ودلائل العزم والنشاط على بحياه

وسارت المفاوضات سيراً حسناً في بدء الأمر ، فعظم رجائي بقرب الوصول الى نتائج عظيمة تمحو الأثر السيئ الذي تركته زيارتي (طنجة) ، وازدادت أملاً باتفاق يعقدين الفريقين

وقد دارت المفاوضات في تلك الأثناء بشأن (المغرب الأقصى) ثم انتهت . وقبل أن تتمكن من عقد (مؤتمر الجزيرة) الذي اقترحه الكونت (ييلوف) بكتاب منه الى جميع الدول صاحبات المصالح اضطررنا الى بذل مجهودات عظيمة أسفرت في نهاية الأمر عن النتيجة التالية وهي أن المادة ١٧ من (معاهدة مدريد) بشأن الأمة الأ أكثر تفضيلاً في المعاملات تبقى أساساً للعمل ، وتستطيع فرنسا أن تنفذ في (المغرب الأقصى) الإصلاحات اللازمة بشرط موافقة الدول الموقعة على (اتفاق مدريد)

وقد اتجهت الانظار الى هذه الحوادث تاركة المفاوضات مع (روفيه) في المنزلة الثانية من الأهمية

الحكومة الألمانية والاحزاب

لقد كنت متحداً في الرأي مع المستشار على أن الواجب في السياسة الداخلية هو تنظيم الروابط بين الحكومة وبين الاحزاب المختلفة في (الرخشتاغ) ، لأن الفوضى كانت قد ذرّ قرنهما على عهد (هوهنلوه) فأصبح من الضروري بوجه خاص استرداد الحزب المحافظ الذي استماله أنصار (بسمارك) الى جانب المعارضين

ان المستشار قام بهذا الواجب بصبر وثبات ، ونجح في تحقيق الاتحاد المشهور الذي نشأ عن خسران الاشتراكيين خسراناً مبيناً في الانتخابات وكان بين المحافظين رجال كثيرون لهم ارتباط بالقصر وبني مباشرة ، فكان من الميسور لهذا الحزب — أكثر من سائر الأحزاب — أن يحصل على المعلومات الكافية عن أغراض السياسة وغيرها ، وكان في استطاعتهم أيضاً أن يخاطبوني في موضوع اقتراحاتي قبل ان تفرغ هذه الاقتراحات في صيغة لمشروعات القانونية ؛ ولكنني لم أشعر منهم بحسن القصد الذي كان يجب ظهوره في هذا الشأن . ولعله قد كان في الامكان التفاهم مع المحافظين على مشروع (قنال ميتيالاّند) الذي انتقدوه ، لو أنهم ناقشوني فيه بحرية . وكذلك كان من الممكن الاتفاق معهم على شئون في المنزلة الثانية من الأهمية كالكنيسة العظمى ودار الأوبرا اللتين أردت انشاءهما بسبب ميلي الى الكنيسة والى الفنون . ولكنني اذا قلت « ان التفاهم مع المحافظين من الأمور الصعبة » لا أكون مفصحا عن شيء جديد . ان المحافظين بما لهم من الوظائف التقليدية في الحكومة صاروا ذوي تجربة واصحاب رأي صائب . وان لهم خطة ثابتة في السياسة وشئون الحكومة . ومنهم ظهر كبار رجال الحكومة ، وحكماء الوزراء ، والمهاورون من الضباط والموظفين . اذن فتقة رجال هذا الحزب بأنفسهم لم تكن عبثاً . وان صداقتهم للبيت

المالك لا تنزعزع ، وان الامبراطور والامبراطورية مدينان لهم بالمؤازرة والتعاضيد . ولكنهم مفرقون في التقيد والاحتفاظ ، وما اشد بطئهم في مسيرة الدواعي العصرية . واذا عرض مظهر من مظاهر الارتقاء يجعلونه موضوع مناقشة شديدة ، حتى لو كان له مساس بهم مباشرة ، ولا غرو فان باضيمهم يدل على حاضرهم الذي من هذا القبيل

انا اذا قلت « ان الاتفاق مع المحافظين من أصعب الأمور » أعرف أنهم هم أيضاً يقولون مثل ذلك عني : فانا موافق لهم من جهة تقاليدي ، ولكني من جهة السياسة لم أكن محافظاً . أي انني كنت نصيراً للمحافظة التي تلائم الترقى ، ولا أزال كذلك حتى الساعة . فطريقتي هي الاحتفاظ بتقاليدنا الحيوية ، والغاء القيود التي أبلأها القدم ، والاستفادة من كل جديد اذا كان مفيداً

لقد كان من دأبي — اذا تناقشت مع أحد في مشروع من المشروعات — الجنوح الى التصريح بالحقائق مهما كانت مرّة ومؤلمة . فالحقيقة كان لها المقام الأول عندي ، وكان يسرني مفاوضة الرجال مباشرة ، وكنت على استعداد لذلك في كل وقت

ومع كل ما تقدم فان ما حدث من الاختلاف بيني وبين المحافظين لم ينسني قط ما قام به بعض رجالهم من الخدمات نحو بيت (هوهنزولرن) وحكومة (بروسيا) والامبراطورية الألمانية

وبعد فان (ييلوف) قد نجح في خطته ، فجمع حوله المحافظين والاحرار ، وألف أكترية ساحقة من الاحزاب التي تؤيد الحكومة . وقد أظهر بذلك مقدرة الفائقة ، وحنكته السياسية النادرة ، وخبرته بأحوال الرجال ، فاستحق اعجابي واعجاب الأمة ، وزادت ثقتي به زيادة عظيمة

وقابلت (برلين) فشل الاشتراكيين في الانتخاب بأعظم مظاهر الابهام ، وأقيمت مظاهرة امام القصر في تلك الليلة لا يمكن ان أنساها ما حييت . وقد

أحرق المتظاهرون بسيارتي ، فاضطرت ان اسير بها الهوينا ، وان اشق طريقاً بين الجمهور الذي اخذ يتدفق على (بوستغراتن) ، واكرهنا انا والامبراطورة على الخروج الى شرفة النصر امام هتاف الهاتفين وتصفيق المصفين

اجتماع (بيلوف) بالملك (ادورد السابع)

في (كييل)

كان المستشار حاضراً لما زارني الملك (ادورد السابع) في (كييل) • وكان الكونت (سيكندورف) رئيس ديوان (الامبراطورة فريدريك) في جملة المدعوين • وقد عرفه الملك (ادورد) مدد زمن طويل في ابان زيارته الكثيرة لانكلترا ووثق به ثقة خاصة . لذلك كلفه صديقه (بيلوف) ان يمهده له السبيل لمقابلة الملك

ووقعت هذه المقابلة على ظهر اليخت الملكي الانكليزي بعد مأدبة دعينا اليها انا والمستشار ، فظل الرجلان معاً مدة طويلة في ساعة التدخين • وبسط لي (بيلوف) خلاصة ما دار في هذا الاجتماع • فانه لما وصل في حديثه مع الملك الى ذكر التحالف بين انكلترا والمانيا افهمه جلالته ان هذا التحالف غير مفيد في نظره لعدم وجود ما يحتمل على التناذر والعداء بين البلادين • وقد كان هذا مظهرأ من مظاهر « سياسة الخلق » الانكليزية التي ظهرت فيما بعد بمظهر جلي ألحق بنا ضرراً عظيماً في (مؤتمر الجزيرة) • ولا ريب في ان الخطة الصريحة التي نهجتها انكلترا في شد أزور فرنسا ومعاكسة المانيا كانت من الخطط التي رسمها الملك (ادورد) نفسه • وهو الذي اعطى السر (ماكزري والاس) — الذي انتدبه ممثلاً له في مؤتمر الجزيرة — تعليمات قطعية لتنفيذ حق المراقبة • وقد افهم السر (ماكزري والاس) بعض معارفه ان ارادة الملك هي مقاومة المانيا مقاومة شديدة وشد أزور فرنسا في كل حال •

ولما قيل له ان الاتفاق ممكن مع المانيا على بعض الشئون ، واذ التحالف معها ربما لا يكون صعباً ، اجاب ان الواجب يقضي قبل كل شيء بمراعاة (الاتفاق الانكليزي الروسي) فاذا « ضرب بهذا الاتفاق عرض الحائط اذنت حينئذ ساعة التسوية مع المانيا » • على ان هذه « التسوية الانكليزية » لم تكن في حقيقة الأمر الا (خنق المانيا)

زيارتي (ويندسر)

سافرت انا والامبراطورة الى (ويندسر) بدعوة الملك (ادورد السابع) في خريف سنة ١٩٠٧ ، فاستقبلتنا الاسرة المالكة الانكليزية استقبالاً ودياً جداً . ولم يقع شيء ينفر منه الذوق طول مدة هذه الزيارة . ثم ذهبت للاستراحة في قصر (هاي كليف) للجنرال (ستورت وورسلي) وهذا القصر قائم على شواطئ انكلترا الجنوبية

وكان المستشار — الذي قابل دعوتي الى انكلترا بارتياح عظيم — قد نحث معي طويلاً قبل سفري في الوسائل التي يجب التوصل بها للتفاهم مع انكلترا ، وعرض علي آمالاً كثيرة ، ومشروعات مختلفة ، طاب الي أن أسترشد بها ، وأن لا أهملها في مباحثي مع الانكليز • وقد سنحت لي الفرص في ابان وجودي في انكلترا للبحث في هذه المسائل المعدة من قبل ، ونقل أمانى المستشار الى الذين وجهت اليهم • وكنت أرسل نتيجة مفاوضاتي الى (برلين) بالبرقيات الرقية ، وأتلقى من المستشار برقيات سرية مثلها تؤيد عملي ، فأبرزتها في المساء بعد تناول طعام العشاء الخاصة أصحابي الذين رافقوني ، فقرأها كبير الامناء الكونت (اولنبورغ) والبرنس (ماكس ايجون فورستنبرغ) وشاركانى في سروري من موافقة المستشار

ولما عدت من انكلترا قدمت للمستشار تقريراً عاماً عن كل ما جرى ، فشكر سعيي الشخصي لتحسين الصلات بين البلدين بمثل هذا النشاط العظيم

الحديث مع « الديلي تلغراف »

وقعت المشكلة التي أطلق عليها اسم « مشكلة الحديث » بعد سنة من هذا التاريخ . فقد نشر الحديث في جريدة (الديلي تلغراف) . وكانت الغاية منه لما أذنت بنشره تحسين صلاتنا بانكلترا • وقد ارسلت مسودته للمستشار بواسطة الهرفون (جنيش) ممثل الخارجية لدرسها وتمحيصها . ووضعت على بعض فقرات منها اشارات تدل على انها زائدة وينبغي حذفها ، ولكن هذه الفقرات لم تحذف ، لتقصير بدا من وزارة الخارجية في ابان العمليات التي أجريت لهذه الوثيقة حسب الأصول

أثار الحديث عاصفة السحف ، وتكلم المستشار في (الرخستاغ) ، ولكنه لم يدافع عن الامبراطور — المعرض للانتقاد — الدفاع الذي كنت أنتظره ، بل اعلن انه سيتخذ التدابير اللازمة في المستقبل لمنع السياسة الشخصية التي ظهرت الرغبة فيها في السنوات الاخيرة • وقد نشر حزب المحافظين حينئذ في الصحف كتاباً مفتوحاً الى الملك يعلم الجميع فواه

وكنت في ابان هذه الحوادث في (إكارستو) عند الارشيدوق (فرانسوا فرديناند) ولي العهد ثم في (فينه) حيث زرت الامبراطور (فرانسوا يوسف) وقد انتقد كلاهما المستشار على خطته انتقاداً شديداً

وتركت (فينه) قاصداً (دونوئستينغ) لزيارة البرنس (فورستنبرغ) • ورأت الصحف ان تحمل البرنس — الذي كان رجلاً حراً ومستقيماً — على ان يعين الحقائق للامبراطور ، فبحث البرنس معي في هذه الشؤون ، و اشار علي بأن اجمع البرقيات التي تبودلت سنة ١٩٠٧ في ابان اقامتي في (هاي كليف) واعرضها علي (الرخستاغ)

واكتنفتني الآلام الاديبة في تلك الاثناء ، ومما زاد آلامي وفاة صديقي ورفيق صباي الكونت (هولسن هوزلر) رئيس اركان حربي • غير ان

صداقة البرنس (فورستبرغ) وذويه المشربة بالود الاكيد والاخلاص الوطيد والعناية التي اكتنفوني بها في تلك الايام السود اكبر عزاء لنفسي الحزينة . على اني وجدت عزاء آخر في الكتب التي تلقيتها من المانيا معربة عن اخلاص مرسليها الذين انتقدوا المستشار انتقاداً شديداً

وقابلني المستشار بعد عودتي ، فالتى علي درساً موضوعه اغلاطي في السياسة ، وطلب مني ان اوقع الوثيقة المعلومة التي نشرت في الصحف بعد ذلك ؛ ففعلت دون ان أنبث بينت شفة كما اني أهملت الحملات التي كانت توجهها الصحف الي والى العرش

وقضى المستشار بعمله هذا على الثقة الوطيدة التي وضعها فيه ، والصداقة الوثيقة العرى التي كانت تربطنا . ولاريب في ان البرنس (بيلوف) كان مقتنعاً بأن ما فعله قد أحسن به اليّ والى (الرخستاغ) ، وقد ظن انه خدمني شخصياً لان الرأي العام تأثر كثيراً من حملي

على أني لم أشكر (بيلوف) على عمله لأنني رأيت الخطة التي نهجها انزائي في حادثة « الديلي تلغراف » كانت تعارض ما كان أبداه سابقاً من الاعجاب بي والموافقة على مساعي . وكنت قد اعتدت من البرنس ليناً ورقة ، فلم استطع والحالة هذه ان أفهم الاسلوب الذي لجأ اليه في معاملتي . لذلك انقصمت الصلات الودية الحسنة التي كانت تربط الامبراطور بالمستشار ، وقطعت علاقاتي الشخصية معه ، فلم أعد أقابله الا لشغل وفي احوال صعبة

وبعد استشارة وزير القصر ورئيس الديوان قررت ان أعمل بنصيحة البرنس (فورستبرغ) ، فحاولت جمع الرسائل التي تبودلت في ابان اقامتي في (هاي كليف) سنة ١٩٠٧ وقد أبلغت وزارة الخارجية قرارى هذا الذي لم أتمكن من تنفيذه لان الوثائق المطلوبة لم توجد

نهاية ييلوف

في أواخر الشتاء طلب المستشار مقابلي . فدعوته الى (قاعة الصور) في القصر حيث استقبلته . وكنا نسير ذهاباً وإياباً امام صور أجدادي ، ومعارك حرب السنوات السبع ، وعلان الامبراطورية في (فرساي) . وما كان أشد استغرابي لما رأيت المستشار يعود الى الحوادث التي وقعت في خريف سنة ١٩٠٨ يشرح لي خطته

وقد انتهزت هذه الفرصة لانا نقشه الحساب عن الماضي كله ، فأدت هذه المناقشة الصريحة ، والبيانات المرضية التي سمعتها منه : الى تحسين الصلات تحسیناً أدى الى بقاءه في منصبه

ثم طلب مني المستشار بعد ذلك أن أقبل دعوته الى تناول طعام العشاء . على مائدته في ذلك المساء ، كما كنت أفعل في الماضي ، ليعلم الذين هم في الخارج ان الأمور عادت الى مجاريها الطبيعية . فاجبته الى طلبه . وكانت تلك الحفلة الليلية خاتمة ليوم من أيام التاريخ . وقد ازدانت بلطف البرنيس التي كانت دلائل السرور ظاهرة على محياها ، وبما أبداه البرنس من مظاهر الظرف الذي كان طبيعياً فيه

على ان هذا الرجل المتلاعب انتهى به الأمر الى أن حرّف متهمكاً . في احدى الصحف ، قول الشاعر الكبير القائل : « وجدني المانيا والدموع لا تزال تجري أنهرأ »

ان توتر العلائق بيني وبين البرنس (ييلوف) مرة أخرى جعله يدرك أنه لم يعد في الامكان احتفاظه بمنصبه ، فأعرب لي عن رغبته في الانسحاب ، حتى أنه عند اعتزاله العمل نصح لي بأن أوسد مقامه الى (پتمن هولوين) :

الفصل الخامس

﴿ پتمن هولويغ ﴾

شخصية پتمن — ادورد السابع في برلين — وفاة ادورد السابع
 عيوب پتمن — لما ذا لم يعزل پتمن ؟ — اصلاح الانتخابات في پروسيا
 علاقة المستنار بالامبراطور في الدستور الالماني — القيصر في پوتسدام
 رحاتي الى لندن — السرارنت كاسل وبلاغه الشفهي
 مفاوضة اللورد هالدين — المناورة الانكليزية
 الخلاف على المشروع البحري — شئ آخر عن هالدين
 البرنس دي فيد — اجتماعي بالقيصر في مرفأ البلطيق

شخصية (پتمن)

عرفت الهر فون (پتمن هولويغ) منذ صباي . ففي سنة ١٨٧٧ كنت
 عضواً بطا برتبة ملازم في الفصيلة السادسة من الالاي الأول من حرس المشاة ،
 وقد نزلنا عند والده في (هوهنفيث) فجدبني تلك الاسرة اللطيفة التي
 كانت مدام فون پتمن المحترمة السويسرية المولدة تدبرها بلطف وذكاء نادرين
 ثم عدت الى (هوهنفيث) وأنا ولي عهد وامبراطور لزيارة فون (پتمن)
 الشيخ . وكان (پتمن) الشاب حاكم المقاطعة يستقبلني في كل مرة . ولم أكن
 أفكر أنا ولا هو بأنه سيكون مستشاراً في عهدي . وقد نشأت عن هذه
 الزيارات صلات حسنة علمتني أن احترم ، في شخصية (پتمن) . المقدرة
 والنشاط وحب العمل . وهذا الاحترام ظل راسخاً في نفسي طول المدة
 التي قضاها في المناصب السياسية

وكان (پتمن) قد تمرن على العمل في منصب وزارة الداخلية ، وأخذ
 من وزارة الداخلية الى (الرخستاغ) حيث ظهرت قدرته بوضوح
 وكان التعاون بيننا سهلاً . وقد اعتدت ان ازوره يومياً اذا سنحت لي

الفرص ، فنخرج للتنزه في حديقة قصر المستشار باحثين في أحوال السياسة وسير الأمور . وكنا نقتل الشئون المهمة بحثاً وتمحيصاً ويبسط لي آراءه فيها ، وكنت اشعر بشيء من السرور بزيارة منزل المستشار لان قرينته كانت انموذج النساء الالمانيات ، تحمل الناس على احترامها ببساطتها ورزاقها ، ومزاياها العديدة . وقد تمكنت برقة قلبها وسمو عواطفها من أن تعيش في جو من الصداقة الحقيقية

وواصل (بتمن) عادة (ييلوف) التي كنت اقرها واعجب بها ، وهي عقد الاجتماعات في المساء . فتمكنت بذلك من معايشرة الناس على اختلاف طبقاتهم ومنهم من غير ان اتقيد بقيود

واكتسب المستشار في السياحة التي قام بها للتعرف بالناس عطف الرأي العام في كل مكان برزاقته وعزمه وحسن بيانه . وقد رأت فيه الدول الاجنبية التي لم تكن معادية لنا ضماناً قوياً على مواصلة خطتنا السياسية وعاملاً حقيقياً على توطيد دعائم السلم . والحقيقة هي انه كان يفرغ قصارى جهده لتعزيز السلم ، وكان على اتم اتفاق معي في هذا الشأن

وكانت باكورة أعماله في السياسة الخارجية العناية بموقفنا ازاء انكلترا فان « سياسة الخنق » التي نهجها (ادورد السابع) ، والتي تفاقم خطرها منذ اجتماع « ريفال » ، كانت من أعظم بواعث القلق في نفس المستشار الجديد . ثم ان رغبة الانتقام التي كانت تقوى وتشتد في فرنسا ، حيث الكره شديد لنا ، والغموض الذي ظهر في خطة روسيا ؛ كل ذلك ضاعف قلقه وأدّى الى اضطراب افكاره

ومما زاد الطين بلة اننا في عهد وزارته ظهر لنا ظهوراً واضحاً ان ايطاليا لا يجوز الاعتماد عليها في مساعدة عسكرية ، وان مساعي « باربر » اسفرت عن نتائج عظيمة في تلك البلاد التي عاملت الراقص معها — وهو ليس شريكاً لها — باخلاص صار طبيعياً مع الزمن

ولما تربع الهرفون (بتمن) في دست الأحكام كانت المسائل قد سويت مع فرنسا بشأن المغرب الأقصى لان الاتفاق الفرنسي الألماني كان قد أبرم في ٩ فبراير سنة ١٩٠٩ . وقد اعترف البرنس (بيلوف) في هذا الاتفاق اعترافاً صريحاً بفوز سياسة فرنسا واندحار سياسة المانيا في المغرب الأقصى . فاننا تخلينا عن الغرض الذي وضعناه نصب عيوننا في ابان زيارتي (طنجة) وفي الخطة التي نهجناها في مؤتمر الجزيرة . وكان سرور الحكومة الفرنسية بهذا الفوز الحقيقي عظيماً جداً . وقد أعربت عنه باهدائها وسام جوقة الشرف الى البرنس (رادولين) والهرفون (شوهن) . أما نحن فكنا نعلم انه لم يكن من حقنا ان نقرح بهذه الهدايا

ادورد السابع في برلين

وكان الملك (ادورد) والملكة (الكسندرا) في اليوم عينه يزوران امبراطور المانيا وامبراطورتها الزيارة الرسمية الاولى ، فاستقبلت (برلين) هذا الملك العظيم — بعد تبوءه العرش بثمانية أعوام — استقبالاً باهراً لم يظهر فيه شيء من النفور الذي نشأ عن خطته العدائية ازاء المانيا ولم يكن الملك متمتعاً بالصحة التامة ، بل كانت مظاهر التعب والشيخوخة بادية عليه . وقد أصيب بركام شديد ؛ ولكنه قبل مع ذلك دعوة جمعيات التعاون في (برلين) ، وحضر حفلة الشاي التي اقيمت له في (راتهاوز) . وقد اعلن غير مرة لكثيرين من عظماء (برلين) ان زيارته كانت مرضية له ولي من جميع الوجوه

وأبلغت خالي ابرام الاتفاق الفرنسي الألماني بشأن (المغرب الأقصى) فأظهر سروره من ذلك . فقلت له حينئذ « ارجو أن يسهل هذا الاتفاق سبل الصداقة بين البلدين » فأشار برأسه اشارة الموافقة وقال : « وأنا أرجو ذلك أيضاً » . على انه لو شد أزري في هذه المهمة لما ذهب آمالي ادراج الرياح

ومهما يكن من الأمر فإن زيارة ملك انكلترا وملكتها لبرلين أحدثت
جواً مشرباً بعواطف الود وجده الهر فون (يتمن) لما قبض على الزمام
الأحكام

وانفسح مجال العمل لهر فون (يتمن) في عهد وزارته • فقام بمفاوضات
خطيرة الشأن في المسائل السياسية الخارجية التي تتعلق بالحوادث العظيمة التي
وقعت بين سنة ١٩٠٩ وسنة ١٩١٤ • وقد نشرت في مختلف البلاد وثائق
كثيرة عن هذه المدة أذكر منها كتاب الهر فون (ياغو) الذي عنوانه
« أسباب الحرب العالمية »

ويرى القاري في الوثائق البلجيكية أن خطة ألمانيا في الأزمات الشديدة
التي وقعت حينئذ قد درست درساً لا تحيز فيه . وقد وضعت أنا تلك الخطة
كما يلي : « الوقوف وقفة الحذر المتأهب للطوارئ من جهة ، وتأيد الحليفة
النسوية المجرية اذا هددت بصفتها دولة عظمى من جهة أخرى . وذلك بعد
نصحها بالتساهل والتأني »

وكانت هذه الخطة في الحقيقة خطة « الوسيط الشريف » في كل خلاف
ينذر السلم بالخطر مع المحافظة على مصالحنا الخاصة بحزم وعزم

وقد قابلنا ارادة « الخنق » الضعيفة التي كان يبيدها الخصم بما بذلناه من
النشاط لتعزيز جيشنا وأسطولنا ، مع العلم بأننا كنا نفعل ذلك دفاعاً عن
النفس . وكان مركز ألمانيا المتوسط ، وحدودها المفتوحة التي لا شيء يحميها
من العوامل التي قضت علينا بهذه التدابير الدفاعية . وقد درس (ستيخمان)
هذه الحلقة من التاريخ في كتابه درساً خالياً من الغرض ، وكذلك فعل
(فرايد جونغ) أيضاً ، وكتب (هلفريخ) وغيره عن السنوات التي سبقت اعلان
الحرب أموراً على جانب عظيم من الأهمية

وفاة ادورد السابع

قضت وفاة (ادورد السابع) بسفري الى (لندن) . ادورد الذي وضع « خطة الخنق » والذي جاء عنه في تقرير سفارة البلجيك في (برلين) ما يأتي : « لم يكن سلم أوروبا في زمن ما مهدداً بالخطر العظيم مثله منذ تولى ملك الانكليز أمر توطيده والدفاع عنه » . فشاطرت البيت المالكة أحزانه وآلامه لأنني كنت مرتبطاً به بروابط القرابة التي شاركتني بها الأسرة والأمة واستقبلتني الأسرة الانكليزية المالكة في المحطة وشكرتني على مجيئي الى (لندن) للاعراب عن عواطفني نحوها ورافقتني (الملك جورج) الى (وستمنستر) حيث وضع النعش المزدان بأجل معالم الزينة فوق سدة جميلة واسعة . وكان جنود الحرس وجنود من المشاة ومن أليات الهند والمستعمرات قائمة على حراسة النعش ، منكسة سلاحها كما هي العادة في المآتم . وكان جميع هؤلاء الجنود منكسي الرؤوس مكتوفي الأيدي وقابضين على السيوف والبندقيات التي كانت مصوبة الى الأرض

وكانت الكندراية القديمة القائمة اللون قائمة بجدرانها العظيمة فوق السدة الملكية ، ولم يكن نور الشمس يدخلها الا أشعة ضئيلة من النوافذ الضيقة . وقد وقعت احدى تلك الاشعة على النعش الذي وضع فوقه تاج انكلترا ، فكانت تنعكس عما فيه من الحجارة الكريمة ، وتنبعث أنوار مختلفة تخلق الأبواب

وكانت جماهير لانهاية لها من النساء والرجال والأطفال على اختلاف الطبقات تسير صامتة مكتوفة الأيدي أمام الكنيسة لتحية الملك المحبوب التحية الأخيرة . وكان هذا المنظر - في مثل هذا المحيط الذي يعيد الى المخاطر ذكرى القرون الوسطى - مؤثراً جداً في النفوس

وقد تقدمت الى السدة مع (الملك جورج) ووضعت فوقها اكليلا

وبينا انا اتمم احدى الصلوات اذا بيدي اليمنى ويد ابن خالي اليمنى قد مدتا الواحدة الى الأخرى واتحدتا بشدة . وقد أثر ذلك في الذين حولنا (أعظم تأثير ، حتى أن أحد أقاربي قال لي في المساء : « لاجدث للندن كلها الا مصاحفك لمليكننا هذا الصباح ، فانها وقعت أعظم وقع في النفوس ، وعددها الجميع خير فال للمستقبل » فقلت : « هذا ما أتمناه من صميم قواي » ولما مرت وراء نعش خالي في شوارع (لندن) متمطياً جوادي لقيت أقصى درجات الحفاوة من الشعب الانكليزي المحتشد ، وكان عدده ساعتئذ يبلغ بضعة ملايين

وكنت مدة اقامتي في انكلترا نزيراً على الملك جورج في قصر (بوكينغهام) بدعوة منه . ولقيت من زوجته الملكة (الكساندرا) أعظم مظاهر الاكرام . وكنا نتذاكر معاً أخبار الماضي وأحاديثه

وأقام الملك مأدبة حافلة دعا اليها أمراء البيت المالك وحاشيتهم وسفراء الدول ، وكان الميسو (بيشون) أيضاً في جملة المدعوين فعرفوني به . وفي خلال المحاورات التي جرت بيننا ذكرت له الاقتراحات التي زودني بها المستشار ، وهي تتعلق بمصالحنا في (المغرب الاقصى) وبغير ذلك في المسائل السياسية ؛ فبادر الميسو (بيشون) الى الموافقة على هذه الاقتراحات . وهذه المحاوره هي التي زيدت عليها فيما بعد زيادات خيالية لا ظل لها من الحقيقة

عموب بنمن هولوبغ

لقد كان للشئون الخارجية أهمية خاصة في المدة التي بين سنة ١٩٠٩ و ١٩١٤ وان الارتقاء السريع الذي تناول أعمال التجارة والزراعة والصناعة أوجب علينا الاهتمام بهذه الأمور أيضاً في الداخل . ولكن مما يؤسف له أن المساعي في هذا الباب اعترضتها مشاكل كبرى بسبب الاختلافات الحزبية . ولقد كان هم المستشار أن ينفذ كل ما يمكن تنفيذه ، لكن الاسلوب

الذي لجأ اليه في تمحيص المشاكل ، والرغبة التي كان يبديها في أن لا يعرض .
الا ما انتهى الى استحسانه بعد تردد طويل ، كل ذلك تحول مع الزمن ،
وصار مضايقة حقيقية

وكان من الصعب جداً أن يقدم على العمل قبل أن يتحقق ضرورته ،
وذلك مما يجعل الشغل معه مملاً ومتعباً . وان احواله هذه قد حملت البعيدين
عنه على القول بأن المستشار رجل مذبذب لا يقر على قرار ، مع انه كان في
الحقيقة ذا ضمير حي

ثم جعل المستشار يميل الى التسلط بالتدريج ، فصار عنيداً في المناقشة ،
وكان محدثه يرى امامه رجلاً يريد أن يكون محقاً في رأيه ، وان يقوم بمهمة
المعلم في المدرسة ؛ فيؤنب الذين لا يشاركونه في افكاره . وقد استحق الهرفون
(پتمن) بذلك عدا الكثيرين وأخرج مركزي في أحوال كثيرة

وقد أبدت هذه الملاحظة لأحد أصدقاء المستشار - وكان رفيق صباه -
فقال لي ضاحكاً « ان الهرفون (پتمن) كان معروفاً بذلك وهو في المدرسة ،
فانه كان يؤنب رفقاءه على التوالى ، حتى انهم أجمعوا على ان يطلقوا عليه اسم
المرية » وزاد محدثي على ذلك فقال : ان هذا النقص من أعظم عيوب (پتمن)
ومساوئه لان معظم الناس لا يريدون الآن ان يكون لهم « مربية » . ولكن
ذلك قد امتزج بدم (پتمن) وجلده ، فلم يعد في طاقته ان يتحول عنه

ومما يدل على مزاج (پتمن) دلالة واضحة معاملته للهرفون (كيدرلن) ،
فانه أبدى رغبته في أن يرى (كيدرلن) وزيراً للخارجية ، رغم نصائحي له
بأن لا يفعل . ان فون (كيدرلن) رجل نشيط ، غير أن له طبعاً نزاعاً الى
الانفراد بالرأي . وجاءني (پتمن هولويغ) في بعض الأيام يشكو اليّ جفاء
(كيدرلن) وعدم اذعانه له ، ويطلب مني أن أخاطب الرجل في ذلك بلهجة
حازمه . فامتنعت من اجابة المستشار الى طلبه ، وذكرته بأنه هو الذي اختاره
لهذا المنصب على خلاف ارادتي

وفي تلك الاثناء ظهر عدم كفاءة (بتمن) لمنصب المستشار ، فقد كان مسالماً من صميم فؤاده ، وظل مصرّاً الى النهاية على وجوب الاتفاق مع انكلترا مهما كلفه الأمر . واني أدرك جيداً العوامل التي تدفع الرجل المحب للسلم الى السعي لمنع الحرب ، لان هذه الخطة كانت خطي أيضاً . ولكنني وجدت الاسلوب الذي لجأ المستشار اليه للوصول الى هذه الغاية لم يكن صالحاً . ومع ذلك لم أحجم عن شد أزره مع علمي بان مساعييه مصيرها الى الفشل التام

ثم أثبتت الايام ان المستشار كان بعيداً جداً عن الحقائق السياسية ، وانه كان يظن دائماً انه يعرف كل شيء أكثر مما يعرفه سواه . فقد استمر على تلقيني الامثلة تلو الامثلة ، ولم يكن يمنعه عدم تحقيق نظريته من أن يرى نفسه مصيباً ، وآراءه صحيحة ، كما كان يراها من قبل

وكان (بتمن) يعد خطبه كلها قبل إلقائها ، فتجنيء باهرة ، وتترك أثرها المقنع في نفوس السامعين . وفي هذا من الخطر ما فيه . فان ما يتراءى في الظاهر من قوة خطبه ، ومثانة مشروعاته واقتراحاته ، وما يذكره فيها من أسماء الاخصائيين ورجال الأمة الألمانية والألمانية الأجنبية ، وما يأتي به من التفاصيل المبسطة في كل موضوع ، يترك في النفس اعتقاداً بأن آراءه وأحكامه هي التي يجب الأخذ بها دون غيرها . على أنه بالرغم من كل ما كان يبذله المستشار من الاستعداد والتهيؤ فقد كان يقع في الهفوة بعد الهفوة وبالغلطة على أثر آخرها

لماذا لم يعزل بتمن هو لويف ؟

لقد كان (بتمن) في الحقيقة شريكاً في المسؤولية عن المصائب التي حلت بنا . ولما عدت من سياحتي في ممالك الشمال سنة ١٩١٤ لم يقدم لي استقالته ، ولكنه اعترف بأنه اخطأ في كل حساباته السياسية . وقد ابقيته في منصبه

بالرغم من ذلك ، حتى بعد خطبته في (الرخستاغ) ، وبعد دخول انكلترا في الحرب يوم ٤ اغسطس سنة ١٩١٤ ؛ لاني رأيت خطراً عظيماً في تغيير اكبر موظف في الامبراطورية في ساعة من اعظم ساعات التاريخ . ولو فعلنا ذلك لأوجدنا القلق في الرأي العام الذي كنا في حاجة اليه لارد على تحرش الحلفاء . ثم ان رئيس الديوان الأمبراطوري والمستشار الخاص نفسه كانا يزعمان ان ثقة العمال عظيمة بـيتمن . لذلك لم أشأ ان احرم العمال — الذين سلكوا سلوكاً باهراً سنة ١٩١٤ — من رجل وضعوا نقتهم به ، كما قيل لي خطأ او صواباً

وقد كرر رئيس دائرتي الملكية وممثل الخارجية نفسه القول على مسامعي بلا انقطاع أن العمال هم في جانب يتمن وحده . ومما زاد هذا القول رسوخاً في نفسي التقرير الذي رفع الي وجاء فيه أن البلاد تثق بالهر (يتمن) ثقة كبيرة لابرام الصلح . لذلك ظل (يتمن) في منصبه الى أن قام ولي العهد — كما يعلم الجميع — واستشار زعماء الأحزاب في الأمر . فأثبت بعمله هذا أن ما كان يقال عن (يتمن) لا نصيب له من الصحة

وقد ظهر لي هذا الخطأ بوضوح تام بعد ذهاب المستشار الذي نشأ عن أسباب كثيرة أخرى . فان الصحف الاشتراكية والديمقراطية علقّت على استعفائه تعليقاً في غير مصلحته

ولا أريد أن تكون هذه الملاحظات — التي تملئها علي الصراحة — وسيله لالقاء التبعة على (يتمن) والدفاع عن أعمال الآخرين ، ولكن المسائل الخطيرة الشأن كالتّي نحن بصددّها اذا عرضت على بساط البحث وجب أن تدرس درساً خالياً من الغرض وبعيداً عن الشخصيات . أما أنا فلم يخامرني أقل شك في أخلاق (يتمن هولوينغ) وسمو عواطفه

اصلاح الانتخابات في بروسيا

أرى الضرورة ماسة الى أن أذكر هنا الاصلاح الذي شمل نظام الانتخاب في بروسيا ، لأن ما دار حول ذلك من المذاكرات يدل علي تردد (بتمن) في سياسته

لما بدأت حرب الخنادق العنيفة في شتاء سنة ١٩١٤ - ١٩١٥ كان لما أظهره ضباطنا وجنودنا من المآثر الحربية تأثير عميق في نفسي ، فأردت أن أقوم في ميدان السياسة بعمل مجيد يلائم حسن استعمال امتي لمزاياها العسكرية في ميدان الحرب ، ورأيت في ذلك مكافأة للأمة على ما شعرت به من فضلها ولم أبرح - في أحاديثي ومحاوراتي التي أدت الى اصلاح الانتخاب في بروسيا - ادافع عن وجهة نظري في ذلك ، وهي أن يعطي حق الانتخاب لكل جندي يعود الى وطنه بعد مثل هذه الحرب حاملاً نوط الصليب الأحمر .

وعند ما فكرت في هذه المسألة تلقيت تقريراً من فون (لوبل) جرى فيه على رأيي في درس مسألة الانتخاب في بروسيا : وضمنه آراء صريحة وصائبة ومقنعة ، فكنت أطلع عليه أناساً كثيرين لشدة سروري به . علي أن التقرير يحتوي ملاحظات عامة لا تتناول التفصيل الدقيق ، ومع ذلك كنت أسرّ كلها رأيت واحداً من الذين أسألهم رأيهم في تقرير فون (لوبل) يشترك معه في ملاحظاته . وعقب ذلك شكرت لفون (لوبل) همته وطلبت منه أن يكتب تقريراً آخر يتضمن الاقتراحات المحكمة . وفي ربيع سنة ١٩١٥ تلقيت منه هذا التقرير ، وقد درس فيه الطرائق المختلفة درساً جيداً غير مرجح طريقة على غيرها . فوافقت عليه وأرسلته الى المستشار ليتذاكر فيه مع وزير الخارجية في تلك السنة متوقفاً أن يأتيني من الحكومة بعد درس التقرير مشروع قانون مبني على أساس متين أو أن يأتيني باقتراحات أخرى في هذا الباب . وان مشروع القانون من شأنه أن يعرض على (الرخشتاغ) بعد الحرب بطبيعة الحال

وذهبت بعد ذلك الى (بلس) ، وكانت جيوش بولونيا وغاليسيا قائمة بمعركة (غورليس - تارنوف) فجعلت أراقبها باهتمام عظيم ، وانتهت المعركة بانكسار العدو انكساراً مدهشاً استرجعنا به (لمبرغ) و (برزميسل) واستولينا على (فارسوه) و (ايفانفروود) و (مودلن) و (بريست ليتوفسك) وغير ذلك من المدن

وتلبد الأفق يومئذ بمحاذة (لوزيتانيا) ، ونقضت إيطاليا عرى اتفاقها معنا ، فلا بدع أن يكون تقرير (لوبل) بعد كل ذلك في المرتبة الأخيرة من الشئون التي كنت أفكر فيها

وجاء شتاء سنة ١٩١٦ وصيفها ، ونشبت حروب عظيمة في كل الميادين ولا سيما في (السوم) و (رومانيا) فحضرتُ الى كل الجبهات في الشرق والغرب ، وذهبت الى (نيس) حيث اجتمعت بملك البلغار

وفي ربيع سنة ١٩١٧ أمرتُ المستشار بأن يصدر في عيد الفصح بياناً الى الامة عن القانون الجديد ، وكنت أظن أن وزير الخارجية انتهى من درس التقرير منذ عهد بعيد . فلما جاءني المستشار بتمن البيان الذي يراد نشره على الامة لم أجد فيه تصريحاً بالطريقة الجديدة للانتخاب ، لأن (بتمن) لم يكن بعدُ قد أصدر حكمه في هذه المسألة ، فألقي في روع الامة أن هذا الاصلاح سيشرع به بعد الحرب لأن الفريق الاكبر من الوطنيين موجودون في ميادين القتال . ولقد فعلت الاحزاب والصحف يومئذ كل ما استطاعت فعله لتحول دون الوصول الى ما أردته من هذا المشروع . وبعد أن استقال (بتمن هولويغ) قال فون (لوبل) ان تقريره لم يعرض على الوزارة سنة ١٩١٥ لدرسه وظل مهملًا مدة سنة ونصف سنة . ان المستشار كان في معزل عن طرائق الانتخاب المعروضة للدرس بتأثير الرغبات التي أعربت البلاد عنها ، ولم يكن يهتم بمبدأ اشتراك جميع الامة في الانتخاب . وهكذا ذهبت فكري في أدراج الرياح بسبب عدم مبالاة (بتمن هولويغ) وبسبب الاختلافات الحزبية

لقد كان لي أمل واحد وهو أن أقابل جيشي الظافر ، وأمتي المسلحة ،
والبروسيين الشجعان ؛ باصلاحات أنظمها على ما أشتهى

صحة المستشار بالامبراطور

في الدستور

كانت رغبة (بنمن) المؤسفة في السيطرة والتسلط سبباً في انقاص قدر
الخارجية ، وجعل وزيرها موظفاً بسيطاً بحيث صارت وزارة الخارجية مصلحة
ملحقة بمنصب المستشار

وكان (بنمن) يدعى بازائي استقلالاً واسع النطاق ، مستنداً في ذلك
الى الدستور الذي يلقى عن عاتق المستشار وحده تبعة السياسة الخارجية ؛ فجعل
يعمل حسب أهوائه وميوله ولم تكن وزارة الخارجية تنقل الي الا ما يريده
المستشار ، بحيث فاقني الوانوف على كثير من الشؤون المهمة . ولا ريب في أن
الذنب في وقوع هذه الحوادث يعود الى الدستور

واني أرى تقسيم ٢٠-اً في هذا المقام الى الكلام على صلات الامبراطور
بالمستشار . ولا أريد أن بحث فيما وقع بيني وبين بنمن : بل في المشاكل التي
أقامها الدستور بين الامبراطور الألماني ومستشار الامبراطورية . وهذه أهم
الأمر الأساسية في هذا الباب :

١ — يقضي دستور الامبراطورية بأن يدير المستشار سياسة ألمانيا
الخارجية ، ويمثلها ، ويدافع عنها على مسؤوليته . فبعد ما يرفع تقريراً عنها الى
الامبراطور يعهد بتنفيذها الى وزارة الخارجية التي هي تحت امرته

٢ — ليس للامبراطور في الشؤون الخارجية الا النفوذ الذي يريده المستشار
أن يتركه له

٣ — يستطيع الامبراطور أن يستعمل هذا النفوذ بطريق المناقشات ؛
والمعلومات ، والاقتراحات ، والتقارير التي ينظمها في ابان سياحاته . فتكون

هذه التقارير متممة للتعليمات التي تعطى للسفراء ولمثلي البلاد التي يزورها
الامبراطور شخصياً

٤ — للمستشار ان يوافق على عمل من أعمال الامبراطور ، وأن يتخذه
أساساً لقراراته ، اذا كان على رأي الامبراطور فيه . والا فانه يستمر على
خطته ويعمل بما يراه مناسباً : « التلغراف الى كروغر »

٥ — لم يخول الدستور امبراطور المانيا أقل سلطة تمكنه من اكرامه
المستشار ووزارة الخارجية على قبول آرائه . فهو لا يستطيع أن يجعله على
نهج سياسة معينة ما لم ير المستشار من واجبه ان يتحمل تبعه هذه السياسة .
واذا أصر الامبراطور على رأيه فللمستشار ان ينذره بالاستعفاء أو ان
يستعفى فعلاً

٦ — وليس للامبراطور من جهة أخرى وسيلة دستورية تمكنه من منع
المستشار ووزارة الخارجية من نهج خطة يراها خطرة أو مبنية على الخطأ .
واذا أصر المستشار على رأيه فليس للامبراطور غير انتقاء مستشار آخر ، ولكن
هذا العمل محموف بالصعاب ، وهو عظيم التأثير في الامة ، وقد كان خطره
مخيفاً في ابان الازمات السياسية . ولذلك لم يكن بد من التأني قبل الاقدام
عليه ، لا سيما وان عدد الرجال الجديرين بمنصب المستشار قليل جداً ، رغم
كثرة الطامحين اليه

لقد وجد منصب المستشار لتربع فيه شخصية نادرة كشخصية البرنس
(بسمرك) ولكن نطاقه اتسع مع الزمن بل أخذ يبعث على القلق باتساع
دائرة المصالح الامبراطورية التي وضعت تحت إمرة المستشار المسئول
اذا أنعمنا النظر في هذه الأحوال ، رأينا — خلافاً لما رآه الكثيرون
في آخر أعوام الحرب وبعد الحرب — انه لا يحق « للذين يعرفون كل شيء »
أعني الثوار الخداعين في بلادنا وفي بلاد الحلفاء أن يجعلوا الامبراطور وحده
مسئولاً عن كل شيء . واني بصرف النظر عما يتعلق بي شخصياً أرى أن
هذا العمل يدل دلالة قاطعة على جهل مطبق بما كان عليه الدستور الألماني

زيارة قيصر روسيا بونترام

كانت زيارة قيصر روسيا مدينة (بوتسدام) في نوفمبر سنة ١٩١٠ باعثة على الارتياح . وقد انتهز المستشار والهرفون (كيدرلن) هذه الفرصة للاتصال بالمسيو (سازانوف) . وظهر لنا أن عظيم الروس كان شديد السرور بما شاهده في ألمانيا . وكانت المفاوضات التي تدور بين رجال الدولتين تدعو الى الأمل بالمستقبل ، لذلك كان كل من الفريقين يشعر بالاطمئنان ، راجياً أن العلاقات بين روسيا وألمانيا ستدخل في دور جديد سعيد

ولما جئت بعد ذلك الى جزيرة (كورفو) لأمضي فيها فصل الربيع كانت ثورة المايسوريين قد نجم قرنهما ، وكان اليونانيون يراقبون أطوار هذه الثورة عن كثب . وكانت تأتي الأخبار الجمة الى (كورفو) عن تهريب السلاح بين ايطاليا وبلاد الأرثووط بطريق (أولونيا) . وكانت الأندية اليونانية ترى أن ايطاليا والجبل الأسود يمثلان على هذا المسرح دوراً . على أنه لم يكن أحديتوقع أن تنشأ عن هذه الحوادث أمور جديدة تقلق البال

سبامنى الى لدره

بمناسبة الاحتفال بتمثال الملكة فكتوريا

في أوائل سنة ١٩١١ تلقيت كتاباً مشرباً بروح الود من الملك (جورج) الانكليزي دعانا فيه انا والأمباطورة الى زيارة (لندن) لحضور الاحتفال بازاحة الستار عن تمثال جدتنا الملكة (فكتوريا) . فليت الدعوة في أواسط مايو ، وأبحرت الى (لندن) انا والأمباطورة وكريمتنا ، فاحتفت بنا الأسرة الانجليزية المالكة احتفاء كبيراً ، واستقبلنا سكان (لندن) استقبالاً ودياً باهراً

وقد نظمت حفلة ازاحة الستار بمهارة زادتها روتقا وجلالاً ، فوضعت المقاعد حتى التي خصت بالمدعوين حول الساحة الكبيرة القائمة أمام قصر

(بوكنغهام) بشكل نصف دائرة ، واصطفت الجنود من جميع الأسلحة والألويات بملابسها الرسمية ، وكان الفرسان ورجال المدفعية كلهم مشاة . وقد جمعت الأعلام والرايات ؛ ونشرت حول التمثال الذي وقفت أمامه الأسرة الإنكليزية المالكة وضيوفها ورجال حاشيتهم

وألقي الملك (جورج) خطبة تناسب المقام حيا فيها امبراطور ألمانيا وامبراطورتها وكان لها أعظم وقع في النفوس

ثم أزيح الستار عن التمثال ، فعلا هتاف الشعب ، وأدى الجنود التحية العسكرية . وظهرت الملكة حينئذ جالسة على عرش تكتنفه تماثيل ذهبية صغيرة حاملة اكليل الغار ، فكان المنظر مؤثراً الى حد يعجز القلم عن وصفه

وبدأت حفلة العرض ، فمرت فصائل الحرس ، ثم فصائل « هيجلاندر » بملابسها الجميلة اللامعة ، ثم فصائل الفرق الأخرى كلها . وتمت حفلة العرض في دائرة الساحة عينها . فكان الجناحان الأيمن والأيسر يسيران بسرعة بينما القلب يخطو وهو في محله . وهذا العمل من أصعب الأعمال العسكرية ، ومع ذلك نفذ براءة تامة فلم يخرج جندي واحد من صفه

وقد كوفيء (الدوق كنوت) الذي نظم هذه الحفلة بتصفيق شديد عام كان جديراً به

ثم دعينا في يوم آخر الى حضور الألعاب الرياضية التي قام بها رجال الجيش والأسطول . وقد تمت هذه الألعاب براءة لا توصف سواء كانت شخصية قام بها كل جندي على حدة راكباً وماشياً ، ام عامة اشتركت فيها القوات كلها

وقد أسهبت فيما ذكرته عن مأتم الملك (ادورد السابع) ، والاحتفال بإزاحة الستار عن تمثال الملكة (فكتوريا) ، بوصف مظاهر الأبهة الخارجية التي تصحب جميع الحفلات الكبيرة في انكلترا . فان مظاهر الأبهة التي هي من آثار القرون الوسطى تجدد في انكلترا البرلمانية ، التي يسمونها ديمقراطية ،

عناية أعظم من العناية التي تجدها في ألمانيا الامبراطورية

اتجهت النظر العالم مرة أخرى الى موقف فرنسا في (المغرب الأقصى) ،
ذلك الموقف الذي سوي في (معاهدة الجزيرة) . وقد رجائي المستشار أن
انهز الفرصة الملائمة لأفهم رأي الملك (جورج) في مسألة المغرب الأقصى .
لذلك سألت جلالتة : هل يرى أعمال فرنسا في تلك البلاد تتفق مع معاهدة
الجزيرة أم لا ؟ فرد قائلاً ان هذه المعاهدة اهملت فعلاً ، وأن الأوفى
وضعها في سلة المهملات . والحقيقة أن فرنسا لم تنهج في (المغرب الأقصى)
غير الخطة التي كان ينهجها الانكليز في (مصر) . لذلك لم يكن في امكان انكثرا
أن تقيم المشاكل في وجه الفرنسيين ، بل كانت مضطرة الى تركهم وشأنهم
يفعلون ما يشاءون ، فلم يبق بد من قبول الأمر الواقع فيما يتعلق بالاحتلال
والاتفاق مع فرنسا للحصول على تسهيلات تجارية

وانتهت الزيارة من غير أن يقع فيها ما ياباه الذوق ، وأعرب سكان (لندن)
على اختلاف طبقاتهم عن عطفهم العظيم على ضيوف مليكهم كلما سنحت لهم الفرص
وعدت أنا والملكة الى ألمانيا بعواطف حسنة وآمال كبيرة . وقد أعرب
المستشار عن ارتياحه الى التقرير الذي قدمته اليه في هذا الشأن ، واستنتج
من عبارات الملك (جورج) ان انكثرا تعدد معاهدة الجزيرة مهمة ، ولا
تعارض في احتلال (المغرب الأقصى)

وحينئذ بدأت وزارة الخارجية تنهج الخطة التي رسمها المستشار نفسه ،
والتي أدت الى حادثة (اغادير) ، آخر عمل مشئوم قنائه للاحتفاظ بشيء من
نفوذنا في (المغرب الأقصى)

واشدت الازمة في « اسبوع كيال » وقد بلغني وزير الخارجية انه
ينوي ارسال البارجة « باتير » الى (المغرب الأقصى) ، فرفضت ذلك بشدة ،
ولكنني اضطرت الى الرضوخ امام الحاح الخارجية وتشديدها

السرارنست كاسل وبهرغه السفري

في النصف الأول من سنة ١٩١٢ وصل السر (أرنست كاسل) الى (برلين) حاملاً مذكرة شفوية خواها ان انكلترا تتعهد بالبقاء على الحياد في كل حرب لا تضرم ألمانيا ناراها . وذلك مقابل تحديد السلاح البحري الألماني . وكانت انكلترا ترمي من هذه المذكرة الى حملنا على اهمال المشروعات التي وضعناها لتعزيز الأسطول . وقد كان جوابنا على ذلك داعياً الى مواصلة المفاوضات ، وتكليف اللورد (هلدان) اتمامها في (برلين) ولكن المفاوضات فشلت أخيراً بسبب تشدد انكلترا (السر ادورد غراي) . ثم انتهى الأمر بأن أنكرت الحكومة البريطانية اللورد (هلدان) وسحبت المذكرة الشفوية لأن السر (ادورد غراي) خشي استياء الفرنسيين من الاتفاق الألماني الانكليزي وتعريض التحالف الفرنسي الانكليزي الروسي الى الخطر

وهذه تفاصيل الحادثة كما وقعت :

في صباح ١٩ يناير سنة ١٩١٢ وصل (بالين) الى قصر (برلين) وطلب مقابلي ، فتوهمت انه جاء للمعايدة ولو متأخراً . وما كان أشد استغرابي لما قال لي بعد مقدمة قصيرة ان السر (ارنست كاسل) الذي وصل (برلين) بمهمة غير عادية أوفده ليلتمس مقابلي . فسألت (بالين) هل هذه المهمة سياسية أم لا واذا كانت سياسية فلماذا لم تطلب المقابلة على يد سفارة انكلترا ؟ فقال لي بالين انه فهم من (كاسل) ان المسألة على أعظم جانب من الاهمية ، وان السفير أهمل أمره لان (لندن) لا تريد ان تسويها على يد الساسة الالمان ولا الانكليز . فقلت : اني مستعد لمقابلة السر (أرنست كاسل) في الحال . وزدت على ذلك اني سأضطر الى اعلام المستشار بالمسألة اذا كانت ذات صبغة سياسية لان الواجب يقضي علي بذلك بصفتي ملكاً دستورياً ، ولانه لا يمكنني ان أقاوض ممثل دولة أجنبية خلسة عن المستشار

وخرج (بالين) ثم عاد ومعه (كاسل) الذي قدم لي مذكرة كتبت .
 « بمعرفة الحكومة البريطانية وموافقتها » . فنظرت الى تلك القصاصة الصغيرة .
 من الورق ، ودهشت اذ رأيتها تتضمن تعهداً ببقاء الانكليز على الحياد اذا
 أكرهت المانيا على الحرب ؛ ولا يطلب من المانيا مقابل ذلك سوى موافقتها
 على تحديد السلاح البحري . وسيتم الاتفاق على هذا التحديد في المفاوضات
 المقبلة التي تسفر عن معاهدة تعقد بين الدولتين

ودعوت (بالين) الى الغرفة المجاورة ، وناولته قصاصة الورق . فما كاد
 يتم قراءتها حتى فهنا معاً بعبارة واحدة « انها مذكرة شفوية »
 وكانت هذه المذكرة الشفوية موجهة الى القانون البحري الجديد الذي
 أردنا عرضه على المجلس ، وتتوخى تأجيله أو احباطه . وقد وجدت نفسي
 في حالة غنائية استغربها (بالين) فقد تذكرت موقعي في « كرونبرغ
 فريدريخسهوف » سنة ١٩٠٨ لما رفضت الطلب الذي عرضه دلي المستر هردنغ
 وزير خارجية انكلترا شخصياً ، ولم يقصد منه الامنع نمو الاسطول . واليوم
 تقدم الى امبراطور المانيا صديق حميم للملك (ادورد السابع) من غير ان يسبقه
 بيان رسمي ، وهو يحمل مذكرة شفوية أملت عليه الحكومة الانكليزية
 وأعطته التعليمات الصريحة بجعل مساعيه خارجة عن دائرة السياسة في البلادين
 لقد عرض عليّ حياد انكلترا التام في كل خلاف تنشأ عنه الحرب ، مقابل
 تعهد المانيا بتحديد اسطولها . وكانت انكلترا هي التي عرضت هذا الاقتراح .
 انكلترا وطن « الدستوريين » . ولما لفتُ أنظار (بالين) الى ذلك قال :
 « أين أنت أيها الروح الدستورية ؟ » . وهذا ما يمكن تسميته « السياسة
 الشخصية المقرونة بالاتقام »

واتفقت مع (بالين) على أن ندعو (يتمان) في الحال وأن نطلعه على
 هذا الاقتراح ثم نقرر الخطوة التي يجب انتهاجها في هذه الاحوال الغريبة
 ودعي (يتمان) بالتلفون فلبى الدعوة على جناح السرعة . وقد أظهر

دهشته واستغرابه في بدء الأمر فكان منظره غريباً ونحن نقص عليه الحديث واقترح المستشار ان نعلم الاميرال فون (تريينز) وزير البحرية بالامر وان نقاوضه فيما يتعلق بوزارته من هذا الاقتراح . وأخيراً تم الاتفاق على اعداد جواب باللغة الانكليزية لايختلف معنى ومبنى عن مذكرة السر (ارنست كاسل) ليسافر به الى (لندن) في مساء ذلك اليوم عينه . ووقع اختيارنا على اللغة الانكليزية خوفاً من الالتباس أو سوء التفاهم الذي ربما يتخلل الترجمة في (لندن)

ورجا مني المستشار أن اضع المذكرة لاني كنت أجيد الانكليزية ، ففعلت بعد تردد . وأسفرت النتيجة عن المشهد التالي : انا جالس امام المائدة في غرفة المرافقين (الياورين) والرجلان واقفان الى جانبي . وكنت أقرأ بصوت عال كل عبارة من عبارات المذكرة الانكليزية ، ثم اضع الرد عليها وأتلوه ، فتنهال علي الاعتراضات من اليمين واليسار ، بدعوى ان في هذه الجملة افراطاً ، وفي تلك الجملة حدة ؛ فكانت العبارات تكتب ثم تصلح ثم تعدل وتحسن . وكانت مصيبتني كبيرة بالمستشار الذي استعمل كل فاسفته في وزن الالفاظ ودرس العبارات وتمحيصها ، حتى عانيت منه كل ما في النحو والانشاء من العذاب والآلام

واستمر هذا العمل ساعات متوالية . ولما انتهت المذكرة ، وتناقلتها الايدي مراراً عديدة قرأتها بصوت عال أكثر من ست مرات الى ان انتهى الامر بتوقيعها

وقبل ان نفترق سأل المستشار السر (كاسل) عن الرجل الذي تنتدبه انكلترا لمفاوضتنا فقال (كاسل) انه سيكون من الوزراء بلا جدال ولكنه لا يعرف من هو وان كان يرجح المستر (ونستن تشرشل) وزير البحرية لان المسألة ذات صلة بالشؤون البحرية

وقد اتفق المستشار مع السر (ارنست) على العمل بأسلوب غير رسمي ،

واختيار (بالين) لنقل الآراء التي تأتي من انكلترا في هذا الشأن
 وشكرنا السر (ارنست) شكراً جزيلاً على مقابلتنا الودية له ، وأعرب
 بصراحة عن ارتياحه الى خوى الرد الذي أرسلناه معه
 ولما عاد (بالين) بعد مدة الى نزله قال لي : ان (كاسل) كان مسروراً
 جداً من نتيجة مهمته ، وانه ذهب بعواطف حسنة سيعرب عنها لحكومته
 وفاوضت الاميرال (ترييتز) في هذه المسألة فرأيته على اتفاق معي في
 ان مشروع القانون البحري بات في خطر ، وان الواجب يقضي بمضاعفة
 العناية بشأنه

وقد تجمعت بطريقة سرية جميع الوثائق اللازمة للاميرال (ترييتز) في ابان
 المفاوضات . وكتبت نبذة تاريخية مختصرة عن تقدم اسطولنا ، وعن الواجبات
 العديدة الملقاة على عاتقه . وكان مشروع القانون البحري ينص على الغاية من
 الاسطول ، وعلى وسائل ترقيته وطرق تنفيذها ، وعلى ضرورة تعزيزه وزيادة
 عدد قطعاته

ثم عرض مشروع المعاهدة مع التنويه باهميته وطرق تنفيذه . وتم الاتفاق
 مع المستشار على أن تدور المفاوضات امامي في القصر . واتفقت أيضاً مع الاميرال
 (ترييتز) على ان يتكلم بالانكليزية بقدر الامكان ، وعلى ان اقوم بمهمة المترجم
 اذا وردت عبارات صعبة . وقد نظرنا الى جميع الاحتمالات قبل ان نعرف
 اسم المفوض الانكليزي المنتظر . وكان (بالين) ينقل الينا الاقتراحات المختلفة
 التي ورد فيها ذكر كثيرين من الرجال ، حتى (ادورد غراي) نفسه . ثم بلغنا
 في نهاية الامر ان (هلدان) وزير الحربية وأحد المحامين السابقين هو الذي
 كلف بمفاوضتنا وانه على أهبة المجيء الى (برلين) فوق ذلك موقع الاستغراب
 في نفوسنا . وقلنا انه كان في طاقة المانيا أن توفد وزير الحربية — وكان
 حينئذ الهرفون (هيرنغتن) — الى لندن محل الاميرال (ترييتز) للمفاوضة في
 مسألة بحرية . وتكلمت مع (پتمن) و (ترييتز) عن اختيار (هلدان)

للمفاوضة وحاولنا أن نجد له سبباً . فكان المستشار يرى ان (هلدان) هو في نظر الانكليز الرجل الذي اكتشف (غوت) وعرف الفلاسفة الالمان معرفة تامة وانه لا بد أن يكون معروفاً في المانيا فاخياره للمفاوضة انما هو من قبيل المجاملة

وقال (تريتر) ان (هلدان) جاء الى (برلين) قبل هذه المرة واشتغل مع الجنرال فون (اينم) في وزارة الحربية فخير المحيط الذي أرسل للعمل فيه أما أنا فقلت ان هذه الملاحظات ربما كانت ذات تأثير في انتقاء (هلدان) ولكن لا يبعد أن تكون الحكومة قد اختارته - بالرغم من عدم وقوفه على الشؤون البحرية الوقوف المطلوب - رغبة منها في اعطاء المسألة شكلاً سياسياً بحتاً ، ومن المحتمل أن تكون هذه المسألة كلها موجهة الى سياسة المانيا عامة والى القانون البحري خاصة ، لذلك يجدر بنا ان لا ننسى هذه الملاحظة فنقع في شرك يؤدي الى تدخل الأجنبي في شئوننا ويمنعنا من تنظيم قواتنا المسلحة باستقلال وحرية تامين

مفاوضات (هلدان)

ووصل (هلدان) لخل ضيفاً عليّ . وقد استطاع (بالين) الذي كان يصحبه أن يحل هذا اللغز ، بفضل الأخبار الواردة عليه من انكلترا ، وان يفهمنا السبب في اختيار (هلدان)

لـمـاعـاد (كاسل) الى (لندن) ، وبسط للحكومة نتيجة مهمته ، وسلمها المذكورة ؛ ساد الشعور بملاءمة الأحوال ؛ ولم يعد أحد يشك بنجاح المفاوضات وإبرام الاتفاق . وكان الوزراء ولا سيما (تشرشل) و (غراي) يتسابقون الى شرف المجيء الى برلين لوضع أسمائهم في أسفل الوثيقة التاريخية العظمى التي تقضي على ألمانيا بأن تتنازل عن تعزيز اسطوطها

وقد اعلن (تشرشل) انه هو الرجل الذي يجب ان يفوضنا بصفته وزيراً

للبحرية . ولكن (غراي) و (اسكويث) لم يرقهما السماح لزميلهما بأن يخلق امامهما في جو المجد والفخر

واشتد الميل الى ارسال (غراي) ، وهذا دليل آخر على ان المسألة كانت سياسية أكثر منها مسألة احصاء للبواخر . ولكن الآراء اجمعت في النهاية على أن الاجدر بغراي وهو في هذا المقام أن لا يظهر الا في آخر المفاوضات ليضع توقيعه في أسفل المعاهدة أو - كما جاء في المعلومات التي تلقاها (بالين) - من انكلترا - ليتناول طعام الغداء مع الامبراطور ، ويشترك في الاحتفالات ، ويشهد الالعب النارية ، و - بالالمانى الفصيح - لكي يرى معالم الزينة . . .

وبما أن الرجل الذي يبدأ في المفاوضات لا يمكن أن يكون (تشرشل) فمن الواجب ان يقع الاختيار على رجل يعرفه (اسكويث) و (غراي) حق المعرفة ويقبل أن يقوم بمهام المفاوضات حتى يصل بها الى دور الاحتفالات ، ويجب فوق ذلك ان يكون معروفاً في (برلين) وغير غريب عن ألمانيا والحقيقة أن تشرشل لم يكن مجهولاً في ألمانيا ، لانه شهد في بعض الاحيان حفلات عرض الجنود الامبراطورية في (سلينيا) و (ررتنبرغ) بصفته ضيفاً على الامبراطور

وكان مصدر المعلومات التي يتلقاها (بالين) من انكلترا جديراً بكل ثقة ، وقد أعلن (بالين) انه يكفل صحة اخباره

ولفتُ انظار الهر فون (ترييتز) وزير البحرية قبل بدء المفاوضات الى ان (هلدان) ربما يكون استعداد لدرس الموضوع ، وان يكن وزيراً للحرية : ولا بد من ان يكون قد تلقى معلومات دقيقة واضحة من وزارة البحرية الانكليزية التي كان الاميرال (فيشر) روحها ودماعها

وكان (فيشر) قد وضع بين المبادئ التي يلقيها ضباط البحرية البريطانية عبارة تلفت الانظار ، وتدل على ذهنية الاميرال وذهنية مساعديه وكل ابناء أمته ، وهي بالحرف الواحد : « اذا كذبت فاثبت على كذبك »

وقد قلت ترييتز : يجب ان لا ننسى ان الانكليز السكسونيين يتكيفون .
 بسهولة تامة تجعلهم يقبلون الوظائف التي لا تتفق مع حياتهم العادية ومعارفهم .
 ثم ان الاهتمام العظيم بشئون البحرية في انكلترا يجعل كل انكليزي - له شيء
 من العلم - خبيراً بالشئون البحرية

وفي الواقع ان (هلدان) برهن على سعة الاطلاع في ابان المفاوضات ، وكان
 خصماً بارعاً شديد الوطأة ، فاستعمل كل زاي المحامي ببراءة نادرة . واستغرقت
 المفاوضات بضع ساعات فأسفرت عن جلاء الامور بوجه عام وعن اتفاق وقفي
 على تأجيل انشاء البوارج التي كانت في دور الصنعة
 ثم سافر (هلدان) بعد مفاوضات احسن (ترييتز) التصرف فيها ، واشترك
 (بالين) في بعضها . وقد ابغني (بالين) ان (هلدان) أعلن ارتياحه الى نتيجة
 مهمته من كل الوجوه ، وأنه يعتقد بإمكان إعادة هذا المشروع الينا بعد اسبوع
 أو اسبوعين

المنافرة الانكليزية

وتوالت الايام ودنا الموعد الذي ضربناه لعرض المشروع البحري على
 الرخشتاغ . وقد اقترح (ترييتز) تعديل هذا المشروع تعديلاً ملائماً لروح
 الاتفاق اذا ابلغتنا انكلترا موافقتها على مساعي (هلدان) ، والا فانه يعرض
 من غير تعديل

ولكن المشروع لم يصلنا من (لندن) ، بل وصلتنا منها مذكرة تتضمن
 أسئلة عديدة مختلفة وتطلب معلومات متممة . ولم يكن لنا بد من الدرس
 الدقيق ، والمناقشات الطويلة ، قبل الرد على هذه المذكرة . وقد بدأت منذ
 ذلك الحين أشك في ان الانكليز يرغبون حقيقة في الاتفاق

وكانت الاسئلة تتلو الاسئلة وكنا نرى منهم اهتماماً بامور ثانوية لا صلة
 لها بالاتفاق . ثم جعلت انكلترا تنقض بالتدريج ما عرضته علينا ، وما وعدتنا

به ، الى أن عدلت عن اعادة مشروع الاتفاق الينا

ونظمت يومئذ حملات شديدة في (برلين) على المشروع البحري وعلى (ترييتز) . وهذه الحملات وجهت الينا من كل الجهات . وكان بعض القائمين بها من الاندية الرسمية ، وبعضهم من الاندية الشبيهة بالرسمية . أما المستشارفانه كان يعمل نفسه بالاتفاق مع انكلترا ، ويستعد لأن يوقع امضاءه في أسفل وثيقة تنقذ المانيا من سياسة « الخنق » ، وتعهد لها سبل التفاهم مع الحكومة البريطانية . لذلك حمل هو أيضاً على المشروع البحري وطلب العدول عنه

ولكن العدول عن المشروع في مثل تلك الاحوال كان يمكن ان يؤول بأن المانيا اعترفت لدولة أجنبية بحق التدخل في الشؤون التي تتعلق بالدفاع الوطني . فاذا أكرهنا على الحرب بعد ذلك وجدنا سيادتنا القومية وقوانا الدفاعية في خطر ، لذلك يجب على المانيا ان تحصل على ما يعادل التضحية التي نقدمها ، والا فانها تسلم زمام أمورها لالذ أعدائها ، وتكون قد فعلت ما تسمح لها انكلترا به خدمة لمصالحها الخاصة

وقد أحدث هذا الموقف المبهم اختلافا في الرأي

واشتدت علينا الحملات القاسية من أناس لا خبرة لهم بالشؤون البحرية وليس لهم غاية معينة . وقد نظر الاميرال فون (ترييتز) في ذلك الشتاء - الذي كان شديد الوطأة عليه كما كان علي - الى الحالة الحاضرة بكل ثقة ورباطة جأش كأنه القائد الذي يدافع عن وطنه المحبوب ويستثير حماسة جنوده في ابان المعركة أما أنا فقد ساعدته جهدي طاقتي ، وهل كان يمكنني أن لا أفعل ذلك في الاحوال التي وصفتها ؟ انه لا يجوز لاية دولة اجنبية ان تشترك معنا في تقرير ما يجب علينا أن نفعله دفاعاً عن أنفسنا

وكانت الآمال التي عقدناها على امكان الاتفاق مع الانكليز تضعف يوما فـيوماً ، وكان اهتمام انكلترا بالامر يقل بالتدريج ، حتى أنها أنكرت الاقسام

المهمة من « مذكرتها الشفهية » ، فادر كونا حينئذ أنا والاميرال (ترييز) ان الاقتراح كله لم يكن الامناورة

الافتخاف على المشروع البحري

واشتد الخلاف على المشروع البحري وتفاقم شره . وحدث مرة اني اجتمعت في مدينة (كوكسهاغن) بالدكتور (بورشار) رئيس مجلس أعيان (همبورغ) وكان احترامي عظيماً لهذا الرجل الذي كان قدوة الارستقراطيين في مدن الاتحاد الهانسياتيكي^(١) كلها ، وقد سبق لي ان استشرته مراراً في امور سياسية خطيرة الشأن ، فلما اجتمعت به في هذه المرة أخبرته بتفاصيل « المذكرة الشفهية » والخلاف القائم في (برلين) بين مؤيدي قانون التسليح البحري الجديد ومعارضيه ، ثم رجوت منه أن يعرب لي عن آرائه بكل صراحة كما كان يفعل دائماً ومن غير أقل محاباة ؛ وكنت اريد ان اسمع رأياً جدياً لم تؤثر فيه آراء (برلين) المتناقضة : فرد الدكتور (بورشار) على سؤالي في الحال بما امتاز به من الأساليب الدقيقة الواضحة التي تقنع وتفهم وقال : ان واجب الامبراطور ازاء الشعب والأمة هو الدفاع عن القانون البحري . وكل من يعارض في تنفيذ هذا القانون يسيء الى واجباته الوطنية . ثم قال : « يجب ان نعمل كل ما في طاقتنا للدفاع عن أنفسنا . ولكننا - قبل كل شيء - لا يمكننا أن نسمح لدولة اجنبية بأن تجرباً على سن القوانين في بلادنا . وليس الاقتراح الانكليزي سوى خدعة ترمي الى حملنا على اهمال القانون البحري . لذلك يجب ان لانهمل هذا القانون مهما اقتضت الحال . والشعب الألماني لا يستطيع ان يفهم كيف يترك حقه في السيادة القومية تحت رحمة الآخرين . فالقانون البحري يجب والحالة هذه أن ينفذ في أقرب آن »

وزاد الدكتور (بورشار) على ذلك فقال انه سيسعى في (مجلس الامبراطورية) لتحقيق هذا المبدأ « وقد التى بالفعل خطبة مؤثرة كلها حجج مقنعة » كما يسمى في (برلين)

ثم قال : « ان الانكليز سينقمون بلا جدال ، ولكن ماذا يهمننا ذلك وهم ناقون منذ زمن طويل ؟ انهم لا يعلنون الحرب علينا لهذا السبب . والاميرال (ترييتز) لم يفعل سوى واجبه ، ولم يقم بغير ما توجبه التبعة الملقاة على عاتقه . ومن واجب الامبراطور أن يؤيده بكل قواه . أما المستشار فالأجدر به أن يمتنع من معارضته والا كان في نظر الشعب صنيعة لانكليترا وعرض نوافذ بيته لان ترمى بحجارة المتظاهرين »

هذا ما قاله لي ممثل المدينة التجارية العظمى التي تلقي الصدمة الأولى اذا نشبت الحرب مع انكليترا ، وكان يعرب في كلامه عن روح الاتحاد الهانسيستيكي والغريب في الأمر أن هولندياً أطلعته الانكليز على غايتهم أعرب عن مثل الرأي الذي أعرب عنه الدكتور (بورشار) . لذلك كننا أنا و (ترييتز) محقين في اعتقادنا بأن اقتراح الحياد لم يكن سوى مناورة سياسية

وجعلت أنباء (بالين) ترد على (برلين) معلنة أن الحالة ليست على مايرام في انكليترا . ودلت المعلومات الاخيرة التي وصلت اليينا على أن الخلاف اشتد كثيراً بسبب مشروع الاتفاق . ولم يكن القوم راضين عن (هلدان) بل كانوا يتهمون به بأنه وقع في شرك (ترييتز) . وكانت نقمة الانكليز هذه دليلاً على ان (ترييتز) لم يقع في الشرك الذي نصب له ، وانه أحسن صنعا بتمسكه بالمشروع البحري ، الذي أراد (هلدان) أن يقدمه للوزارة الانكليزية ، ساخناً على طبق الشاي

والحقيقة ان تهمة الخداع التي ألصقت بألمانيا وان لم تكن في محلها فقد برهننت على أن (ترييتز) لم يكن مقصراً ، كما أن الانتقادات التي وجهها الانكليز الى (هلدان) أيدت ما كنا نعتقده من ان (هلدان) هو الذي تلقي الأمر بأن يخدع الالمان . وبما ان مواطنيه أدركوا خيبة آمالهم فن الواجب أن يشكر الاميرال (ترييتز) لدفاعه المجيد عن سلامة الوطن

وبلغ الخلاف بشأن القانون البحري أشده في أواخر مارس ، حتى ان

المستشار جاءني يوم ٢٢ منه وأنا خارج من كنيسة (شارلوتن بورغ) ليقدم اليّ استقالته ، ثم عدل عن هذا الرأي بعد ما بحثت معه ملياً في الأمر ، وأعدت على مسامعه آراء الدكتور (بورشار)

وذهبتُ بعد ذلك بأيام لزيارة الهر فون (بتمن) فوجدته في حديقة قصره يقرأ تلغرافاً من (لندن) ، وقد ضعفت همته وخارت قواه . وكان هذا التلغراف يتضمن انكار الانكليز مذكرتهم الشفهية التي نقلها (كاسل) والغاء اقتراح الحياد وغيره الغاء صريحاً باتاً . وفي هذا التلغراف عظات موجهة الي ، ونصائح لي بأن أحتفظ بالهر فون (بتمن) الذي تثق به الحكومة البريطانية ثقة خاصة وبكي المستشار من شدة غيظه وقد رأى آماله تضمحل كالهباء ، وساءه الاطراء الذي وجهته اليه حكومة أجنبية جربتها ألمانيا وجربها هو نفسه تجربة مؤلمة . فعرض عليّ استقالته للمرة الثانية ، فرفضت قبولها ، وبذلت كل جهدي لتعزيتة ثم أمرت بأن يسأل سفيرنا في (لندن) كيف أمكنه أن يقبل هذه المذكرة وأن ينقلها إلينا

ولم يعد المستشار منذ ذلك الحين الى معارضة القانون البحري ، ووافق عليه بكل اخلاص ، ولكن مع التعديل الذي طرأ عليه عند ما كنا نفكر بإمكان الاتفاق مع انكلترا . أما الانكليز فانهم ، على عكس ذلك ، نفذوا مشروعاتهم بشأن الانشاءات البحرية كما هو

كانت مهمة (هلدان) مظهرأ من مظاهر السياسة البريطانية . فان هذه المناورة العظيمة قد دبرت باحكام لمنعنا من تعزيز اسطولنا ، في حين أن أمريكا التي لم يكن لها اسطول تجاري ذو شأن ، وفرنسا التي كانت قطعاتها البحرية تزيد عدداً على قطعات اسطولنا ، وإيطاليا وروسيا اللتين كانتا تنشئان البوارج في الخارج — كل هذه الدول كانت تقرر مشروعات عظيمة للانشاءات البحرية من غير ان يصدر من انكلترا أقل احتجاج عليها -

على أن ألمانيا « المحصورة » بين فرنسا وروسيا كان يجب عليها أن تكون

قوية لتمكن من الدفاع عن كيانها تجاه هاتين الدولتين في البر والبحر ، فلم يكن لها بد والحالة هذه من تعزيز اسطولها ولم تكن تتوخى من وراء ذلك مزاحمة الاسطول الانكليزي لانه كان يزيد على اسطولها اربعة اضعاف الخمسة وكان هذا الاسطول يكفل سلامة انكلترا وتفوقها . وقد بلغ درجة من القوة والمنعة لا تحول أحداً من الالمان ان يعتقد بأن في امكاننا الحصول على اسطول معادل له

وكنا في حاجة الى سفن حربية للمحافظة على شواطئنا والدفاع عن تجارتنا ولم تكن وسائل الدفاع الثانوية كالغواصات والمدمرات والالغام تؤدي هذه المهمة

ثم ان استحکاماتنا على شواطئ البلطيك كانت قديمة ، وهي مسلحة تسليحاً غير كاف ، بحيث أن مدافع البوارج الحديثة كانت تستطيع تدميرها في أقل من ٤٨ ساعة . فالاسطول كان والحالة هذه ضرورياً جداً لحماية هذه الشواطئ التي لم يكن في امكانها المقاومة

وقد أثبت هذا الاسطول في وقعة (سكاجرّاك) ^(١) كيف كان ، وماذا يستطيع أن يفعل . ولو أن مجلس (الرخشتاغ) لم يستمر حتى سنة ١٩٠٠ على رفض كل المشروعات التي تؤدي الى تعزيز قواتنا الدفاعية لكانت معركة (سكاجرّاك) قاضية على انكلترا . حقاً اننا لم نتمكن من أن نعوض الاثنى عشرة سنة التي اضعنّاها سدى

وقبل ان أنتهى من الكلام عن (هلدان) أود أن اذكر نبذة أخرى من تاريخ نشاطه السياسي . فانه كان قد جاء الى (برلين) سنة ١٩٠٥ باذن من الحكومة الالمانية لدرس النظام العسكري الروسي ، ونظام التجنيد ، ومصالح اركان الحرب ، وغيرها . وكان يشغل في وزارة الحربية ، ويتلقى

معلوماته من الجنرال فون (اينام) وزير الحربية شخصياً . وقد قضى في (برلين) اسبوعين أو ثلاثة ثم عاد مسروراً جداً الى انكلترا ولما أعلنت الحرب ، قوطع (هلدان) صديق (غوت) والمحسوب في (لندن) من انصار الالمان ، وعومل معاملة عدائية جداً ، حتى انه لم يعد يجزأ على الظهور

وقد أراد أن يرى نفسه خمل المستر (بجي) الصحفي الاديب المعروف على أن يصف ما أبداه (هلدان) من النشاط لما كان في وزارة الحربية . فظهر كتاب في هذا الموضوع عنوانه « تبرئة بريطانيا العظمى »

وقد أوضح هذا الكتاب الخدم التي أداها (هلدان) بتنظيم هيئة أركان الحرب العامة حسب الاصول ، واعداد الجيش البريطاني للحرب العظمى ، ونوّه بمهارة (هلدان) في الاستفادة من الرخمة التي نالها للعمل في وزارة حربية روسيا . فاعترف (هلدان) بأنه تعلم فن الحرب في ألمانيا ، وأنه استطاع بما أخذه عنا أن يعدّ نظام الجيش ونظام اركان الحرب بتفاصيلهما ، تأهباً لحرب قريبة الوقوع مع الألمان الذين رحبوا به وفتحوا له صدورهم وظهر المحامي البارع المناوون بمظهره الحقيقي في هذا الكتاب الذي ذكر كيف نزل ضيقاً على بلاد أجنبية واستفاد من هذه الضيافة لدرس الانظمة العسكرية الألمانية . وقد توصل بالمعلومات التي أخذها والمواد التي انتقطها الى شحذ سلاحه في وجه الذين أفادوه وعلومه

وقد اهدى هذا الكتاب تحيةً لذكرى الملك (ادورد السابع) الذي كان (هلدان) أمين سره وصنيعته وخادم أفكاره

ان (برلين) كانت تعرف ان مهمة (هلدان) هي السعي للتقريب بين ألمانيا وانكلترا تقريباً كانت ألمانيا تطمح اليه على الدوام . ولكن هذه المهمة لم تكن في الحقيقة الا حملة استطلاع أرسلت الى داخل جدران المنزل الذي يقطن فيه « ابن العمه الالماني » وقد كافأنا انكلترا على جميلنا بخوضها غمار

الحرب العظمى التي ساعد (هلدان) على اعدادها بكل قواه . فهو اذن قد خدع الالمان في هذه المرة أيضاً
 هذا تاريخ مهمة (هلدان) على ان بعض « أقمار » السياسة أذغوا بعد ذلك في الصحف وفي الرأي العام ان التقرب بين انكلترا وألمانيا الذي سعى اليه (هلدان) ، والذي كان يعمل بالآمال العظيمة ، انما حبط لعناد الامبراطور والاميرال (تريتز) اللذين تمسكا بالمشروع البحري بكل قواهما ، رغم النصائح التي اسديت اليهما من كل الجهات

البرنسي دي فيبر أمير البانيا

لما وضعت على بساط البحث مسألة تأسيس حكومة ارثوذية مستقلة أخذتُ أسأل أنا والدول الأخرى عن الرجل الذي تناط به ادارة هذه البلاد . وقد سعى لدى الدول كثيرون من محبي التيجان مرشحين أنفسهم لهذا المنصب فلم ينجحوا

ولم تكن هذه المسألة — في ذاتها — من المسائل التي تهمني كثيراً . ومع ذلك فقد كنت مقتنعاً بأن من الضروري في انتخاب الأمير لألبانيا ملاحظة ارتقاء هذه الأمة التاريخي ، وموقعها الجغرافي ، وتقاليدها القومية

تنقسم أمة الأرثوذكس الى مسلمين ومسيحيين متساوي العدد . والزراعة هنالك لم تتقدم كثيراً والمعارف في سن الطفولة

وكان كثيرون من الأرثوذكس يعملون عند الترك الى حرب البلقان ، وقد تبوأوا هنالك المناصب العليا ، لأنهم قد اعترف لهم بالغيرة والنشاط ومضاء العزيمة

ولقد أردت أن يكون أمير البانيا مسلماً ، أو بالحري مصرياً ، فلم تقع مشورتي موقع القبول عند الدول التي كانت مشغولة عن مصالح الأرثوذكس أنفسهم بما هي منهمكة به من البحث عن الفرص للاصطياد بالماء العكر

اذن فأنا لم أكن كثير السرور باختيار البرنس (دي قيد) لامارة ألبانيا .
 انني أجل في البرنس صفات النبيل والمروءة والكرم ، ولكنني كنت اعتقد
 بأنه ليس الرجل الكفء لهذا المنصب ، لأن البرنس لم يكن له ذلك العلم
 بشؤون البلقان ولا تلك الصفات اللازمة لولاية مثل هذا العمل الشاق
 . ولم أستحسن ذهاب أمير الماني الى ألبانيا ، لأنني كنت أعلم أن

دول التحالف ستضع في سبيله العقبات والمشاكل
 ولما جاءني ابن عمي ليستشيرني في الأمر أعربت له عن رأيي بكل
 صراحة ، وأنهمته المخاطر التي سيلقاها في طريقه ، ونصحت له بأن يمتنع من
 الموافقة على الاقتراح المعروض عليه

ويوم وافقت الدول على ترشيح البرنس (ويالهلم دي قيد) للامارة
 الأرثوذكسية اسنقبلته أنا بحضور المستشار ، ولم يكن البرنس كثير الابتهاج
 بمنصبه الجديد ، بل ظهر لي أنه شديد التردد الى درجة شعرت معها بالشجاعة
 على اسئنانف النصيح له بأن يرفض الجلوس على عرش ألبانيا . غير ان عنائي هذا
 ذهب ادراج الرياح لأن زوجة البرنس الشابة الكثيرة المطامع كانت ترى أن
 آملها لن تتحقق الا بلبس هذا التاج . ومعلوم أن ارادة المرأة من ارادة الله .
 ولقد شجعتها (كارمن سيلقا) على المضي ، وانشأت في الصحف مقالة
 افتتحتها بقولها « ان مملكة الملائكة تطالب بأمرها . . . »

ونصحت الى الأمير ايضاً بأن لا يذهب الى ألبانيا قبل ان تحل مشاكلها
 المالية . وكانت هنالك اسباب جوهريه حملتني على اقتراح اختيار الأمير
 لألبانيا من ذوي اليسار ، ولم يكن البرنس (دي قيد) صاحب ثروة طائلة ،
 وقد وضع على بساط البحث امداد الدول اياه بالمال . ولما جاء دور اختصاص
 كل دولة بما يصيبها من هذا المبلغ بدت لنا امور مؤسفة ، ثم انتهى الأمر
 بأن يكون الدفع بالتدريج

وكان (اسعد باشا) خطراً عظيماً على الأمير الجديد وحكومته ، فان هذا

الرجل الجندي الدساس الكثير المظامع كان يحدث نفسه بالحمول على الامارة، وان لديه قوة لا يستهان بها وأنصاراً يحملون السلاح . وقد ناصب الرئيس (دي فيد) العداء من اليرم الأول ، وأخذ يرتب المؤامرات في الخفاء مع ايطاليا التي كانت ذات نية حسنة نحو الرئيس

ولو أن الرئيس اتحد لنفسه حاشية ممن يثق بهم من الألمانين المخلصين لكان عمله هذا طبعاً جيداً لا محل لاعتراض أحد عليه ، ولكن الرئيس لم يتخذ هذه الحيلة أيضاً ، فعينوا له اشخاصاً من الانكليز والايطاليين بصفة سكرتيرين ، وكان هؤلاء السادة مهمة واحدة وهي العمل على ما يخالف مصلحة الأمير ، وان يندحوا له انماح سيئة . وان ينظموا الدساس عليه

ذهب الأمير وزوجته الى ألمانيا . فكان كل شيء يجري على نحو ما كنت متوقفاً . ولم يتمكن الرئيس من انقاذ نفسه من (اسعد باشا) وحصل كل ما كنت اخشاه

اجتماعي الأمير بالقيصر في مرفأ الباطيوس

اجتمعت بالقيصر سنة ١٩١٢ في مرفأ الباطيوس ، وكنت قد قصدت هذا المرفأ بدعوة من نقولا الثاني ، فوقفت سفينتاناً جنباً الى جنب ، واتخذت الوسائل لتسهيل الاتصال فيما بينهما . وأظهر لي أولاده وجميع أسرته رقة عظيمة وكرماً متناهياً ، وكنا نتناول الطعام معاً تارة على مائدة القيصر وتارة على مائدتي

وان هذا الاجتماع الذي استقبلني فيه القيصر أعظم استقبال لم يجري فيه ذكر الاتفاق البلقاني الذي كان قد عقد حديثاً

وكانت هذه هي زيارتي الأخيرة لروسيا قبل الحرب العظمى

الفصل السادس

(أعوانى)

دون استيفن والريد - ميخائيلس والاصلاح المالى - سكك
الحديد زمن ما يباح - نديان وبود وبريتماح - استطاعة
دوى انجاز خدمة بلادهم - وزارة المعارف -
شاب الألمان وشباب الارمن

قصة استيفن والريد

أريد أن أعرب عن سروري العظيم من اشتغالي مع فون (استيفن) ،
وأن أعين أذ علاقتي به كانت دائماً على ما يرام . وهو من رجال المدرسة
القديمة ، وكنا نتفاهم أحسن تفاهم . وكان لفون (استيفن) ارادة وعزيمة
متبنتان كالحديد ، وهو رجل حمل ، وله اليد الطولى في الشؤون السياسية
والدولية . ولم أكن أضمر له غير الثقة به ثقة مطلقة . وان صلتى بمستشار له
سندا العقل وهذه الحكمة مع السعي والنشاط قد عاتني شيئاً كثيراً . ولقد
ارتقت ادارة البريد عندنا في زمن (استيفن) ارتقاء اعجبت به الدنيا كلها .
وبمساعيه أخذ يعم استعمال التلغراف وبدأ التلغراف يستفيدون من هذا الاختراع
الجديد فوائد واسعة النطاق

ميخائيلس والاصلاح المالى

كان الهرفون (ميخائيلس) من الوزراء الذين احترمتهم وقدرتهم
حق قدرهم . فهو الذي أصلح نظام مالية روسيا لما كان وزيراً للمالية فيها ،
 ووضع بذلك أساساً متيناً لنهضتها وارتقاها . وكنت أشعر بارتياح عظيم الى
صلاتي بهذا الرجل الممتاز بحسن ذوقه السياسي . وقد تعلمت منه أموراً

كثيرة ، وكان احتكاكي به من بواث الشجاعة لي
 وكان فون (ميخائيلس) رجلاً مدهشاً واسع الاطلاع كثير الخبرة في
 جميع شئون الحكومة . وكان حديثه العذب كله حياة ونشاطاً ، فاذا تكلم
 أوضح لسامعيه المسائل المعروضة على بساط البحث ايضاحاً تاماً ، لانه يعرف
 كيف يدقق في البحث والاستنتاج . وكان استنتاجه صريحاً ونهائياً ، يظهر
 بجلاء تام كما تظهر الخيوط الحمراء التي يلقبها الحائك في نسيجه . ولم يكن للهر
 (ميخائيلس) نظير في الشؤون التاريخية . وكان وقوفه على اللغات الميثة باعثاً
 على الاعجاب الشديد . وقد اعتاد ان يأخذ هيكل خطبه من الكتاب
 الرومانيين ، وأن يدعم آراءه بعبارات لاتينية لا يستسدها من القواميس بل
 من خزائن معارفه الواسعة . فالسامع لا يعمل كلامه الذي كان كله عظات بل يجد
 نفسه أسيراً بين يديه

وقد شجعتني فون (ميخائيلس) وشد أزري في مشروع ترعة «ميتلاند»
 الذي عارض فيه المحافظون البروسيون معارضة شديدة بغية احباطه . فشدد
 عزائم مليكه وحثه على مواصلة الجهاد الى ان يتم لنا الفوز لانه كان مثلي يعرف
 الفائدة العظيمة التي عادت على هولندا من ترعتها ، والثروة الهائلة التي يمثلها
 نظام المياه البديع في فرنسا ، ولانه ادرك ان الاقنية تجلب اليها جانباً من
 البضائع فتخفف ازدحام السكك الحديد الاخذ في الازدياد . ولو كان لنا في
 ابان الحرب طريق نهري كبير يصل الشرق بالغرب لنقل الذخيرة والجرحي
 ومعدات الحصار والتموين لتمكنت سلكنا الحديدية من ان تضاعف نقل الجنود
 من ميدان الى آخر ولما كانت مسألة الفحم عقبة كبيرة في سبيلنا . على أن
 التركة المقترح انشاؤها هي عمل من اعمال السلم التي تعود عليه
 بفوائد عظيمة

وكان ميخائيلس مدافعاً متحمساً عن الامبراطورية وعن بيت
 (هوهنزولرن) ، وكنت أصغى اليه بكل اهتمام عندما كان يبحث في هذا

الموضوع بما امتاز به من حسن البيان وقد ظل شديد التمسك بالتقاليد القديمة، ولكنه لم يكن يفكر الا في « المانيا العظمى » فينظر نظراً بعيداً واسعاً، ويقدر مطالب العصر وحاجاته حق قدرها

سلك المحرير زمن (مايباخ)

وكان انشاء السكك الحديدية شغلي الشاغل على الدوام ، لاني كنت أعرف من التقارير الواردة الي عن الدفاع الوطني ، ومن تذر أركان الحرب ، ومن مشاهداتي ومعلوماتي الخاصة ، أن بروسيا أهملت اهمالاً تاماً وان سككها الحديدية لا وجود لها . وهذه الحالة كانت شديدة الخطر ، ولا سيما بعد ان بدأ الجيش الروسي يحتشد بكثرة على طول حدودنا ، وبعد ما أخذت السكك الحديدية الروسية تتسع وتنمو بالتدريج

وكان الامبراطور (غليوم الأكبر) قد طلب من الجنرال (مولتكي) تقريراً عن الحالة . وذلك لانه رأى - في أواخر سني ملكه - ان الجيوش الروسية تنتشر ويتضاعف عددها على حدودنا الشرقية بتأثير فرنسا وتحريضها . وكان في طاقة فرق الفرسان الروسية العديدة ان تهدد (بروسيا) و (بوزن) و (سيلزيا)

وقد اطلعت أنا والكونت (والدرسه) على تقرير المرشال (مولتكي) الذي حملنا على تمبئة جيوشنا في الشرق ، وعلى طلب انشاء سلسلة الخطوط الحديدية التي اهمل أمرها الى ذلك التاريخ

وقد احتاج المشروع الذي وضع في عهد الامبراطور (غليوم الاول) وبديء بتنفيذه في تلك الاثناء الى مدة طويلة من الزمن ، ولا سيما القسم الخاص منه بالانشاءات الجديدة . واضطرت هيئة اركان الحرب الى الدفاع عن الجسور « الكباري » الكبيرة القائمة على نهري (القستول) و (نوجا) ازاء المعارضة الشديدة التي أبداهها بعض رجال الحكومة « مايباخ »

وكانت سكك الحديد معدودة كأنها « محفظة نقود الدولة » فلم تكن الرغبة شديدة الا في انشاء الخطوط التي تعود بارباح أليدة . وقد تاهت صعاب بمة في وجه المشروعات العسكرية اللازمة للدفع الوطني لان هذه المشروعات كانت عارية من الارقام الجميلة المرغوب فيها . لذلك لم تنجز الاعمال التي تقرر القيام بها في عهد الامبراطور (غابوم الاول) الا في ابان ملكي . والذي يلقي نظره على خريطة السكك الحديد سنة ١٨٨٨ يستغرب احوال الخطوط الشرقية . ولا سيما خطوط روسيا ، وعدم كفايتها لحاجة البلاد . ويزداد استغرابه اذا فارق بين هذه الخريطة وخريطة سنة ١٩١٤ ، فانما لم اكتفينا بالخطوط القديمة التي كانت لنا لكنا أضعنا المقاطعات الشرقية في سنة ١٩١٤

ولا ريب في أن الوزير فون (مايباخ) خدم البلاد خدمًا جليلًا من وجبة السكك الحديدية لانه كان يساعد على توسيع لسانها . ولانه نظر بعين الاهتمام الى مطالب المقاطعات الصناعية في الغرب تلك المقاطعات التي ارتقت ارتقاء سريعاً مدهشاً مع مراعاة الضرورة العسكرية بقدر الامكان

على ان القسم الشرقي من الامبراطورية لم يكن فيه ما يسبب من الخطورة والجسور « الكبارى » ولا من العجلات والمعدات . بل أعلنت الجمعية في عهد (مايباخ) لاضطررنا الى ارسال مئات من قاطراتنا الى الشرق لاسد حاجنا هيئة أركان الحرب . وكان جسرا (ديرشو) و (مريامبورغ) العريقتان في القده طريق المواصلات الوحيدة الى الولايات الشرقية ، وقد أصرت هيئة أركان الحرب في هذا الشأن اصراراً أدى الى الخلاف الذي نشأ بينها وبين (مايباخ)

(نيلين) و (بود) و (هريشباخ)

أما الوزير (نيلين) فكان موجهاً عنايته توجيهاً خاصاً الى حاجتنا العسكرية . ولا سيما انشاء السكك الحديدية في الجانب الشرقي من بلادنا . ومع ذلك

فقد بقي نقص كبير في الخطوط الشرقية رغم الانشاءات التي تمت فيها . وكان هذا النقص كافياً لمرقاة التعبئة واحباط المناورات

وكانت تلك « الأتفاق الصغيرة » تبعث على القلق . فاجتياز (الرين) الى (مايانس) لم يكن ممكناً الا بواسطة جسر واحد من حشور سكة الحديد . وكذلك عبور (المابن) فإنه كان مستحيلاً الا من جبار (نم نكفورت) . وقد ألحّت ديمّة أركان الحرب مراراً بوضع حد لهذه الحال

ومن الانذارات الغريبة أن الحاجة الى تحسين المواصلات ظهرت بأنهم مظاهرها في تلك المنطقة . فإذا ندم رجل من الغرب قاصداً حوان (تونس) أو السكك الواوية على منفه النهر اليميني فإنه يضطر الى السمر حتى (فرنكفورت) ثم يعود أدراجه من هناك في حين انه لو مر بجوار (مايانس) لوجد نفسه ازاء (يسبادن) تقريباً

وكان الوزير (رد) الرجل اللازم لاثتمام بهذه المهام المختلفة لأنه تقلد قيادة فرقة السكك الحديد في هيئة أركان الحرب . وكنت قد خبرت مقدرته على العمل وقوته ونشاطه وصرعته في اتخاذ القرارات منذ زمن طويل . وبعد سبق له أن عدد لي غير مرة مساويء خطوتنا الحديدية ، ولا سيما من حيث السرعة في نقل الجيوش من الميدانين . وكان يانم نظري بالحاح الى تأهب روسيا وفرنسا تأهباً يجب علينا أن نقابله بتدابير شديدة في مصلحة الدفاع الوطني

وقد اندثت السكك الحديد في بدء الأمر لتسهيل الصناعة والتجارة وتوسيع نطاقهما . ولم يكن لنا بد من مساعدتهما رغم عجزنا عن سد حاجتهما التي كانت آخذة في الازدياد لأن الطرق النهرية المعدة لتخفيف العمل عن سكك الحديد لم تكن قد انجزت

وكانت الحرب في ميدانين - الحرب التي قام شبحها في وجهنا ، واشتد خطرها علينا ، الحرب التي لم تكن مستعدين لها ، لأن الوسائل الفنية اللازمة لسكك الحديد كانت تنقصنا لأسباب مالية ، تلك الحرب الهائلة المنتظرة -

هي التي حملتنا على الاهتمام بالضرورات العسكرية اهتماماً جدياً
لقد كانت روسيا تنشيء بمليارات الفرنسوين شبكة الخطوط الحديدية
الكبرى لتستعملها ضدنا ، في حين أن فرنسا كانت تعمل ليل نهار على اتقان
خطوطها الحديدية بجعل الخط الواحد ثلاثة خطوط وأربعة خطوط ، مع أن
هذا الأسلوب لم يكن معروفاً عندنا

وشرع الوزير (بود) يعمل في الحال . فقام جسر جديد للسكك الحديد
فوق الين بيجوار (مايانس) ونصب غيره فوق النهر على مقربة من (كوسيم)
وانشئت بعد ذلك الفروع والعقد اللازمة لايجاد المواصلات مع خطوط الضفة
اليمينية لنهر (الين) ومع (ويسبادن) . ثم انجز مثلث (بيارينخ — موشباخ)
في آخر الأمر

وبعد وفاة (بود) صار فون (بريتنباخ) عوناً لي في تنفيذ مشروعاتي
المتعلقة بالسكك الحديدية ، وكان يعمل يداً واحدة مع أركان الحرب

وانتهت بعد ذلك المجادلات التي قامت حول مشروع (قنال ميتلند) ،
وكان انتهؤها على ما يوافق رغبتي . وتقدمنا في الانشاء بخطوات واسعة في
زمن (بريتنباخ) ، وكنا نعمل في الوقت نفسه في توسيع (قنال القيصر
ويلهلم) وتعميقه ، وفي انشاء الاقنية البحرية الكبرى في (امدن) . ولاريب
أن ما قننا به في هذه الاقنية البحرية كان أعظم شأناً مما عمل في (باناما)

استطاعه قوى التنباه ضربة بطردهم

وانما تعرضت لهذه التفاصيل لفرض خاص أرمى اليه . فأنا أريد أن أبين
الأمور الآتية :

١ — النفوذ والتأثير اللذين يستطيع صاحب التاج ان يستعملهما — بما له من
رأي ونشاط شخصي — لفائدة بلاده وارتقاءها

٢ — استخدام صاحب التاج اكفاء الرجال في كل عمل باستقلاله عن العصبيات الحزبية

٣ — المآثر الكبرى والترقيات العظيمة التي يمكن الحصول عليها اذا عمل الوزراء مع ملوكهم بصدق واخلاص

وزارة المعارف

وكنت على صلة تامة بوزير المعارف والاديان . وقد نشأ اهتمامي بهذه الوزارة عن أسباب لا تخفى على أحد

وكان الهر فون (غسار) والهر فون (تروت) أعظم الوزراء الذين تعاقبوا في هذه الوزارة أهلية وأكثرهم اقتداراً . وكان مدير المعارف الهر (ألتوف) النابغة أكبر مساعد لهما ، بل الركن الوحيد لهذه الوزارة

وقد أظهرت لى تجارب سنوات الدراسة كثيراً من مساويء التهذيب في مدارس الجيميناز (النازوية) ببلاذنا ، فان الروح الفلسفية التي سيطرت على المدارس أسفرت عن تعليم ناقص

وكنت قد لاحظت في سني ١٨٧٤ - ١٨٧٧ اعجاب الشبيبة في جامعة كاسل بانتصارنا سنة ١٨٧٠ - ١٨٧١ وبالامبراطورية الجديدة ، مع ان المانيا العظمى ، المانيا الادبية رافعة لواء الحضارة ، لم تكن منهومة كما يجب . وهذا ما اعلسته وأنا أوجه كلامي الى كرامة شعبي لما وضعت الحجر الاول في قصر (سالبورغ)

ولم يكن في طاقة معلمي الشبيبة ان يغرسوا فيها هذه المبادئ الطيبة وان يبنوا في قلب الناشئة العواطف الشريفة النافعة ويشيدوا دعائمها على أساس متين . ذلك لان برنامج الدروس كان منقلا بالغات الميتة . وكان التاريخ الوطني مهملاً الى درجة لا يتصورها العقل ، مع أنه هو الجذوة التي تتقد

حماسة في قلب الشبيبة ، وهو العامل الوحيد على غرس المبادئ الوطنية في النفوس ، والمصدر الذي تستمد منه فكرة « ألمانيا القوية العظمى »

وكان الطالب يجهل كل شيء تقريباً من تاريخ القرون الماضية والحداث التي وقعت بعد سنة ١٨١٥ ، وكانت المدارس تخرج انضباطيين في علم الامتات ، ولا تخرج وطنيين مدبرين بترتية الامبراطورية الدابة الناهضة . أي أنها لم تكن تخرج شبانا المانيين يشعرون بكرامتهم القومية

وكنت احاول مراراً في الاجتماعات الصغيرة المخادسة بالادب ، أن أثبت أنا وزملائي في المدرسة في موضوع « ألمانيا العظمى » واذ كان في ذكره الاتفراد وأقاوم المبادئ التي تناقض « الفكرة الألمانية الكبرى »

وكان كتاب الاميرال (فارنر) عن الاسطول الألماني من الكتب النادرة التي تضرع نار الحماسة وحج الامبراطورية في التلويح

سباب الانحطاط وسباب الانعكاس

وقد اتجهت النظاري الى هذه التربية المدرسية الناقصة ولا سيما الى الروح التي كانت تشرف على وضع برامج النشوية . فان الغاية التي توختها تلك البرامج كانت مقصورة على أعداد الموظفين فقط . وهذه الخطة يمكن تفسيرها بان الطريقة التي كانت سائدة في روسيا القديمة قد نسرت بها ان الامبراطورية الألمانية الجديدة

وما دامت الدولة مؤلفة من حكومة وادارة على ما وصفنا فان اتجاه حياة الشبان المانيين الاتجاه الذي تقدم ذكره كان طبيعياً ، لاننا كنا نعيش في دولة من الموظفين ، وكانت مسألة التوظيف وسيلة سهلة يتوسل بها كل شاب لخدمة بلاده

أما الشبان الانكليز فكانوا يشعرون بكرامتهم الشخصية ، ويعملون على تقوية ابدانهم بالالعاب الرياضية التي عرفتها في (ايتون) . لذلك كانوا يبحثون دائماً في الفتح الاستعماري ، والحملات المرسلة الى البلاد الجديدة من الكرة

الارضية . وتوسيع نطاق التجارة البرلمانية . وكانت غاية آمالهم ان يحققوا فكرة « بريطانيا الكبرى » ، بريطانيا التي تزداد قوة ومنعة بعد ما تصبح محور المنظمة والجلال

كانت انكثرا منذ زمن طويل امبراطورية علمية في حين أننا لم نكن الادولة درة فين . لذلك كانت آمال الشبيبة الانكليزية وألمانيا أدغم وأسمى من الآمال والألماني التي كنا نجدها في شباننا على ان الشبيبة كان يجب دليها ان تكيف آمالها وألمانيا بالسرعة الممكنة بعد ما صارت ألمانيا عاملاً لا يمكن إهماله في شؤون العالم السياسية والاقتصادية وكثيراً ما كنت أقابل - في ابان ملسكر - بين مواطني الشبان ذوي الوجوه الصفراء والأجسام العجينة . والشبان الانكليز أعزاء النفوس الذين يعنون قليلاً بدرس اللاتيني واليوناني

نعم ، ان ألمانيا أنجبت رجالاً ذوي نشاط واقدام - كالذين طبقت شهرتهم الخافقين من أبناءنا - ولكن سائر أبناء بلادنا لم يفهموا تماماً أنه يجب عليهم أن يخدموا الوطن ليس بالسعي الى الحؤول على شهادة رسمية بل ببجهد حر وتزاحم مشمر

واذا اتخذت انكثرا مثلاً فذلك لاني فضلت ان انوه بما فيها من الفضائل والمزايا على أن أضع النظارة امام عيني وأطوف باحثاً منقّباً في أربعة أقطار العالم ولما اشتدت عزائي بهذه الملاحظات أقدمت على العمل ، فكنت الامبراطور الذي جاهد أعظم جهاد لتنفيذ الاصلاحات المدرسية خدمة لمصلحة الشبيبة في ألمانيا ، وذلك بالرغم مما لقيته من المقاومة العنيفة التي ابداهها علماء اللغات والآداب في البلاد وفي الحكومة وفي الجامعة . ولكن هذه الاصلاحات لم تتم لسوء الحظ بقدر ما كنت اؤمل ولم تسفر عن النتائج التي كان يمكننا ان نحصل عليها

ومع أننا ننفي بنشيد « ألمانيا فوق الجميع » فانه لم تظهر « الفكرة

الجرمانية « باتم مظاهرها ولم يتلقنها الشعب الالماني — الذي استولت عليه الدهشة — الا في كتاب الهر (تمبلان) عن « القرن التاسع عشر ». ولكن هذا التعب كله قد ذهب — واأسفاه — ادراج الرياح . والدليل على ذلك ما نراه من تفكك عرى الاتحاد بين الشعب الالماني . فان الرغبة في تنفيذ أوامر العدو قضت بهدم اركان الامبراطورية وتقطيع اوصال الدولة الالمانية

لقد تمكن الجناة القادمون من روسيا من ذر الرءاد في العيون مع انهم دوننا بمراحل في كل شيء فطعن الجيش الالماني بخنجر في ظهره بينما هو يحارب حرب الجبارة . فلو ان الالمان على اختلاف طبقاتهم ومداركهم قد شبوا وفي قلوبهم عاطفة الابتهاج والتفاخر بجنسيتهم لما كان هذا الذل الاختياري ممكناً مهما تقلبت الاحوال

على ان هذا الانحطاط لا يسهل تأويله ولو وقع في ساعات مخيفة هائلة ، لان الشبيبة الالمانية سلكت في الحرب سلوكاً لا غبار عليه ؛ فقامت باعمال لا مثيل لها في التاريخ ، مع ان كثرة الكتب خظنت لونها ، ومع ان الالعب الرياضية لم تعد لها للحرب كما اعدت شبيبة انكترا

لقد اثبتت الحرب من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩١٨ ماذا يستطيعه الشعب الالماني اذا احسنت ادارته ، واستخدمت مواعبه العظيمة على أحسن منوال ان الشبان ظهروا بمظهرهم الحقيقي في ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ ، اولئك الذين جاءوا من كل انحاء الامبراطورية بقلوب كبيرة ، ونفوس عزيزة ، وأنوف شاحخة ؛ لافرق بين طبقاتهم ومداركهم ، وعدوا بعد ذلك من أبطال المعارك . انهم اثبتوا — ازاء اخطار الحرب الطويلة ، وازاء الموت — ما يقدر عليه الالماني اذا عدل عن ان يكون « فريسياً » وحارب بالحماسة التي لم يشتهر بها دائماً فعسى ان لا ينسى الشعب الالماني ما اكتشفه في نفسه من المزايا الحسنة وعسى ان يواصل سعيه في سبيل الرقي ، بعد ما تستولى عليه الروح الالمانية الحقيقية التي لا يمكن ان تموت

الفصل السابع

﴿العلوم والفنون﴾

المدارس العليا — الأستاذ سلافي — الأستاذ شيمان — جمعية انقيصر
ويلهلم — عابتي بالآثار الألمانية — اهتمامي بالآثار القديمة
وجمعية المستشرقين ، — الأستاذ ليرشه والآثار الآشورية
البحث عن الآثار القديمة في كورفو

المدراس العليا

كنت دائماً شديد العناية بالمهام العظيمة الواسعة النطاق الملقاة على عاتق
وزارة المعارف والأديان وبكل ماله صلة بهذه الوزارة من فنون ومباحث
علمية وطب وما شاكل ذلك ؛ فبذلت قصارى جهدي في سبيل ترقيتها
والسير بها الى الأمام بقدر الامكان

وكنت مسروراً كل السرور بالنجاح الذي نالته المدارس العليا . فان
ما بلغته العلوم من المنزلة السامية جعل الشبان يقبلون على هذه المدارس ،
حتى غدت الآثار التي أوجدها أساتذتنا ومن تخرج على أيديهم من مهندسينا
غرة في جبين الدهر ، ومفخرة للاسم الألماني في هذا العصر

الأستاذ سلافي

كان الأستاذ (سلافي) من أشهر أساتذة (شار تونبورغ) ، وكان على
اتصال بي الى أن أدركته الوفاة ، وكان يرسل الي التقارير الضافية عن
اكتشافاته الأخيرة

ولم يكن يكتفي بما يفيض علي من معلوماته عند زيارتي له في معمله ،
بل كان يأتينا الى قصرنا الذي كان في غابة (مارش) فيبهجنى أنا والامباطورة
بأحاديثه اللذيذة

وكانت محبتي للاستاذ (سلابي) ناشئة عن كونه انساناً خصباً ، لا عن كونه عالماً . فقد كان من أعظم لذاتي الأدبية سماع هذا الاستاذ وهو يذكر وجهة نظره الى أية مسألة من مسائل الحياة وبعد أن أدركت أهمية الفائدة التي يمكن الحصول عليها من المدارس العلمية العالية ، وبعد أن شاهدت ماثر أمثال (سلابي) و (اينتش) . رأيت من الواجب أن يكون لهذه المدارس مكان في مجلس الأعيان اسوة بالمدارس الجامعة . ولكن المدارس الجامعة احتجت على ذلك الى وزارة المعارف والأديان ، ونشأ حينئذ جدال عنيف بين صنوف مختلفة من العلماء في سبيل الكرامة ، وانتهى الأمر بأن أنفذت مرادي بإرادة رسمية أصدرتها . (تالتي (سلابي) هذا الخبر وهو يشتغل في معمله فتلا ارادتي الرسمية على تلاميذه الذين قابلوا ذلك بتصفيق حاد . ومن ذلك اليوم استطاعت المدارس العلمية العليا أن تبرهن على كفاءتها للمكانة السامية التي رفعت اليها

الاستاذ شيمانه

وكنتم أئق ثقة أكيدة بالاستاذ شيمان العالم المعروف . فانه كان بلطيقياً حقيقياً فضلاً عن كونه سائساً بعيد النظر ومؤرخاً سامي المكانة ، وكاتباً بارعاً ، وقد دافع عن المصالح الألمانية تجاه دعاوي الصقالة دفاعاً حسناً ولقد أفاض علي معلومات كثيرة عن المقاضات الشرقية . وكان يختلف كثيراً الى منزلي ، وصحبني في رحلتي الى (طنجة) وكنتم اذاكره سرّاً في كثير من شؤنا السياسية قبل ان تخرج من حجاب السكتمان . وقد برهن لي على اني كنت مصيباً في ائمانه والاعتماد على كتمانه للأسرار وهذا مثال على اتفاق رأيينا في الشؤون الروسية : لما عقد الصلح سنة ١٩٠٥ في (پورتسموث) بين اليابان وروسيا بوساطتي ووساطة الرئيس (روزفلت) كانت الأندية الرسمية في (برلين) مهمة بمعرفة الخطة التي

ستجري عليها روسيا بعد تلك الحرب • وكان الرأي السائد يومئذ بوجه عام أن روسيا المستاءة من انكسارها ستولي وجهها بعد الآن شطر الغرب، ولا سيما ألمانيا، فتبحث لها هنا عن متكأ جديد تنكئ عليه. وكانوا يرون أن ذلك هو المخرج الذي يوصل روسيا إلى الانتقام من اليابان واسترداد ما خسرت من بلادها ونفوذها. أما أنا فكنت على خلاف ذلك تماماً، ورأيي هو أن الروس يجب أن ينظر إليهم بأنهم أسويون وصقالبة، وبصفتهم أسويين يمكنهم أن يتفقوا مع اليابان برضى وطيب خاطر، وبصفتهم الأخرى الصقلبية تدعوهم فيما بعد إلى أن يحولوا وجوههم عن الألمان إلى اليابان (١)

إن انديتنا الرسمية كانت تستخف برأيي هذا وتسميه خيلاً. فدعوت (شييان) في أحد الأيام وسألته عن رأيه في هذه المسألة وذكرت له رأيي فيها وكم كان سروري شديداً عند ما رأيت أنه يفكر في هذه المسألة كما أفكر ويحكم عليها كما أحكم. وبقيت أنا و (شييان) وحدنا على هذا الرأي مدة طويلة، وكان الذين يزعمون أنهم على علم صحيح بالروس من (البرلينيين) وأنديتهم الرسمية مخدوعين في هذه المسألة ذات الخطورة في السياسة الخارجية

جمعية القيصصر ويلهلم

كان من الواجب قبل كل شيء العمل لاجتماع ارتقاء في الاكتشافات الكيماوية، وقد مكنتني وزير المعارف (تروت) ومديرها (ألنوف) من تأسيس (جمعية القيصصر ويلهلم) التي كانت عوناً لنا على القيام بأعمال خطيرة. وبواسطة هذه الجمعية استطعت أن أتعرف بأهم رجال الاختصاص في كثير من العلوم فعددت الاواصر مع كثيرين منهم، وكنت أزورهم في بيوت عملهم فأشاهد مساعيهم بنفسي. ولقد أسسنا للجمعية معامل كيماوية، كما أن أعضاء الجمعية كانوا يمدون غيرهم بالمال لتشجيعهم على إنشاء مثل هذه المعامل. واني

أفتخر كثيراً بتأسيس هذه الجمعية لأنها تفتت الوطن منافع جليلة كما أن أفراد الأمة كلهم استفادوا من اكتشافات علمائها . ولكن الحرب وبالإلحاف قد سلبتني اللذة التي كنت أحصل عليها من هذا العمل كما سلبتني غيرها . وها أنا اليوم بعيد عن علمائي الذين هم قوام جمعيتي ، وما أشد الألم الذي أشعر به من هذه الجهة ، وحسبي أن أتمنى لهذه الجمعية خلود تفعها للعلم والوطن

عنايتي بالآثار العلمانية

واضطرت في أول عهدي الى أن أعنى ببعض الانشاءات المختلفة . فقد رأيت من الواجب على أن أنشيء لاجدادي أثراً تذكارياً جديراً بهم . لأن ضريح (شارلوتنبورغ) لم يعد كافياً

ثم إن قصور التاج في (برلين) والولايات كانت من الوجهة الصحية وغيرها في حاجة الى الإصلاح السريع ولا سيما (قصر برلين) . فبعد ما درست حالة هذه القصور درساً دقيقاً عمدت الى العمل على اصلاحها . وقد قضيت في ذلك مدة الثلاثين سنة التي حكمت فيها . وكنت اعمل أحسن ما يمكنني بكل تأني وسرور ، مع احترام الآثار التي تركها أجدادي . وكان يساعدني في هذه المهمة بعض المهندسين (ايهن) ورجال الفن . وكان للامبراطورة (فريدريك) بما لها من حسن الذوق الفضل الأكبر في اصلاح قصر برلين واخفاء الخطأ الذي ارتكبه مهندسو العصر الغابر

وكان لوالدتي نظر عام في الشؤون الفنية . فقد كانت تقول ، دائماً « يبقى الطرز الهندسي مهما يكن نوعه جيلاً ومرغوباً فيه ما دام بسيطاً ونقياً » اما (ايهن) فكان يسمى النهضة الفنية التي ظهرت سنة ١٨٩٠ « شيئاً يشبه الهندسة » . وكانت (دار الصور) آخر آثاره ، لانه توفي لسوء الحظ في عنفوان الشباب

على ان هذه المهمة التي أخذتها على عاتقي لم تنته الا في النصف الاول من

الحرب . وكان قصر آبائي الذي أصلحته بكل عناء وفاخرت به عرضة لرصاص العصابات النائرة التي استولت عليه ونهبته ودمرتة

الضمامي بالآثار القديمة

والجمعية الألمانية للآثار الشرقية

ان العناية بالآثار الفنية من أقدس واجبات الدولة . وهذا الواجب لا مناص من القيام به سواء كانت الحكومة فردية أو دستورية أو ديمقراطية . لان الآثار إنما هي مظهر من مظاهر رقي الامة يشجع وجودها رجال الفن ويساعد عن اتساع نطاقه

وكنت أقضي ساعات فراغي في درس الآثار والحفريات . وكانت غايي معرفة أحوال الفن اليوناني في العصور الخالية ، والوقوف على المنهج الذي نهجه الشرق للتأثير في الغرب . وكان علم آثار (الاشوريين) عظيم الأهمية في نظري لانه يفضي الى ايضاح (العهد القديم) والتثبت من (التوراة) . لذلك قبلت بسرور عظيم ان أراس (الجمعية الألمانية للآثار الشرقية) . وتوغلت كثيراً في هذه المباحث وبذلت جهدي في شد أزرق القائمين بها

وقد حضرت جميع الجلسات العامة التي عقدتها هذه الجمعية وبسطت فيها نتيجة أبحاثها . وكانت صلاتي حسنة جداً بلجنتها الادارية . وكنت أقف دائماً بكل دقة على نتائج الحفريات في (نينوى) و (آشور) و (بابل) و (مصر) و (سورية) وتوسطت مراراً لدى الحكومة التركية طالباً حماية هذه الحفريات وتسهيل مهمة العلماء القائمين بها وتمكينهم من مواصلة أعمالهم

الاستاذ دليتزشه

والآثار الآشورية

وقد ألقى الاستاذ (دليتزشه) الذي كان عضواً في الجمعية عدة محاضرات

عن (بابل) وعن (التوراة) . ولكن سامعيه كانوا لسوء الحظ قليلي الخبرة في هذه الشئون ، ولم يكونوا على استعداد تام لادراكها ، لذلك فست محاضراته تفسيراً سيئاً وانتقدت انتقاداً شديداً ، وكانت الاندية الكنسية في جملة المنتقدين

أما أنا فحاولت أن أساعد على إيضاح المسألة ، ولما رأيت أن كثيرين من زعماء الاكليروس البروتستان والكاثوليك شديداً الاهتمام بعلم الآثار الاشورية بينما الشعب بأجمعه لا يعيرها الاهمية التي تستحقها عملت بمساعدة صديقي العزيز الكونت (هلس هزل) على تمثيل رواية (آشور بنيبعل) ومثلت الرواية بعد استعداد طويل باشراف (لجنة الآثار الاشورية) ودعى اليها جميع علماء الآثار في العالم كله . فكنا نرى في المسرح ساعة التمثيل الاساتذة ورجال الدين الكاثوليك والبروتستان واليهود جنباً الى جنب وقد شكرني كثيرون منهم لاني أظهرت بتمثيل هذه الرواية ماذا يمكننا ان نتظر من اعمال الحفر التي بدأنا بها ، ومكنت الجمهور من ادراك أهمية الآثار الاشورية

آثار كورفو

وساعدني الحظ مدة اقامتي في (كورفو) على خدمة علم الآثار القديمة باهتمامي باعمال الحفر . ومكنتني اكتشاف تمثال يمثل رأس (غورغون) بجوار مدينة (كورفو) من أن أدير العمل شخصياً . فدعوت الاستاذ (دُربفيلد) الى مساعدتي ، وهو أستاذي في علم العاديات ، والعالم الخبير بشئون اليونان القديمة . وعهدت اليه الاشراف على أعمال الحفر وصار هذا العالم الجليل الذي كان مثلي مغرمًا باليونان القديمة من أعزّ خلاني وأخلص أصدقائي فيما بعد . فقد لقني معلومات مفيدة عن الهندسة ، وعن طرز البناء عند اليونان القدماء واللاتينيين

ولقد أسفرت الحفريات الاثرية في (كورفو) عن نتائج مهمة ، ولا سيما فيما يتعلق بالدور الذهبي الاول ، فان الحفريات دلت على وجود صناعة قديمة جداً ترجع الى ذلك الدور . والظاهر أن اكتشاف تمثال رأس (غرغون) ذو فائدة في تعيين الصلة بين آسيا وأوربا ، وذلك ما كنت شديد الرغبة في معرفته . وكنت أرفع التقارير الى الجمعية الاثرية بانتظام ، وعملت مع الاستاذ (كارو) المشهور في (أثينة)

وأخذت أعد محاضرات أثرية لالقيها في الجمعية عند اجتماعها لسنة ١٩١٤-١٩١٥ ، وكنت أظن أنني سأميط اللثام في هذه المحاضرات عن كثير من الغوامض التاريخية

ولما كنت في (كورفو) زارني كثيرون من الأثريين الانكليز والامريكيين وهم من قدماء تلاميذ (دريفلد) ، وكان هؤلاء أيضاً يعملون بنشاط لحل المسائل المشكلة التي كانت تظهر لنا بين حين وآخر ، لأنهم سبق لهم البحث عن الآثار في الانضول ، واقتنعوا بان لآسيا تأثيراً مهماً في تكوين الفنون اليونانية الجميلة بأول ادوارها ، فلما اكتشفت آثار (كورفو) سلموا بتأثير الشرق على الصناعة اليونانية

وفي سنة ١٩١٤ حضر الاستاذ (دوهن) الهيدلبرغى الى (كورفو) ليرى آثارها . وبعد أن درسها طويلاً وافق على رأيي ورأي (دريفلد) وكنت أشعر بسرور حقيقي لدى سماعي (دريفلد) ينشد اشعار (هوميرس) ويعلق عليها . فانه كان يأخذ خريطة اليونان ويبين فيها مستعمرات (الآخيين) القديمة التي دمرتها هجرة (الدورين) وذلك استناداً الى وصف الشاعر وبياناته والظاهر ان أسماء هذه المستعمرات قد نقلها المهاجرون معهم وأطلقوها على البلاد التي نزحوا اليها . لذلك تعذر على العلماء معرفة مركزها الحقيقي . على ان الاستاذ (دريفلد) توصل بفضل (هوميرس) الى كشف كثير منها وتعيين مراكزها بالدقة التامة

وكان يستند الى الاوصاف الجغرافية الدقيقة التي وصف بها الشاعر العظيم تلك الجهات . وكنت وأنا أسمع (دريفلد) أشعر بقوة تدفعني الى اختبار ما يقوله لي زيارة الاماكن التي سماها . لذلك ذهبت أنا والامبراطورة بصحبة (دريفلد) بجرأ الى لوكاه (ايتاك) وزرنا الاماكن التي خلدت ذكرها (الاوذيسة) واحداً فواحداً . وقرأ علينا (دريفلد) حينئذ وصف (هوميرس) لهذه الاماكن فاضطرت بدهشة عظيمة الى الاعتراف بأن هذا الوصف ينطبق تماماً على المناظر التي كنا نراها

على أن الحفريات التي قت بها في (كورفو) عادت بنتائج عظيمة سأ بسطها في كتاب خاص

وبعد فان امبراطور ألمانيا - الذي يهتمونه بأن لا يفكر في غير الفتح والسلب ، وبأنه متعطش الى الدماء ، وأنه هو الذي أعد أسباب الحرب - انما كان يشغل في ربيع سنة ١٩١٤ بمثل هذه الاشغال . وبينما كنت أنا منهمكاً بحفريات (كورفو) كانت معدات الزحف تعد لنا في روسيا والقفقاس . ولما سئل قيصر روسيا في أوائل سنة ١٩١٤ عن برنامج السياحات التي يريد أن يقوم بها في تلك السنة قال :

- سأبقى في بلادي هذا العام ، لأن الحرب واقعة ...



الفصل الثامن

﴿ رأيت في الأديان ﴾

الخلاف بين الكاثوليك والبروتستان — اتصالي برؤساء الدين — زيارتي
البابا لاون الثالث عشر — في سبيل اتفاق الكنائس البروتستانية
القسيس درياندر — كتابي الى الاميرال هولان — الوحي
الدائم والوحي المنقطع — شريعة
موسى وشريعة حمورابي

الخصوف بين الكاثوليك والبروتستانت

كانت صلاتي بالكنيسة موضوع بحث طويل استنفدت مقادير من الجهد.
لقد أدركت وأنا في مدرسة (بون) لما كنت أمير بروسيا ما للخلاف
الديني بين الكاثوليك والبروتستان من التأثير السيء في البلاد، فان شقة
الخلاف بين المذهبين بلغت حدها الأقصى من الاتساع، حتى أن أشرف
(الرين) و(وستفاليا) عمدوا الى مقاطعتي عند ما كنت في الصيد والقنص

اتصالي برؤساء الدين

وقد بدأت منذ ذلك الحين أفكر في إيجاد وسيلة تمكن انصار المذهبين
من أن يعيشوا معاً بسلام لمصاحبة الوطن، فجمعت أحسن صلاتي بالاساقفة
ورؤساء الدين، ولا سيما بالكردينال (كوب) رئيس أساقفة (سيجار)
والدكتور (شولت) والپرنس (برترام) أسقف (تيال) والمونسنيور
(فولهبر) والكردينال فون (هرتمان)

وكان هؤلاء الرؤساء كلهم من عظماء الرجال، ازدانت بهم الكنيسة
الألمانية التي أظهرت في ابان الحرب العظمى أعظم إخلاص للإمبراطور والوطن،
بذلك مما يدل على ان الخطوة التي نهجتها أزلت سوء التأثير الذي أحدثته جماعة

أعداء الدين ، ولا سيما لأنني وعدت الكاثوليك بأن أمهد لهم سبل الحياة الطيبة-
الهنئية في الامبراطورية

أجل ، لقد كنت دائماً على أتم صلة بالبرنس أسقف (برسلو) وبالكردينال
(كوب) الذي خدمني باخلاص تام ، فوضعت به ثقتي ، وجعلته وسيطي
المؤثر لدى (الثاينكان) . وكان دأبه أن يدافع عن وجهة النظر الألمانية ،
ومع ذلك بقي مظهرأ للحرمة والرعاية في (رومية)

زيارتي البابا لاوون الثالث عشر

لم يعرف الجمهور الا القليل من الصلات الودية المشربة بالثقة التي كانت
تربطني بالبابا لاون الثالث عشر . فقد أخبرني أحد أمراء الكنيسة الذي كان
يأتمنه البابا على اسراره انني اكتسبت ثقة البابا منذ زرته للمرة الأولى ، وذلك
لاستعمالي الصراحة التامة في حديثي معه ، ولا فاضتي في ذكر الأمور التي
كانوا يكتُمونها عنه عادةً

ان حفلات الاستقبال في الثاينكان تقام على الدوام باستعداد وبأبهة
لا مزيد عليهما . فالجنود السويسريون مرابطون بكثرة في القصر حيث حرس
الاشراف يغدون ذهابا وإيابا بملابسهم اللامعة ، وحيث اساقفة القصر
وموظفوه ورجال الكنيسة مستعدون دائماً لتنظيم هذه الحفلات التي تدل
على عظمة الكنيسة الكاثوليكية في رومية . وفي زيارتي الأولى للثاينكان
اجتزت الدار والمأشي والقاعات التي كانت غاصة بالمستقبلين حتى جلست ازاء
البابا ، وكان في مكتب صغير لا يدخله النور الامن نافذة واحدة . وان منظر
هذا الشيخ الجليل ، الذي كل الشيب رأسه الجليل ، ودلت نظراته التي تحترق
الفؤاد على ما في قلبه الكبير من كنوز الحكمة ، كان له أعظم تأثير في نفسي .
وقد بحثنا في مسائل شتى من المسائل التي كانت تشغل العالم في ذلك الحين .
ومرني جداً ان اسمع البابا يعرب عن شكره وارتياحه الى حالة الكنيسة

والكاثوليك في ألمانيا . وقد أكد لي أنه سيفرغ قصارى جهده ليحمل .
الكاثوليك الألمانين على ان يتباروا مع اخوانهم في حب الوطن والاخلاص له
وكان البابا يعرب عن عطفه عليّ ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وهكذا
استقبل حاشيتي ورجالي استقبالا خاصا في احدى زياراتي لرومية . ثم انه
ندب المونسنيور (كوپ) الاسقف - البرنس لحضور الاحتفال بافتتاح
الباب الذي اصطنعته لكتدرائية (متز) . وبلغني انه رقى المونسنيور
(فيشر) رئيس اساقفة (كولونيا) كردينا لا تذكارا لهذا الاحتفال

وقد ارسلت الى رومية في سنة ١٩٠٣ وفدا خاصا لينوب عني في
الاعراب عن عواظي وأمانتي للبابا في عيده الفضي ، وعهدت الى البارون
الجنرال فون (لي) الذي كان صديقا مخلصا للبابا في أن يتقدم بهذا الوفد
الى القاتيكان

وزرت البابا لاون الثالث عشر للمرة الثالثة والاخيرة قبل وفاته ببضعة
أشهر ، وقد تقدم قداسه لاستقبالي وصاحفي بكتا يديه ، رغم ضعفه وبلوغه
الثالثة والتسعين من العمر

وعقب هذه الزيارة التي كانت مشربة بالود الأكيد كتبت ماجري لي
يومئذ في مذكراتي ، وقد وقع نظري على هذه المذكرات منذ أيام قلائل
ومما أعلنه لي البابا في تلك الزيارة أنه لا يستطيع أن يكتم عني اعجابه
الشديد بالمبادئ التي أسير عليها في ادارة بلادي . وقد قال : انه رأيي وأنا
اعمل ، وراقب عملي بعين الاهتمام ، فأدرك بكل سرور ان سلطتي كانت قائمة
على اسمي المبادئ المسيحية . وزاد على ذلك ان هذه السلطة مستمدة من
المبادئ الدينية ، وانه يستمطر بركات السماء عليّ وعلى اسرتي وعلى
الامبراطورية الالمانية جمعاء ثم منحني البركة الرسولية . وسمعت بسرور عظيم
قول البابا لي « ان المانيا يجب عليها أن تكون سيف الكنيسة الكاثوليكية »

فأجبت « ان الامبراطورية الرومانية القديمة لم تعد تشمل الامة الالمانية ، وان الحال تغيرت كثيراً » ولكن قداسته ظل مصراً على رأيه

وأعرب بعد ذلك عن شكره لي مرة أخرى على ما أعانيه في خدمة الجميع ، وفي جلتهم رعاياي الكاثوليك . وكان القسس قد ذكروا له المساعي العديدة التي بذلتها في مختلف الشؤون ؛ لذلك رأى ان ينوّه أمامي شخصياً بما يشعر به الكاثوليك نحوي من عواطف الشكر والامتنان . وقال ان الكاثوليك الالمان سيخلصون لي في السراء والضراء ويحتفظون على الدوام بهذا الاخلاص الثابت الأ كيد . فشعرت بسرور عظيم لدى سماعي هذا الاطراء من رجل عظيم له ذلك المقام السامي . فقلت : اني أعد من أقدر واجبات الملك المسيحي ان يبذل كل قواه لخدمة جميع رعاياه بلا فرق ولا تمييز . ثم أكدت لقداسة البابا من جهتي ان الجميع يستطيعون القيام بواجباتهم ازاء رأس الكنيسة ببحرية تامة ما دمت في منصب الحكم في بلادهم . وهذا هو المبدأ الذي عزمت على السير عليه فلا أحيد عنه قيد أنملة ماحيت

ولما كنت قد أكدت لمواطني الكاثوليك ان لهم أن يقوموا بواجباتهم الدينية في ألمانيا ببحرية تامة اطمأنوا لذلك ، وسادت السكينة في الرأي العام ، فأخذ يزول الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت زوالاً تدريجياً

في سبيل انقراض الكنائس البروتستانتية

لا أنكر أل امراء الكنيسة الكاثوليكية — عدا الكردينال كوب — كانوا بالرغم من كل ما تقدم يعتبرونني « ضالاً » . وأعلم ان هذا الرأي لم يتلاش تماماً من المحيط الكاثوليكي في جنوب الامبراطورية وشرقها . نعم ، لقد قيل غير مرة ان الكاثوليك شاموا السعادة في ابان حكمي ، وانهم شاكرون لي ذلك . ولكن العداء المتزايد الموجه اليّ من كنيسة رومية في مسألة الزواج المختلط وفي سياسة حزب الوسط كان في كل حين يثير على

« ضلاتي » حسّ الخوصومة الذي كان يظن أنه قد تلاشى تحت السطح الذي كان يظهر أنه في حالة السكون من أجل ذلك كنت أتمنى لو تتفق الكنائس البروتستانتية الموجودة في بروسيا ثم الموجودة في ألمانيا ثم الموجودة في اوربا كلها . غير اننا لم نتوصل وبالأسف الى نتيجة ايجابية . وكان اتحاد الكنائس في بروسيا باعناً على الارتياح غير أن الكثيرين من امراء المملكة كانوا ينكرون حق الكنيسة عليهم ويقاومون فكرة الاتحاد بين الطوائف البروتستانتية ، لذلك لم يمكن دوام اتحاد الكنائس البروتستانتية الالمانية رغم ما بذلته في سبيل ذلك من جهد ، وظهرت بمظهر العجز عن مقاومة القوى العدائية التي كانت مواجهة اليها ولم يحصل الاتحاد المنشود الا في حرب الثورة عند ما كانت الكنيسة مهددة بالخطر ، فان عهد الاتحاد عقد في كنيسة (قصر ديتنبرغ) في عيد الفصح سنة ١٩٢٢ ، وكان ذلك باعناً لي على السرور العظيم

القسيس درياندر

لما كنت اقضي خدمة الجندية للمرة الاولى في (بوتسدام) لاحظت أن الوعظ في الكنائس ليس على ما ينبغي ؛ لانه قاصر على ذكر المراسم الدينية . أما شخص السيد المسيح فقد أهملوا الكلام عنه . ولكني عرفت بعد ذلك القسيس (درياندر) في (بون) فرأيتة يعظ الناس بسيرة السيد المسيح ويتكلم على النصرانية العملية ، فدعوت (درياندر) الى برلين وجعلته واعظاً في الكنيسة العظمى وفي القصر . وظلّ (درياندر) باعث السلوة الروحية لي بمواعظه حتى بعد ٤ نوفمبر « يعنى تاريخ انفصائه عن العرش » وطالما ذاكرت (درياندر) في شئون الكنيسة ، وفي واجب البروتستانتية ومصيرها ، فكنا نتناقش في هذه الموضوعات بتروّ وامعان ، وكان (درياندر) يعرب لي عن آرائه ببحرية تامة فأجديني متفقاً معه في الرأي ، وانهم أن ترتقى الكنيسة البروتستانتية

وبعد ٩ نوفمبر صار (درياندر) أيضاً معرضاً للظلم والاضطهاد

كتابي الى الاميرال هولمان

أما آرائي في الدين فقد أجمتها في كتاب أرسلته الى الأميرال (هولمان) على أثر بيان للاستاذ (دليتز) بشأن بابل والتوراة . واني أضرب صفحاً عن القسم الأول من هذا الكتاب وأذكر منه القسم الثاني وهو :

في ١٥ فبراير ، ١٩٠٣

عزيزي هولمان ،

أريد أن أعرب لك مرة أخرى عن آرائي في الكتب المقدسة ، وفي الدين الموحى به . وأنت تعلم يا عزيزي هولمان ما هي تلك الآراء ، لأنني أفضيت بها مراراً إليك ؛ والى سائر أعضاء الجمعية . والذي أعتقد أنه هنالك نوعين من الوحي : وحي متواصل دائماً ذو صبغة تاريخية ، ووحى ديني بحث قد مهد لمجيء المسيح

وأقول في الوحي الأول ما يأتي : ان الله يتجلى على الدوام في البشرية التي خلقها ، ولا يخامرني أقل شك في هذا الشأن . فان البارئ جل جلاله قد نفخ روحاً في الانسان ، أي نفخ فيه جزءاً منه ، وهو يقرب نمو الجنس البشري بعناية الأب . ويسهل هذا النمو بتجليه تارة في شخص حكيم كبير ، وتارة في شخص كاهن أو ملك ، وقد يكون الشخص وثنيّاً كما يكون يهودياً أو مسيحياً خموراني وموسى وابراهيم وهوميروس وشرلمان ولوثيرس وشكسبير وغوت وكانت والامبراطور غليوم الأكبر كانوا كلهم من المختارين . وقد من الله عليهم بمواهب كثيرة ، وتولاهم بنعمته ، ومكنهم من أن يخدموا أممهم الخدم الجليلة الخالدة التي أرادها ، سواء من الوجهة الأدبية أم من الوجهة المادية فكم مرة أعلن جدي أنه آله بيد الله . وان أعمال عظماء الرجال انما هي هدية يقدمها الله للشعوب لكي تقتدي بها ، وتستنير بنورها في ظلمات هذا العالم واضطرابات

ولا ريب في أن الوحي اختلفت أنواعه باختلاف الشعوب واختلاف منزلتهم من الحضارة والرقى . ولا يزال الوحي مستمراً الى اليوم فكما أننا نطأ على الرءوس اجلالاً لعظمة الخلقة كلها تأملنا فيها ، وكما أننا نقف حائرين أمام عظمة الخالق وقدرته ؛ كذلك ننظر بعين الاعجاب الى القوة الالهية التي تظهر في كل ما يفعله الفرد أو الشعب من الأمور العظيمة السامية . وهكذا نرى آثار العمل الالهى ظاهرة فينا وبادية علينا

أما النوع الثاني فهو الوحي الدينى أو التجلي . وقد بدأ منذ عهد (ابراهيم الخليل) ، وظهر فيه تأثير الوحي الالهى بأعظم مظاهره ؛ فأثقت البشرية من هلاك محقق

لقد كان (ابراهيم) وشعبه وذريته يمتقدون بخالق قدير واحد ، ويقبلون هذا الاعتقاد بكل نتائجها ، ويعززون في نفوسهم بكل ما اوتوه من قوة الايمان

ثم سحقهم العبودية في (مصر) ومزقت أوصالهم ، فجاءهم (موسى) بقوة الوحي ، ووثق عرى اتحادهم مرة أخرى . وظل الرب يحى الشعب اليهودي بتدخله المباشر الى أن ظهر (المسيح) الذي تنبأ عنه الانبياء . والمسيح هو أعظم مظهر تجلى به الرب في العالم لأنه تجلى في شخص ابنه . فالمسيح هو الله ، الله الذي صار انساناً . فخرنا ، وقوى عزائنا ، ودعانا الى السير وراءه . فنحن نشعر بحرارته في نفوسنا ونستمد القوة من عطفه علينا ، ونخور قوانا من مجرد استيائه منا ، ولكننا نعلم اننا نلنا يده ويقبضنا

ولما كنا على ثقة تامة بالنصر وبكلمته الالهية فاننا نحمل صليبننا ونحمل آلامنا غير ممتريين بما نعانيه من الشقاء والويلات والاهانات ، حتى نصل الى القبر حيث تتجلى لنا كلمة الله التي لم تكذب قط

هذا هو معتقدي . وان كلمة الله في نظرنا نحن البروتستانت صارت بفضل لويس كلمة الانجيل الخالصة من كل شائبة . وان (دليتز) بصفته عالماً من

علماء اللاهوت لا يقدر أن ينسى أن (لوثيرس) الكبير هو الذي علمنا
الأنشاد والایمان

ولاريب عندي في أن العهد القديم (التوراة والزبور والكتب الأخرى)
يحتوي على صفحات عديدة كتبها يد البشر فلا يمكن أن نعدّها الاصحفاً من
التاريخ لا تتضمن شيئاً من الوحي الالهي . وهذه الصحف هي وصف
لحوادث تاريخية ذات صلة بحياة الشعب الاسرائيلي وشؤونه السياسية والدينية
وأخلاقه وعاداته وأطواره النفسية

فالحالة التي ظهر بها (موسى) يوم أعلن شريعته على (طور سيناء) يجب
أن تعد من الرموز الموحى بها ، لأن موسى - الذي رأى شعبه بلغ من
الانحلال وضعف الارادة مبالغاً لا يستطيع معه الوقوف - اضطر الى الالتجاء
الى الشريعة القديمة « التي يرجع أصلها على الغالب الى شريعة حمورابي »
فأخذها وجمعها وسبكها في قالب ملائم لروح ذلك العصر

ويستطيع التاريخ أن يجد صلة كبيرة في المعنى والمبنى بين شريعة (موسى)
وشريعة (حمورابي) صديق (ابراهيم) ، ولا يبعد أن تكون هذه الصلات
معقولة وان نجد لها ما يبررها . ولكن ذلك لا يؤثر في حقيقتها ، وفي أن
الله هو الذي أوحى بها الى (موسى) وانها ظهرت كذلك للشعب الاسرائيلي
وهذا ما يجعلني أعتقد بأن استاذنا المحترم يجب عليه أن يتحاشى البحث
في مسألة الأديان في المحاضرات التي يلقيها على أعضاء جمعيتنا من الآن
وساعداً . على أنه يستطيع مع ذلك أن يبحث في أديان (البابليين) وأخلاقهم
وعاداتهم في سياق كلامه عن العهد القديم

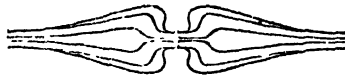
وان ما قدمته يوصلني الى النتائج التالية :

(١) أعتقد أن الله واحد

(ب) لكي ننشر هذا الاعتقاد يجب علينا نحن البشر أن نجد له شكلاً

يفهمه أولادنا

(ج) وهذا الشكل هو العهد القديم كما وصل إلينا
ولكن الابحاث العلمية والخفريات ستحدث تغييراً كبيراً في هذا الشكل
فمن الواجب ان لا يهملنا ذلك حتى ولو فقد (الشعب المختار^(١)) شيئاً من
منزله ، لأن المفزى والروح يبقيان كما هما : الله وتجلياته
لم تكن الديانة يوماً ما بنت العلم لأنها شعاع يخرج من القلب ومن جوهره
الفرد بالاتحاد مع الله
هذا واني أهديك في الختام فائق شكري مع عواطف صداقتي وأنا على
الدوام
صديقك
غليوم — الامبراطور والملك



(١) هو الاسم الذي يطلق على اليهود في التوراة

الفصل التاسع

﴿ الجيش والاسطول ﴾

صلي بالجيش - الجيش مدرسة - معداتنا الحربية
الاميرال هولان والاسطول
الاميرال تربيتز وأعماله

صلى بالجيش

ما من أحد يجهل صلاتي الحسنة بالجيش ، تلك الصلات التي كنت أعمل دائماً على توثيق عراها ناهجاً نهج آبائي وأجدادي . فان ملوك روسيا لم يسموا وراء الخيالات البعيدة ، بل كانوا يعرفون عن ثقة أن البلاد لا تنمو الا اذا كان لها جيش قوي يحمي سكانها العاملين ويصون تجارتها . فاذا كنت قد أعلنت غير مرة في خطبي ان « البارود يجب ان يبقى ناشفاً والسيف مشحوداً » فان هذا الانذار كان موجهاً الى الاعداء والاصدقاء معاً . وقد قصدت بهذه الاقوال افهام الخصم بأن الواجب عليه انعام النظر ملياً في عواقب الامور قبل أن يناصر بنا العدا

وأردت أيضاً أن أثبت عواطف الرجولية في الشعب الالماني ، حتى اذا ما أزفت الساعة التي اضطر فيها الى الدفاع عن ثمرة اتعابنا ضد عدو غشوم مغتصب نجد لدينا امة قوية باسلة تقف في وجهه وتحول دون تحقيق آماله

و كنت أعلق أهمية كبرى على مهمة تعليم الجيش وتنقيفه ، وأعتقد أن للخدمة الاحبارية تأثيراً اجتماعياً عظيماً لأنها تقرب الغني من الفقير ، وابن الريف من ابن المدينة ، وتعلم الشباب على اختلاف درجاتهم وتباين انواع معيشتهم أن يتعارفوا ويتفاهموا ويتحابوا

ثم ان الرغبة في خدمة غاية واحدة تجمع بينهم وتوحد آمالهم وأمانهم .
 وقد توصلنا الى نتائج عظيمة من هذا القبيل ، فشباننا الذين اعتلت ابدانهم
 واصفررت وجوههم تحولوا بفضل الخدمة العسكرية الى رجال أشداء واكتسبت
 عضلاتهم القوة والمرونة كأنما خلقوا للالعاب الرياضية .

واني استعمل عبارة الملك (فريدريك غليوم الثالث) فأقول : اني
 ارتقيت من قائد لواء الى عرش المملكة رأساً . ولكنني اجتزت قبل ذلك
 جميع رتب الضباط حتى باغت تلك القيادة . ولا يزال أذكر بسرور عظيم
 ذلك العهد البعيد حينما ظهرت للمرة الاولى على رأس فصيلتي يوم ٢ مايو سنة
 ١٨٦٩ أمام جدى الامبراطور في ابان مناورات الربيع

وكنت دائما احرص على العلاقات الشخصية وأقدرها قدرها . وقد احببت
 ساعات الخدمة لانها كانت تمكنني من تعزيز هذه العلاقات . واني اذكر
 نلى الدوام ما بذلته من النشاط لما كنت قائد بلوك فقائد بطارية مدفعية
 ثم كوارنيلاً

وكنت - وأنا بين جنودي - اشعر بأني في بيتي ، وكانت ثقتي بهم على أتمها
 ولا تزال كذلك ، لان تجارب خريف سنة ١٩١٨ المؤلمة لم تؤثر فيها أقل تأثير
 ولا يمكنني أن انسى ان الشعب الالماني قد أصيب بدهاء شديد على أثر
 انهم ودات العظيمة التي بذلها والاكلام الشديدة التي عاناها في أربعة أعوام
 متواصلة ، فلم يعد في ذاقتهم اثبات ازاء دسائس العدو في الداخل والخارج .
 شلى ان خيرة الرجال كانوا قد قتلوا في تلك الاثناء . وذعر الباقون من جراء
 الثورة الغريبة التي يعجز العقل عن تصويرها ، فلم يستطيعوا ان ياموا شعورهم
 بالسرعة المطلوبة لاقيام بعمل جدي

الجيش مدرسته

وكانت الخدمة العسكرية - في الوقت نفسه - مدرسة أدبية للشعب ،
 وكم أخرجت من رجال ذوي مدارك وتفكير حر ، فنبتغ من بين الجنود

صغار الضباط ومن بين هؤلاء قواد كفاء ماهرون مخلصون لواجباتهم تحسدنا الدنيا على مثلهم . وان الاخلاص الذي شاهدته في هؤلاء الرجال الطيبين هو سلوكي العظيمة الآن . وان بلوكي التقديم - البلوك الثاني من ألابي الحرس الاول - الذي صحبني في السراء والضراء لم ينس قط قائده السابق . وقد رأيته للمرة الاخيرة عام ١٩١٣ بمناسبة الاحتفال بمرور ربع قرن على جلوسي ، وكان عدد جنوده ١٢٥ جندياً بقيادة النقيب ^(١) (هارتان)

لقد تبوأ الضباط في الحكومة المكانة الخاصة بزعماء الأمة المسلحة ومهذبيها . وكنت اسر بنوع خاص لما يبني وبين الضباط من الصلات المتينة حتى غدوت بمنزلة الاخ الحقيقي لهم

ولا ازمع أنهم كانوا مبرأين من الاهواء المادية المعروفة في هذا الزمان . ولكن التضامن الموجود بين الضباط ، واخلاصهم للواجب ، وفكرة السذاجة التي عندهم - كل ذلك مما لا يوجد بجلاء تام في أهل صاعا اخرى كما هو موجود في الضباط . وهم لا يرتقون الا بعد امتحان دقيق لا يوجد مثله في عمل آخر . أما الجنرالات وكبار القواد فلا يكونون الا من ذوي المبادئ والمعارف العالية والكفاءة

وكان رجال أركان حربنا عبارة عن مدرسة عالية لضباطنا . فالمشير (مولتكه) لم يقتصر تدريبه الضباط على تعليمهم واجباتهم العسكرية فقط ، بل قد استطاع ان يخرج منهم رجالا يتحملون مسئولية الاعمال ، ويقومون بالشئون المهمة على انفراد ، ويصدرون الاحكام الصائبة في الحوادث المختلفة بفكر واسع ونظر بعيد . وبالجمله فانه كان يرمى في تهذيب الرجال الى جعلهم « رجال عمل » وقد سار خلفاؤه على طريقته من الكونت (والدرسه) الى الكونت (شليفن) فالجنرال فون (مولتكه) . وقد قام رجال اركان حربنا باعمال جليلة في الحرب كان العالم كله ينظر اليها بعين الاعجاب

معارتنا الحربية

وكنت قد ادركت منذ البدء أن تنظيم معداتنا الفنية وإيصالها إلى درجة الكمال من أعظم الوسائل اللازمة للجيش ، فانها تقيه كثيراً من ويلات الحروب، وتمكنه من الاقتصاد في الدماء الثمينة التي تراق فيها. لذلك بذلت كل جهد مستطاع لتعزيز معدات الجنود ووضع الآلات الميكانيكية في خدمتهم. وكانت المدفعية الضخمة أول سلاح جديد أوجدته ، وقد صادفت مقاومة شديدة في بدء الامر ، وكانت هذه المقاومة من رجال المدفعية خاصة . وقد سررت جداً لأنني تمكنت من التغلب عليها وتنظيم المدفعية الضخمة التي يعود إليها الفضل في جميع الأعمال العظيمة في الحرب الماضية ولا سيما لأن أعداءنا قضوا زمناً طويلاً قبل أن يلحقوا بنا ويجارونا في هذا الميدان

ويجدر بي أن لا أنسى انتراليوز الذي صار أعظم قوة في يد المشاة بعد ما كان من الوسائل الثانوية . فان بنديقات المتراليوز التي حلت محل البنديقات العادية قد زادت قوة النار وقللت الخسائر من الرجال

وكان لاستعمال المطابخ النقالة شأن عظيم . وقد رأيت هذه المطابخ تعمل للمرة الاولى في ابان مناورات الجيش الروسي ، وتساعد مساعدة عظيمة على حفظ قوة الجيش وعلى اعطاء الجندي غذاء صحياً ساخناً

ولا ريب في أن المجهودات البشرية لا يمكن أن تكون كاملة ، ولكنني استطيع مع ذلك أن أقول بلا مبالغة أن الجيش الألماني الذي حشد للقتال في سنة ١٩١٤ كان جيشاً لا مثيل له في العالم

الاميرال هولمانه والاسطول

إذا كنت قد وجدت الجيش الألماني يوم ارتقأ العرش في حالة لا ينقصه معها سوى التمرين والتثقيف وفقاً للمبادئ العسكرية المعروفة فان الاسطول الألماني كان في الحقيقة اسماً بلا مسمى

وقد بذل الاميرال فون (هولمان) وزير البحرية كل المجهودات الممكنة لاقناع (الرخستاغ) صاحب الافكار القديمة البالية بوجود تعزيز الاسطول تعزيزاً منظماً بالتدرج . ولكن مجهوداته كلها ذهبت أدراج الرياح ، لان النائب (ريختر) أحبطها بعبارات هزلية سهلة ، ولان احرار حزب الشمال - الذين ساروا سيراً أعمى وراء هذا الرجل - أصروا على غيهم . ورفضوا ان يفتحوا عيونهم للنور . فطلب مني (هولمان) حينئذ أن أبحث عن خلف له . وقد وافقت على ذلك بأسف شديد ، لان هذا الرجل البسيط سليل أسرة من الاسر الكريمة في (برلين) ، وقد أكتسب ثقتي فأحببته لصراحته واخلاصه ووجهه للواجب ، وقدرت هذا الرجل حق قدره ، وبقيت على صلة تامة به الى أن أدركه الأجل فجأة

وكنت أتردد دائماً على (هولمان) ، وأجتمع في منزله باعضاء (جمعية العاديات الالمانية للشرق) . وكان هو أيضاً يزورني مع بعض اخصائه . وقد وجدت فيه رفيقاً لا مثيل له في ابان سياحاتي ، وكنت أعده من أعز أصدقائي وأخلص خلاني . أما هو فقد ظل على الدوام الرجل الذي لا يطلب شيئاً لنفسه . فياها من مدينة سعيدة تلك المدينة التي تنجب مثل هذا الرجل الذي لا أزال احفظ له أجمل عواطف الود والاحترام

الاميرال ترييتز

وحل الاميرال (ترييتز) محل (هولمان) في البحرية ، وأدرك مثلي منذ أول خطبة ألقاها في (الرخستاغ) عن القانون البحري أن الاسطول لا يمكن تعزيزه ما لم يلجأ الى وسيلة جديدة . لان مقاومة المجلس كانت شديدة لا يمكن التغلب عليها ، وقد عمد الھر (ريختر) الى السخرية في ابان المناقشة ، وكان مزاحه غير لائق بموضوع عظيم الشأن كهذا الموضوع

لقد كانت الحاجة ماسة الى وجود من ينصر وزير البحرية ، سواء في

الوزارة أو في الراخستاغ . وذلك يقتضي اقتناع الراخستاغ أولاً بضرورة الاسطول وقيمتة وخطورته ؛ ثم يجب لفت أنظار الشعب نحو الاسطول والتأثير على الراخستاغ بواسطة الرأي العام ، ولا يكون ذلك الا بئث الدعوة الواسعة في الصحف على أن يؤازرها في ذلك العلماء اليقظون وأساتذة المدارس العليا الغيورون . وفضلاً عن ذلك فإن من الواجب أن تعرض شئون الاسطول على الراخستاغ منفردة ، حتى يرسخ في الأذهان ان للأسطول كياناً غير كيان الجيش

وكان عدد الذين يدخلون (المدرسة البحرية) في أول عهدي يختلف في السنة بين الستين والثمانين على الأكثر . أما في السنوات الأخيرة التي سبقت الحرب فكان الشبان يتقدمون اليها بالآلاف

على أننا أضعنا ١٢ سنة من أئمن سني تاريخنا بسبب عناد (الراخستاغ) وقد عجزنا عن تعويض هذه السنوات لأن الأسطول كالجيش لا يسهل اعداده بين عشية وضحاها

وان الغاية التي كان يجب أن نرمي اليها مذكورة في باب « خوف المغامرة » من القانون البحري . أي ان اسطول العدو مهما يكن عظيماً يجب عليه ان يفكر ملياً قبل الاقدام على مناصبة أسطولنا العداء ، وان الخوف من الخسارة التي يتكبدها في ابان المعركة والتي تتركه غير صالح للقيام بأعمال أخرى يجب ان يمنعه عن مهاجمة الاسطول الألماني . وقد ظهر « خوف المغامرة » باتم مظاهره في معركة (سكاغراك ^(١)) فلم يجزأ العدو — رغم تفوقه العظيم — على قبول معركة بحرية ثانية . فنجم « طرف الغار » قذأفل ، والفخر الذي كلل هام انكساراً على أثر تلك المعركة لم يكن ليعرض للخطر مرة اخرى

وكنا قد اتخذنا عدد الوحدات الموجودة أساساً للتقدير الذي اعتمدنا عليه في اعداد القانون البحري ؛ وقد فكرنا في بوارج الميدان خاصة ، مع ان

هذه البوارج لم تكن الا حداثد أكلها الأسد ، هذا اذا استثنينا البوارج الاربع التي من طرازه « براندبواج »

وقد ظن كثيرون ممن لا يبالون بغير الارقام ان القانون الجديد سيمهد السبيل لزيادة اسطولنا زيادة عظيمة ؛ ولكن هذا الظن لم يكن في محله لان ما كانوا يسمونه اسطولا لم يكن له من الاسطول سوى الاسم . وقد صدق (هولمان) فيما قاله بعد استعمائه من ان الاسطول يموت ببطء من ضعف الشيخوخة ، لان بوارجنا كانت أقدم بوارج اوربا كلها

وعمل (ترييتر) بهمة عظيمة على تنفيذ المشروع الذي وافقت عليه . فبذل عزمًا حديدياً ، وصرف قواه وصحته في تحقيق الآمال التي عقدت عليه حتى تمكن في النهاية من لفت أنظار الرأي العام الى مسألة الاسطول وكنت قد امرته بالذهاب الى (فريدرينخسروه) لعرض مشروع القانون البحري على (بسمرك) واقناعه بحاجة المانيا الى أسطول قوي

وسعت الصحافة سعياً مشكوراً لحمل الرأي العام على قبول المشروع واعداه للموافقة عليه . ووقف علماء الاقتصاد ورجال السياسة الخبيرون بالشئون التجارية أقلامهم على خدمة هذه الفكرة الوطنية السامية . وهكذا توصل الجمهور في النهاية الى تقدير أهمية الاسطول وحاجة البلاد الى قوة بحرية كبيرة

وساعدنا الانكليز في تلك الاثناء على تنفيذ المشروع وحمل الرأي العام على قبوله من غير ان يريدوا ذلك ، فان حرب البوير التي كانت معلنة أوجدت في الامة الالمانية عطفاً عظيماً على ذلك الشعب الصغير ، وبلغ الاشتماز غايته في بلادنا من المعاملة الجائرة التي عومل بها الشعب البويري

وبينما الحالة على هذا المنوال وردت الانباء بان البورج الانكليزية صادرت باخرتين المانيتين كانتا تنقلان على شواطئ افريقية الشرقية بلا سبب ومن غير حق فقابلت المانيا كلها هذه الحادثة باعظم مظاهر الحنق والاشتماز واتفق

أنني كنت والاميرال (تريبنز) في دائرة السكونت (ييلوف) بوزارة الخارجية لما بلغنا خبر مصادرة الباخرة الثانية . فما كاد يقرأ (ييلوف) التلفراف حتى تذكرت المثل الانكليزي القائل « مهما يكن الريح سيئاً فأن فيه فائدة لبعض الناس »

فصاح (تريبنز) قائلاً : « لقد ساعدنا الريح الآن على ابلاغ زورقنا الى الميناء ، فلم يبق لدي أقل شك في الموافقة على القانون . وكان من الواجب على جلالتك ان تنعموا بوسام على القائد الانكليزي الذي كفّل لنا الموافقة على القانون البحري »

وطلب المستشار زجاجة من الشمبانيا فشربنا نخب القانون البحري والاسطول الالماني العتيد والبحرية الانكليزية التي مهدت لنا سبل النجاح ذهبت بعد هذا الحادث بأعوام الى الصيد والقنص في املاك اللورد (لونسدال) في (لوتر كاستل) ، وعند عودتي من الصيد مررت على اللورد (روزبري) من كبار الاحرار الانكليز وأحد وزراء الخارجية والكاتب المعروف بابجائه عن (نپوليون) . وقد تناولت الطعام على مائدته في منزله الجميل في (دالمني كاستل) بجوار جسر (فورت) الكبير على مقربة من البحر وكان بين المدعوين السر (ايان هملتون) أحد الاسكوتلنديين الذين امتازوا في حرب البوير وقد عرفته لما نزل ضيفاً عليّ في ابان المناورات الامبراطورية ؛ ثم حاكم (ادنبورغ) وضابط بحري بريطاني برتبة كاييتن كان يدير ميناء تلك الجهة وقد جلس هذا الضابط الى جانب الاميرال البارون (سندن) أي ازالني تقريباً . وقد لاحظت شدة ارتباكك وهو يكلم الاميرال بصوت مخنوق . وقدمه الاميرال لي بعد الغداء فاستغربت قلقه وارتباكك واصفرار وجهه . ولا ريب في انه كان يبحث في شئون بحرية مع الاميرال ، فلما انتهى حديثي معه سألت الاميرال عما به ، فضحك وقال انه اعترف له على المائدة بانه هو الذي صادر الباخرتين الالمانيتين في أثناء حرب البوير وانه يخشى ان يبلغني هذا الخبر . ولكن الاميرال هدأ روعه بقوله :

— اذا عرف جلالته من أنت قالك بلا ريب أحسن مقابلة . ولا يبعد انه

يشكر لك صنيعك

— يشكرني ولماذا ؟

— لانك ساعدت جلالته مساعدة عظيمة على تقرير القانون البحري

كان أهم ما يجب علينا معرفته لانهج قانوننا البحري ما اذا كان برنامج دور الصناعة البحرية الالمانية صالحاً للعمل به أم لا . وقد برهن الاميرال (ترييتز) على عزيمة صادقة في هذا الباب ، حتى غدت دور صناعتنا البحرية من أهم معاهد الجد والعمل ، بفضل ما لقيته من تشجيعه وتشييطه ، واستطاعت ان تتفوق على دور الصناعة الاجنبية المناهضة لها . وقد ظهر بذلك امتياز المهندسين الالمانين بمعارفهم الواسعة ، وامتياز عمالهم بمهارتهم الحميدة

ان الاميرال (ترييتز) الذي لا يعرف ، للتعب معنى لم يكن قط يعمل من القاء الخطب والمحاضرات ، ولا من مواصلي التقارير ، ولا من مراقبة دور الصناعة البحرية . وقد استطاع أن يشاهد بنفسه ثمرات مساعيه ونتائج اتعابه فاستيقظت الامة من سباتها ، وفهمت قيمة مستعمراتنا ، والطريق الموصل الى ارتقاء تجارتنا في المستقبل . وأضحى الشعب مهتما بالعمل ، وبالاسفار البحرية وباعداد وسائل القوة . وان اولئك المستهزئين من المعارضين كفوا عن استهزائهم بعد ان أطمأطم الاميرال (ترييتز) اللثام عن وجوه القوة في حملته عليهم . فهو لم يكن يمزح ، ولم يمكن أحداً من أن يمازحه

وأخيراً حل اليوم الاكبر فوافق المجلس بأكثرية الساحقة على القانون البحري بعد مناقشة وجدال طويلين . ومن ذلك اليوم صار لالمانيا كيان بحري وغداً ممكناً الشروع بانشاء الاسطول . وبفضل اطالة مدة الخدمة البحرية والانشاءات استطعنا أن نوجد عمارتنا البحرية

وكان يجب ان يسنّ نظام لعمل المناورة بالاسطول ، وادارته ، وللمناورات

الجديدة بوجه عام ، وللإشارات البحرية . فانه عند جلوسي على العرش كان عندنا نظام لأجل فرقة بحرية واحدة تتألف من اربع سفن حربية ، اذان الاسطول الالماني العامل لم يكن يزيد على هذا المقدار في ذلك الحين . ولما كانت هذه السفن ستجرد من سلاحها في الخريف الآتي فالاسطول الالماني سوف يكون في حالة العدم في الشتاء القادم اذا استثنينا الطرادات الموجودة في البلاد الاجنبية . وعلى هذا فانه سيذهب ادراج الرياح كل التعب الذي بذلناه منذ ستة أشهر لايجاد جنود البحرية وضباطها وقوادها والميكانيكيين والوقادين وفي الواقع اننا اذا جردنا الاسطول من سلاحه بعد الخريف ، ثم جئنا نجمع القرعة الجديدة من جنود البحرية في الربيع نجد أنفسنا مضطرين لل شروع بكل شيء من جديد فيحدث طفرة وانقطاع في التليم البحري ويكون البحارة جميعاً في سفائن لم يألفوها . وعلى ذلك أصدرت أمري بأن تبقى السفن العاملة في الشتاء أيضاً لان بقاءها لامناس منه لترقية الاسطول . ولما كنا لانملك سفناً لأجل خط الحرب فان الاميرال (ترييتز) عني بجمع كل ما عندنا من السفن مهما تكن قيمتها وأخذ يعدها لاستعمالها في تجربة نظام المناورة عند تجديده . ثم دعا جميع الاختصاصيين الى الاشتراك في تجديد هذا النظام فعملوا بكل مداركهم لاصلاحه واصلاح الاسطول ، وبذل مثل هذه العناية لتخرج جنود السفن الطريديّة التي هي من أهم الاسلحة البحرية . وفي سنة ١٨٨٧ سررنا واغتبطنا بايجاد أول فرقة طريديّة اخترقت لجج بحر الشمال بقيادة شقيقي الامير (هنري) للاشتراك في عيد مرور نصف قرن على تتويج الملكة (فكتوريا)

ثم التفتنا الى (هليغولند) ، وكانت من قبل محطة للدوارع الخفيفة والسفن الطريديّة ، ثم للغواصات . ولما أردنا أن نجعلها حصينة منيعة حدث خلاف شديد على ذلك بين (راينش) و (بروسيا)

وكان تعزيز الاسطول وجعله قوياً يقتضى توسيع (قنال القيصر ويلهلم)

فقام الجدل أيضاً حول النفقات اللازمة لإنشاء الاقنبة والجاري التزم لذلك حتى تكون صالحة للبقاء طويلاً ومناسبة لضخامة سفن الدريدنوط الجديدة لقد تحقق كل ما كان يقدره الاميرال ، فكان الشاء على مشروعاتنا في هذا الباب والاعتراف بقيمتها من نصيب رجل اجنبي ، ذلك بأننا رجونا حكومة الولايات المتحدة أن تأذن للكونول (كوتهاالس) - الذي أنشأ (قنال بناما) - بأن يزور (قنال القيصرو ويلهم) ، فابت حكومة الولايات المتحدة طامبا في الحال وبينما الكونول (كوتهاالس) يتناول الطعام على مائتي مع الاميرال (ترييتز) سأله الأميرال عن ابعاد اقنية (بناما) فعلمنا من جوابه انها أصغر من أبعاد اقنيتنا . وحينئذ قال له الأميرال :

— اذن فأقنية (بناما) لا تساعد على مرور سفن الدريدنوط الضخمة التي تنشأ الآن ، اما اقنيتنا فتساعد على ذلك
نقال الكونول : - نعم ، هو ما نقول
واثنى على الانشاءات التي تعمل عندنا

وفضلاً عن ذلك فان الاميرال (ترييتز) كان قد عمل على اصلاح وتكبير دور صناعتنا البحرية القديمة التي كان يدعوها (ورشات الحفيج) ، فأفرغها في شكل عصري توفرت فيه كل المعدات الحديثة ، واتخذت جميع الأسباب التي تدعو الى راحة العمال ورفاهتهم

وكان النظام الجديد الذي وضع لوزارة البحرية قد أقام في مقام القيادة البحرية العليا رئاستين جديدتين احدهما أركان حرية امارة البحر ، والثانية وزارة البحرية نفسها . وهاتان الرئاسةان وضعتا — كالجيش — تحت سلطة القيادة الحربية العليا مباشرة . وبذلك لم يبق بين الامبراطور وأسطوله حاجز يحول بينهما

ولما بهر الأميرال (فيشر) الانكليزي العالم كله بسفينة الدريدنوط التي انشأها ساد الاعتقاد بأنه قد ضمن للبحرية البريطانية سلاحاً جديداً فاقت

به على أسلحة سائر أساطيل الأمم ، فان تستطيع أمة بعد الآن أن تضارعها .
ولكن الحقيقة هي أن الدريدنوط لم يكن من بنات أفكار الاميرال (فيشر)
بل من ثمرات دماغ مهندس ايطالى اسمه (كوني برتي) فانه نشر كتاباً لقن به
جميع العاملين في الانشاءات البحرية أفكاراً مختلفة . وكنت على رأي واحد
مع الاميرال (ترييتز) في ان قبول الانكليز لطراز الدريدنوط قد ذهب
بالأهمية التي كانت للسفن الحربية الأخرى . وكان هذا الرأي يصدق على
الأسطول الألماني بوجه خاص لقلة عدد سفائنه
وقال لي الاميرال (ترييتز) :

— اذا اقتفت الدول الأخرى أثر (فيشر) فان انكثرتا ستضطر حينئذ
الى اهمال كل ما كانت تعتمد عليه من قواتها البحرية غير الدريدنوط وتشرع
في انشاء سفن أخرى ضخمة تعدها لمقابلة جميع أساطيل العالم . وان هذا العمل
سيكلفها نفقات طائلة ، لأن المبدأ الذي قيدت نفسها به في أن يكون أسطولها
معادلاً لأساطيل دولتين اجنبيتين سيفتح الباب أمامها واسعاً
ولما كانت الطرق التي انشأنا بها سفننا الحربية لا تجعلها صالحة للوقوف
في وجه هذه السفن الضخمة فقد كان من رأي الاميرال (ترييتز) انه لامناص
لنا من انشاء مثل هذه السفن . وقد برهنت حرب ١٩١٤ على أن الاميرال
كان محقاً في اعتقاده ، لأن جميع السفن التي لم تكن من المدرعات الضخمة لم
تصلح في الحرب للعمل

وقامت قيادة بريطانيا العظمى لما ازلنا الى البحر البارجة الاولى من طرز
« سوپر دريدنوط » لان الانكليز كانوا يعتقدون ان (فيشر) وجاعته محقون
فيما يزعمونه من أن ألمانيا لن تستطيع في حال ما ان تنشيء بارجة كبيرة من بوارج
القتال ، لذلك كانت خيبة آمالهم عظيمة جداً . والحقيقة أنهم أخطأوا في
حسابهم خطأ لم يكن منتظراً منهم ، لا سيما وان دور الصنعة الألمانية كانت
قد انجزت عدداً من البواخر التجارية العظيمة التي يزيد حمولها على محمول

بوارجنا والتي جعلت تزامم البحرية التجارية البريطانية مزاحمة شديدة
ولم تظهر بوارجنا العظمى في (سكاحراك) من طينة بوارج العدو فقط بل
اثبتت تفوقها عليها سواء بسرعة حركتها أم بمزايا السباحة والعم التي تفردت بها
ولم تتمكن قبل الحرب من تعزيز الغواصات كما كنت احب . لان زيادة
الميزانية البحرية لم يكن مرغوباً فيها من جهة قبل ان ينفذ القانون البحري تماماً
ولاننا من جهة اخرى احجمنا ازاء التجديد الذي لم يكن قد ايدته الاختبار
وكان من رأي (ترييتز) ان الغواصات التي تنشئها الدول الاخرى صغيرة
جداً لا يرجى منها اقل فائدة الا في حماية الشواطئ . وقال أيضاً : ان المانيا
يجب عليها ان تنشئ بوارج عظيمة تسير تحت الماء وتستطيع ان تظهر في معركة
بحرية حين الحاجة . لذلك يجب احداث غواصات كبيرة تبلغ درجة السكالم مع
الزمن . واقتضى تنفيذ هذا المشروع زمناً طويلاً وتدابير دقيقة اجريت
في انواع مختلفة من الغواصات . ولهذا السبب لم يكن لدينا الا اسطول صغير
من الغواصات يوم اعلنت الحرب سنة ١٩١٤ . على انه كان في امكان هذا
الاسطول ان يشدد الخناق على انكترالولولا خوف المستشار من ان يدفعها الى
درجة اليأس

وزاد عدد الغواصات زيادة سريعة في ابان الحرب وبلغت حداً من الاتقان
جديراً بالاعجاب

واذا شئنا ان تقدر عدد الوحدات البحرية في أيام الحرب وجب علينا ان
نقسمها الى ثلاثة أثلاث : الأول في ميدان القتال ، والثاني ينتقل من مكان الى
مكان والثالث يرم في دور الصنعة

ومع ذلك فان الأعمال الباهرة التي قامت بها الغواصات الألمانية كانت
موضوع اعجاب العالم كله . فالوطن مدين لبحارتها بأعظم عواطف الشكر
وعرفان الجليل

ويجب ان لا ننسى ان الاميرال فون (ترييتز) هو الذي أوجد مرفأ

(تسنغ تاو) التجاري وان مهارته في الادارة والتنظيم قد ساعدته على بلوغ النجاح في كل ما حاوله من الأعمال . وبمهارته وكفاءته تحول ذلك الموضوع — الذي كان لا قيمة له وفي حكم المجهول — الى مرفأ تجاري تبلغ حركة البيع والشراء فيه خمسين الى ستين مايوناً من المراكات

وتتمكن الاميرال (ترييتر) — بما له من الصلات مع اعضاء الراخستاغ ورجال الصحافة والمعاهد الصناعية الكبرى والاندية التجارية — من أن يصير يوماً بعد يوم ذا كلمة نافذة في السياسة ولا سيما الخارجية . وكانت مسائل السياسة الخارجية تنجر دائماً الى ما يتعلق بالسفن

وان السياحات التي قام بها هذا الرجل البحري في البلاد الاجنبية جعلته وافقاً على أحوال تلك البلاد ووسعت دائرة أفكاره فصار خاطره يليه عند الحاجة ، فمصدر الأحكام النسائية حالاً في المسائل التي تعرض له . ولما كان نشيطاً بالطبع فهو يطالب دائماً بالاسراع في تنفيذ ما يقرره في الشؤون المختلفة ، ويضيق صدره جداً من معارضة الموظفين له ، ومن حالتهم الروحية البليئة

وكان فون (ترييتر) قليل الثقة بميرد ، وان خلقه هذا — بما انضم اليه من انتجارب — قد حماه على أن يسيء الظن بالناس بالحق والباطل ، وعلى أن يتردد بالعمل ، فيستاء من ذلك الذين يعملون معه وتحمو جذوة نشاطهم . وقد يتحول عن رأيه يكون هو الذي ارتآه ، أو يحدث أمر جديد يدعو الى تغيير وجهة نظره . فيدافع عن الرأي الثاني بالحماسة التي كان يدافع بها عن الرأي الأول ، وهذا مما يجعل العمل معه شاقاً وغير لذيد . وفي الوقت نفسه كانت النتائج الباهرة لمسايسه تجعل نفسه كبيرة في نظره ، فلا يكتف شعوره بذات عن أصحابه

وبلغت هذه الحال بالاميرال (ترييتر) حد الافراط اثناء الحرب ثم وقع الاختلاف في الرأي على بعض الشؤون ماوجب ذلك استقالته . وذلك أن

المستشار (بتمن هولوينغ) شكّا الي من أن وزراء الخارجية أصبحوا تبعاً
 للاميرال (ترييتز) وانه صار مضطراً الى ادارة السياسة الخارجية بنفسه ، لذلك
 طلب تنحية وزير البحرية ، ففارقت هذا الوزير النشيط العامل وأنا شديد
 الاسف عليه . واني اسجل هنا شكري الخالد لهذا الرجل الذي لا يعرف
 للتعب معنى وأذكر له دهاءه العظيم في تنفيذ جميع مشروعاته مدة اشتغاله معي
 والآن فاني أعرب عن أمني في أن القوة التي يمثلها (ترييتز) تأتي مسرعة
 لامداد وطننا الغارق في بحر من اليأس والاضطراب ، فان في استطاعة
 (ترييتز) ان يعمل بشجاعته مالا يستطيع كثيرون غيره أن يعملوه ، وهو
 أجدر من أي رجل آخر بقول الشاعر

« ان من أكبر سعادة المرء ان يكون ذا ارادة وشخصية »

وبعد فان الاقوال التي انتقدني بها الاميرال (ترييتز) في كتابه لم تبدل

رأي فيه



الفصل العاشر

﴿ اعلان الحرب ﴾

في روج — لا استمداء للحرب في ألمانيا — دلائل تأهب الاعداء للحرب
 مساعي محفل الشرق الاكبر الماسوني — حماية الامان
 لما في فرنسا من الآثار التاريخية والاملاك الخاصة

في نروج

لما علمت بمقتل صديقي الارشيدوق (فرنسوا فرديناند) تركت أسبوع
 (كيال) وعدت الى البيت وفي نيتي الذهاب الى (فينا) لاشتراك في تشييع
 نعشه . ولكن بعضهم رجا مني العدول عن هذه الفكرة لاسباب علمت منها
 فيما بعد أن سلامتي الشخصية أيضاً كانت موضوع البحث . على أن هذا
 السبب لم أكن لاعبأ به بطبيعة الحال

وقد اشتد قلقي من سير الاحوال وتقلباتها ، فمقدت النية على
 العدول عن سياحتي في الشمال والبقاء في (برلين) . ولم يكن المستشار ووربر
 الخارجية على هذا الرأي ، بل رغبا الي في القيام بهذه السياحة تهدئة اعصاب
 أوروبا والتأثير فيها تأثيراً حسناً . فقاومت فكرتهما مقاومة طويلة ورفضت
 أن أترك بلادي وأنا على شك مما يعده المستقبل

ولكن المستشار فون (بتمن) قال لي حينئذ ان عدولي عن سياحة
 أعلن خبرها يجعل الناس يمتقدون بأن الحالة اسوأ مما هي في الحقيقة . ومن
 المحتمل ان يؤدي عدولي عن هذه السياحة الى اضرام نار الحرب والقاء تبعاتها
 علي . فالعالم كله ينتظر الخبر السار الذي يزيل قلقه فيقول اني عمدت الى
 السياحة بقلب مطمئن رغم اشتداد الازمة

وقد بحثت في هذا الموضوع مع رئيس هيئة اركان الحرب الذي كان
 ينظر الى الموقف بعين الثقة والاطمئنان حتى انه طلب ان يذهب الى (كرلسباد)

ليقضي اجازة الصيف فيها • فلما رأيت ذلك قررت السفر وأنا في حالة شديدة من القلق والاضطراب

لاستعداد للمرب في ألمانيا

اما (مجلس العرش) الذي قيل انه عقد في ٥ يوليو ، وكثر التحدث به في العالم كله ، فقد كان خبره اختلاقاً محضاً أذاعه الاشرار لغاية في نفوسهم • والحقيقة هي أنني اجتمعت قبل سفري ببعض الوزراء - كما كنت افعل دائماً - لاقف منهم على سير الاحوال في وزاراتهم

وكذلك لاصحة لما قيل عن انعقاد مجلس الوزراء . ولم تعرض مسألة الاستعداد للحرب على بساط البحث في اجتماع

وكان اسطولي في مياه نروج - كما هي العادة في اثناء رحلة الصيف - وكنت في ابان توقفي في (بالهولم) أتاى الاخبار القليلة من وزارة الخارجية وأطلع بوجه خاص على ما في الصحف النروجية • وقد أدركت منها ان الحالة تتخرج بالتدرج • فأبرقت الى المستشار واني وزارة الخارجية قائلاً انى أرى من الصواب أن أعود الى (برلين) ، ولكنهما التمساني ان أوصل سياحتى ثم علمت ان الاسطول الانكليزى لم يسرح بعد استعراض (سيات هد) بل ظل معيناً خلاف المأمول ، فأبرقت الى (برلين) مرة أخرى قائلاً : انى لا أرى بدأ من العودة . ولكن (برلين) لم تكن على هذا الرأي • وقد علمت من الصحف النروجية - لان برلين لم تبلغني شيئاً من ذلك - ان النمسا أرسلت انذاراً نهائياً الى صربيا وأن صربيا ردت على هذه المذكرة ، فلم يعد في طاقتي الانتظار ، وأسرعت عائداً الى برلين بعد ما أمرت الاسطول بأن يجتمع في (ولهمسهافن)

وعلمت وأنا على أهبة السفر - من مصدر نروجي - ان قوة من الاسطول الانكليزى اجرت سراً الى المياه النروجية بمهمة القبض على « مع اننا كنا حينئذ في حالة سلم »

ويهمني في هذا المقام ان أدون ما يأتي :

قيل للسِر (ادورد غوسشن) سفير بريطانيا العظمى في وزارة الخارجية
الالمانية يوم ٢٦ يوليو ان عودتي الفجائية تبعث على الاسف لانها ستكون
سبباً في انتشار الاشاعات المقلقة

ولما عدت الى (بوتسدام) وجدت المستشار والخارجية على خلاف مع
رئيس أركان الحرب • فان الجنرال فون (مولتكي) كان يعتقد ان الحرب
لا مناص منها ، في حين ان المستشار ووزارة الخارجية لم تنزع عن ثقتها بأن
الحالة لاتصل الى هذا الحد ، وان الحرب يمكن اجتنابها بشرط ان لا أصدر
أنا الامر بالتعبئة

واستمر هذا الخلاف في الأيام التالية أيضاً ، الى أن أخبرهم الجنرال
(مولتكي) بأن الروس مستعدون لتدمير المنازل القائمة على حدودهم ،
وانهم ينزعون الخطوط الحديدية من جميع محطات الحدود وقد وزعوا أوراق
التعبئة الحمراء • حينئذ بدأ ساسة (ولهمستراس) يفهمون الحقائق ، وقد
ضعفت مقاومتهم كما ضعفت قواهم ، لأنهم لم يريدوا أن يعتقدوا بإمكان
وقوع الحرب

ان هذا كله يثبت بوضوح تام اننا لم نكن مستعدين للقتال في يوليو
سنة ١٩١٤ ، فليعدل الناس اذن عن القول بأننا نحن الذين مهدنا للحرب ،
وأعددنا العدة لها

وقد سأل رئيس حجاب القيصر جلالته في ربيع سنة ١٩١٤ عن برنامج
سياحته في الربيع والصيف فأجابه نقولاً الثاني قائلاً « سأبقى حيث أنا في
هذا العام لأن الحرب ستقع حتماً »

ويقال ان هذا الجواب وصل الى مسامع المستشار فون (بتمن) ولكنني
لم أسمع به حينئذ ولم أعرفه قبل نوفمبر سنة ١٩١٨
وكان هذا القيصر عينه هو الذي وعدني بالشرف الملكي مرتين في (بيوركه)

و (مرفاً البليق) بأن لا يمتشق حسامه في وجه ألمانيا اذا وقعت الحرب في أوروبا، وأنه لا يخوض غمار الحرب في جانب الانكليز خاصة . وقد عزز جلالته هذا الوعد بهزيدي وتقبيلي . وفعل ذلك اعترافاً منه بما أولاه اياه الامبراطور الألماني من الجميل في خطة الود والاخلاص التي نهجها معه في ابان الحرب الروسية اليابانية في حين أن انكلترا - البلاد التي يكرهها - هي التي ألحقت بالقيصر وبلاده ضرراً عظيماً جداً بتحريض اليابان على الحرب وفي تلك الاثناء، بينما كان القيصر يبسط خططه الحربية لقتال السوفيات، كنت أنا أعنى بالعاديات في (كورفو) ثم سافرت الى (ويسبادن) ثم الى (زوج)

وبديهي ان الملك الذي يريد الحرب، ويستعد لمهاجمة حيرانه استعداداً بقضي بالتكتم الشديد والتمهيد الطويل لتعبئة الجيوش وحشدتها، لا يقبل أشهراً عديدة في خارج بلاده ولا يسمح لرئيس أركان حربيه في قضاء اجازة الصيف في (كرلسباد)

أما الأعداء فقد أعدوا في هذه المدة عدتهم لحرب الهجوم بكل دفعة ونظام وارتبكت الهيئات السياسية كلها في بلادنا، لأن الجماعة لم يروا الحرب قادمة اليهم. أما وزارة الخارجية التي تمسكت الى النهاية بمبدأ « تجنبوا الجوادث ! » فكانت مثله بفكرة « السلم مهما يكن ثمنه » حتى انها لم تفكر في أن الحرب يمكن أن تكون وسيلة تتوصل بها سياسة الحلفاء. وهكذا نجد أن السياسة الألمانية لم تقدر نذر الحرب حق قدرها؛ مما يدل على انها كانت راغبة رغبة أكيدة في السلم. وقد أوجدت آراء وزارة الخارجية معارضة شديدة في البلاد لهيئة أركان الحرب العامة ولوزارة البحرية - اللتين كانتا تنذران بالخطر، وتريدان الاستعداد للدفاع - ودامت هذه المعارضة زمناً طويلاً. ولم يتمكن الجيش من أن يصفح عن وزارة الخارجية لأنها مكنت العدو من مفاجأته بما اقترفته من الخطأ. أما رجال السياسة فقد أظهروا امتعاضهم لأنهم رأوا الحرب قادمة اليهم رغم ما أبدوه من المهارة . . .

دلائل نأهب الاعداء للحرب

ان وثائق لا يحصيها العد تدل على أن الحرب كانت تنظم في روسيا وفرنسا والبلجيك وانكلترا في صيف ١٩١٤ ، في حين انه لم يكن في بلادنا رجل واحد يفكر في مهاجمة الحلفاء

وقد جمعت ما عثرت عليه من هذه الوثائق الخطيرة السات في جدول قارنت فيه بين حوادث التاريخ ونظمته شخصياً . ولا أريد ان اشير في هذا المقام الا الى بعض وثائق مختارة من هذه المجموعة الكبيرة . واذا كنت لا اذكر جميع الأسماء فلا يهمل على القاريء ادراك السبب الذي حملني على ذلك وقد وصلتني هذه الوثائق في حينها : قسم منها في امان الحرب ، والقسم الأكبر بعد الحرب

١ — بدأت المصارف الانكليزية بجمع الذهب في شهر أبريل سنة ١٩١٤ أما ألمانيا فقد استمرت على اصدار ذهبها وقبعتها الى الخارج ولا سيما الى بلاد الحلفاء حتى شهر يونيو من السنة عينها

٢ — أبلغ الكابتن فون (كنور) المالحق البحري الألماني في (طوكيو) في شهر أبريل سنة ١٩١٤ أنه دهش « للاعتقاد التام السائد هناك بان الحرب قريبة الفروع بين المحالف الثلاثي وألمانيا » وزاد على ذلك « ان في جو ذلك المحيط عاطفة تشبه عاتقة الشفقة التي يشعر بها الناس ازاء حكم الاعدام قبل صدوره »

٣ — اتفق الجنرال (تشر باتشيف) مدير المدرسة الحربية العليا في (بطرسبرغ) خطبة في اجتماع عقده ضباطه قال فيها ما يأتي :

« باتت الحرب مع الدول الوسطى حاجة لا غنى عنها ، بسبب الخطة التي اتبعتها النمسا في البلقان للاضرار بمصالح روسيا . ويحتمل كثيراً أن تعلن الحرب في فصل الصيف . والشرف يقضي على روسيا بأن تنهج خطة الهجوم في الحال »

٤ - أرسل سفير البلجيكي في (برلين) تقريراً عن وصول البعثة العسكرية اليابانية الى (بطرسبرغ) « ابريل سنة ١٩١٤ » جاء فيه ما يأتي :
 « سمع الضباط اليابانيون في أندية الالايات أن الضباط والجنود يبحثون جهاراً في حرب تعلن قريباً على النمسا وألمانيا . ويقولون ان الجيش مستعد لخوض غمار الحرب ، وان الفرصة سانحة للروس ولحلفائهم الفرنسيين »

٥ - جاء في المذكرات التي نشرها المسيو (باليولوغ) سفير فرنسا السابق في بطرسبرغ في (مجلة العالمين) سنة ١٩٢١ أن الفرندوقة (أناستاسيا) والفرندوقة (شارسكويسيلو) اعلنتا في ٢٢ يوليو سنة ١٩١٤ ان والدهما (ملك الجبل الأسود) أبلغهما بتلغراف رمزي « ان الحرب ستعلن قبل أواخر الشهر على الحساب الروسي - أي قبل أول أغسطس على الحساب الغربي - فتصبح النمسا اُتراً بعد عين ، وتستردون الالتزام والورين ، وتجتمع جيوشنا في (برلين) وتزول ألمانيا من عالم الوجود »

٦ - نشر المسيو (بوكيتشويتش) معتمد صربيا السياسي سابقاً في (برلين) كتاباً سنة ١٩١٩ عنوانه « أسباب الحرب » أشار فيه الى ما سمعه من المسيو (كبون) سفير فرنسا في برلين في ٢٦ أو ٢٧ يوليو سنة ١٩١٤ وهو :
 « اذا استدرجت المانيا الى الحرب فانها تلقى أمامها انكثرا أيضاً ، فيحتل الأسطول الانكليزي (هامبورغ) عنوة ونسحق الالمان سحقاً »

وأعلن (بوكيتشويتش) أدهدا الحديث أقنعه يومئذ بأن الحرب اذا لم تكن مقررة من قبل فانها ستقرر بعد اجتماع المسيو (بوانكاره) بقيصر روسيا في (بطرسبرغ)

٧ - أخبرني رجل روسي كبير من اعضاء مجلس (الدرما) كان يعرف (سازونوف) معرفة تامة عن مجلس العرش السري الذي عقد برئاسة القيصر في فبراير سنة ١٩١٤ وقد دونت في مذكراتي « مقارنة بين حوادث التارخ » ما عرفته عن « هذا المجلس من مصادروسية أخرى . فان المسيو (سازونوف)

خطب فيه مقترحاً على القيصر « الاستيلاء على الاستانة . وبما أن دول الائتلاف الثلاثي لا توافق على ذلك فالحرب تعلن حتماً على ألمانيا والنمسا ، وتنفصل إيطاليا عن حليفتيها الجرمانيتين ، وستكون فرنسا حتماً الى جانبنا . ومن المحتمل ان تنضم انكلترا الينا أيضاً » وقد وافق القيصر على هذا الاقتراح وأصدر أمره باعداد ما يلزم من المعدات

ورفع الكونت (كوكوزوف) وزير المالية الروسية حينئذ الى القيصر تقريراً عارض فيه هذا المشروع ، وقد أطلعني الكونت (ميرباخ) على هذا التقرير بعد صلح (پرست ليتوفسك) . فان الكونت (كوكوزوف) أشار فيه على القيصر بأن يظل صديقاً لألمانيا ، وأنذره بسوء عاقبة الحرب ، وبأنها ستؤدي الى الثورة ، والى انهيار البيت المالكة . ولكن القيصر لم يعبأ بهذه النصائح بل ساعد على تعجيل اعلان الحرب

٨ — واخبرني الرجل نفسه انه دعي الى تناول الغداء على مائدة المسيو (سازونوف) في اليوم الثالث لا إعلان الحرب فقباله صاحب الدعوة بوجه يطفح بشراً وسروراً ، وقال له وهو يفرك يديه — :

« الا تسلم معي يا عزيزي البارون بأني احسنت اختيار فرصة الحرب ؟ » فاضطرب البارون قليلاً ، ثم سأل محدثه عن خطة انكلترا فابتسم الوزير حينئذ وضرب بيده على جيبه وقال وقد أبرقت عيناه : —

« لدي في هذا الجيب شيء تغتبط له روسيا كثيراً بعد بضعة أيام ، ويقف العالم ازاءه موقف الدهشة والاستغراب . لقد أخذت من انكلترا عهداً بأنها تحارب ألمانيا مع روسيا جنباً الى جنب »

٩ — أخبر بعض الروسين من الفيالق السiberية الذين وقعوا في الأسر في روسيا الشرقية انهم نقلوا بالسكك الحديد الى جوار (موسكو) في صيف سنة ١٩١٣ للاستراكة في المناورات التي قيل ان القيصر سيحضرها ولكن هؤلاء الجنود لم يعودوا الى حيث كانوا بل وزعوا في فصل الشتاء على جهات (فيلنا) وقد قيل لهم انهم سيشاركون في مناورات كبيرة أخرى سيحضرها

القيصر . وانتشر هؤلاء الجنود في (فيلينا) وضواحيها كما لو كانوا في ابان الحرب . ثم وزعت عليهم الذخيرة خبأة وقيل لهم انهم في حالة حرب مع ألمانيا . أما سبب ذلك فلم يستطع أحد أن يقوله

١٠ - نشرت الصحف في سنة ١٩١٤ - ١٩١٥ مذكرات لأحد

الامريكيين ضمنها وصف سياحته في (القفقاس) في ربيع سنة ١٩١٤ وقال فيها انه لما وصل الى (القفقاس) في أوائل مايو سنة ١٩١٤ قابل في طريقه الى (تفليس) فصائل كثيرة من الجنود المختلفي الأسلحة ، وكلهم في حالة حرب . وقد خشي ان تكون الدورية قد نشبت في (القفقاس) واستفسر من موظفي قلم الجوازات في (تيميس) عن ذلك فأكدوا له ان البلاد في سكون تام ، وانه يستطيع ان يسافر الى حيث يريد لأن ما رآه لم يكن غير مناورة عسكرية

ولما اتم سياحته في مايو سنة ١٩١٤ عزم على ان يركب البحر في احدى موانئ (القفقاس) . ولكنه وجد المراكب كلها غاصّة بالجنود ، حتى انه لم يستطع ان يحصل على محل له ولا مرآة الا بمجهود عظيم . وقد اخبره الضباط الروسيون انهم سينزلون الى البر في (اودسه) ثم يرحلون الى (اوكرانيا) للاشتراك في المناورات الكبرى

١١ - في صيف سنة ١٩١٨ وصل الى مركز القيادة الألمانية العليا في (بوسمون) الامير (توندوتوف) زعيم القوزاق المقيمين بين (تشاريتشين) و (استراكان) والذي كان مرافقاً للفرنديق (نيقولا نيقولا فيتش) لعقد محادثة مع ألمانيا ، لأن القوزاق الذين ليسوا من الصقالبة كانوا من أعداء البلشفك

وقد أخبر (توندوتوف) ان (نيقولا نيقولا فيتش) أرسله قبل نشوب الحرب الى مركز القيادة العليا ليخبر الفرنديق بما وقع من الحوادث في هيئة أركان الحرب . فسمع هناك المفاوضات التليفونية الشهيرة التي دارت بين القيصر والجنرال (جانوشكو فيتش) رئيس هيئة أركان الحرب

ووقعت برقية الامبراطور الألماني وقعاً شديداً في نفس القيصر ، فعزم على معارضة التعبئة العامة وأمر (جانوشكوفيتش) تلغرافياً بأن يقفها ويرجع عنها . ولكن رئيس هيئة أركان الحرب لم ينفذ هذا الأمر بل كلم (سازونوف) وزير الخارجية بالتلفون وسأله عما ينبغي له ان يفعل . وكان رئيس أركان الحرب هذا متنبئاً بوزير الخارجية منذ أسابيع وشريكاً له في دسائسه ومساعداه لاعلان الحرب

فرد (سازونوف) عليه يقول : ان أمر القيصر خال عن الروية والتعقل وان الواجب يقضي على القائد بمواصلة التعبئة ، وانه سيزور القيصر في اليوم التالي فيعيد اليه رشده ، وهو يعرف كيف ينسبه برقية الامبراطور الألماني الباردة وأبلغ (جانوشكوفيتش) القيصر حينئذ ان التعبئة قد ابتدأت ولاسبيل الى الرجوع عنها . قال الامير (تندوتوف) : ولكن (جانوشكوفيتش) كان يكذب على القيصر ، لاني رأيت بعيني رأسي أمر التعبئة العامة أمامه على المساعدة وكان لم يرسله

ومما هو جدير بالذكر - من الوجهة النفسية - بمناسبة هذه الحوادث أن القيصر (نقولا) الذي مهد للحرب العالمية ، والذي كان قد أصدر أمر التعبئة ، حاول مرة أخرى ان يعود ادراجه الى الوراء . والظاهر ان البرقية العلنية التي بعث بها اليه لاحذره من العواقب فتحت عينيه للذة الأولى وأظهرت له بكل جلاء ووضوح التبعة العظيمة التي أخذها على عاتقه باعلانه هذه التدابير الحربية . وهذا هو السبب الذي حمله على الرغبة في توقيف آلة الحرب ، قاتلة البشر ، التي بدأ بتشغيلها . وكان انقاذ السلم محتملاً حينئذ لو لم يحبط (سازونوف) المساعي المؤدية اليه وسألت الامير (تندوتوف) :

- هل الفرندوق المعروف بيفضه لألمانيا ساعد كثيراً على اعلان الحرب ؟

فقال : ان الغرندوق حرض على الحرب ، ولكن تحريضه لم يزد في الامر شيئاً ، لان الضباط كانوا شديدي الرغبة في محاربة ألمانيا . وهذه الرغبة مستمدة من الجيش الفرنسي ، وقد تسربت منه الى الجيش الروسي . على ان اعلان الحرب كان منوياً منذ سنة ١٩٠٨ - ١٩٠٩ « بسبب الحاق النمسا مقاطعة البوسنة والهرسك ببلادها » ولكن فرنسا لم تكن حينئذ على استعداد لها

والحقيقة هي ان روسيا لم تكن على تمام الاستعداد للحرب في سنة ١٩١٤ لان (جانوشكوفيتش) و (سوخوملينوف) - وزير حرية روسيا يومئذ - حسباً انها لا تقع الا في سنة ١٩١٧ . ولكن توقيف (سazonوف) و (ايزفولسكي) لم يعد ممكناً ، كما ان توقيف الفرنسيين صار فوق طاقة البشر . وكان يخشى الألمان ان تنشب الثورة في روسيا ، ويخافون من تأثير الامبراطور الألماني في القيصر اذ يحتمل ان يقنعه بالمدول عن الحرب . أما الفرنسيون فكانوا واثقين بمؤازرة الانكليز لهم ، وقد خافوا ان يضيعوا الفرصة فتنفق انكلترا مع ألمانيا على حسابهم

ولما سألت الامير : هل كان القيصر شاعراً بالميل الحربي السائد في محيطه ، وهل كان موافقاً عليه ؟

أجابني قائلاً : « أصدر القيصر على سبيل الحيلة والحذر أمراً لا يخلو من مغزى عظيم ، وهو ان لا يدعى الساسة الالمان ولا الملحقون العسكريون الالمانيون الى تناول الطعام مع الضباط الروس في حضرته »

١٢ - عثرت جيوشنا في ابان تقدمها عام ١٩١٤ على مستودعات كثيرة للمعاطف العسكرية البريطانية على طول خط الحدود البلجيكية شمال فرنسا . وقد أعلن السكان ان هذه المعاطف وضعت في مواضعها هذه في سنوات السلم الاخيرة . وكان معظم الضباط الانكليز الذين أسروا سنة ١٩١٤ بلا معاطف ، ولما سئلوا عن السبب قالوا بكل بساطة : « قيل لنا اننا سنجد معاطفنا في مستودعات (موبوج) و (كسنوى) وغيرها في البلجيك وشمالي فرنسا »

وهكذا كانت الحال فيما يتعلق بالخرائط . فان جنودنا عثروا على مقادير كبيرة من خرائط هيئة أركان الحرب الانكليزية للبلجيكا وشمالي فرنسا . وقد رأيت عدداً منها ، وكانت أسماء القرى مكتوبة باللغتين الفرنسية والانكليزية ، وكانت جميع التعليمات اللازمة للجنود مكتوبة باللغتين أيضاً الى جانب الخريطة . وهكذا يقرأ الانسان في هذه الخرائط : مولين — ميل « مطحنة » ، بون — بريدج « جسر » ، ميزون — هوس « بيت » ، قيل — تون « مدينة » ، بوا — وور « غابة » . الخ . وقد وضعت هذه الخرائط سنة ١٩١١ في (سوث هامبتون)

وقد انشأت (انكلترا) هذه المستودعات بموافقة الحكومتين الفرنسية والبلجيكية في ابان السلم وقبل ان تعلن الحرب بزمان طويل فأية عاصفة من عواصف الاشمزاز لم تكن لتهب علينا في البلجيكا ، البلاد المحايدة ، وما هي الاشاعات التي ما كانت تنتشر عنا في فرنسا وانكلترا ، لو أنشأنا في ابان السلم مستودعات للملابس العسكرية وخرائط اركان الحرب في (سبا) و (لياج) و (نامور) !

ولا ريب في ان عصابة (سازونوف - ايزقوسكي) يجب أن تعد في مقدمة العاملين على اعلان الحرب العالمية الى جانب (پوانكاره) . ويقال ان (ايزقوسكي) صرح في باريس - وهو يضرب صدره باعجاب - قائلاً : « أنا أبو هذه الحرب »

والتبعة الملقاة على (دل كاسه) عظيمة ، وأعظم منها التبعة الملقاة على حاتق (غراي) لانه كان روح سياسة « الحق » بصفته منفذاً لوصية مليكه المتوفى ، ولانه نفذ هذه الوصية باخلاص تام

مساعي محفل الشرق الاكبر الماسوني

وقد قيل لي انه كان للخطة المنظمة التي وضعها (محفل الشرق الاكبر) الماسوني في باريس شأن عظيم في اعداد الحرب العالمية التي تقرر اعلانها على امبراطوريتي الوسط الجرمانيتين . وكانت المحافل الالمانية - ما عدا اثنين منها

وقعا في قبضة الممولين الاجانب وكانت لهما صلات سرية بمخفى الشرق الاكبر
 بباريس - مستقلة عن (مخفى الشرق) تمام الاستقلال - وقد حافظت على
 اخلاصها وصدقتها الى النهاية اذا صح ما سمعته من المراسل في الالماني الكبير
 الذي أخذت منه كل هذه المعلومات وأطلعني على أمور كنت أجهلها .
 وعقدت محافل الشرق الاكبر مؤتمراً دولياً في باريس سنة ١٩١٧ تلتها
 على الاثر مفاوضات مهمة في سويسرا . ويقال ان هذا المؤتمر وضع البرنامج
 التالي وهو فصل النمسا عن الجبر وجعل ألمانيا دولة ديمقراطية واقضاء (اسرة
 هابسبورغ) عن العرش وخالع الامبراطور الالماني واعادة (الاراس والفورين)
 الى فرنسا وضم (غلبسيا) الى (بولندا) واتحاد سلطنة البانيا ونفوذ الكنيسة
 الكاثوليكية وسائر الكنائس الاوربية

ولم تمكنني الاحوال حتى اليوم من تحقيق هذه الاخبار الخطيرة الشأن
 التي عرضت علي باخلاص تام عن مساعي محافل الشرق الأعظم وخطتها . ولا
 يخفى ان الجمعيات السياسية السرية العلنية لا تزال منذ أول عهد التاريخ تلعب
 ادواراً مهمة في حياة الشعوب والدول . وكانت أعمال بعض هذه الجمعيات
 في مصلحة البشرية . ولكن البعض الآخر لم يكن في الحقيقة سوى قوة
 مخربة يعمل أفرادها ويتمارفون باشارات سرية تخشى الظهور الى النور
 وأشد هذه الجمعيات خطراً هي التي تعمل بحجة الدفاع عن بعض المبادئ
 السامية كحب الغير ومساعدة الضعفاء والمساكين وغير ذلك مما تقتدر به
 للوصول الى اغراضها الخفية

ومهما يكن الأمر فن الضرورى بذل العناية التامة لدرس أعمال محافل
 الشرق الأدنى ، لان تقرير الخطة التي يجب ان تتخذ ازاءها لا يتيسر الا بعد
 الوقوف على حقيقةها

ولا أتكلم في هذا الكتاب عن الاعمال الحربية لاني أترك ذلك بكل
 ارتياح لضباطي وللتاريخ ، لا سيما وان المستندات والوثائق اللازمة لذلك

ليست في يدي • فما يمكنني تدوينه في هذه الحال لا يتعدى المعلومات العامة

انني كلما فكرت فيما شعرنا به في سنوات الحرب الاربع وفي هذه السنوات من آمال وآلام ، وفيما نلناه من انتصارات باهرة وما خسرناه من أرواح غالية جداً ، تمثل في ذهني مزايا قومي الألمان الذين تقلدوا سلاحهم للذب عن بيضتهم ، فأذكر ذلك لهم بالثناء والشكر

ان بني قومي لم يضفوا بشيء من صنوف التضحية في سبيل انتقاذ الوطن ولم يقتصر جيشنا على الوقوف أمام جيوش ٢٨ أمة معادية اتحدت علينا في خلال الحرب التي أرغمنا عليها ارغاماً ، بل أن الجيش الألماني تمكن من احراز الانتصارات الباهرة على جيوش هذه الأمم في البر والبحر والجو ، واذا كان الضباب الخيم علينا الاكن مانماً من سطوع شمس هذه الحقيقة فان التاريخ سيبدد هذا الضباب في المستقبل ويظهر للعالم حقيقة عملنا بجلاله وجماله وفضلاً عن ذلك فقد كانت جيوش الدول المتنفذة معنا كلها ساء حظها في ميدان من الميادين لا تلبث أن تتمتع بالنصر مرة أخرى بنجدة قليلة تأتيا من الجند الألماني • ولا مانع يمنعني من القول بأن جيشنا حارب في كل ميدان من ميادين الحرب الكونية

لذلك كانت الشجاعة التي أبدتها الأمة الألمانية لا تستحق ذلك الخنجر الذي طعنت به من ورائها ، وكان سبب انكسارها • وما برح نصيب الألمان في كل زمان أن ينكسروا بالسلاح الألماني نفسه

صيانة الألمان

لما في فرنسا من الآثار التاريخية والأملاك الخاصة وقبل أن اختم هذا الفصل أريد أن أقول كلمتين في « المظالم الألمانية » لما دخلت كتائبنا الى البلاد الشمالية من فرنسا أصدرت أوامري بحماية الفنون الجميلة والمباني الأثرية . وكان مع كل جيش الماني جماعة من أهل الاختصاص بالفنون الجميلة والعلماء ، وكانت مهمة هؤلاء الوصول الى كل

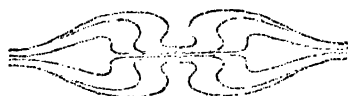
كنيسة والى كل قصر والى ما يماثل ذلك من المباني ، فينظروا في أمر هذه الأماكن ويسجلوا محتوياتها ويصوروها ثم يكتبوا مذكرة عنها . ومن هؤلاء العلماء الأستاذ (كايان) الذي ندبته لكتابة التقارير لي عن هذه المباني الأثرية . وهكذا وضعت البيانات والمجموعات عن المدن ودور الآثار والقصور وغيرها

أما المجموعات الأثرية التي كانت معرضة للخطر بسبب الحرب فقد نقلت من أماكنها الى (فالانسين) و (موبوج) ، وبذلت العناية هناك لحفظها ، وكتب على كل قطعة اسم صاحبها

وخاطر الجنود الألمانيون بحياتهم عند ما بادروا تحت قنابل المدافع الانكليزية لاقتاذ الرجاج القديم في كنيسة (سن كتنن) الكبرى . ومن جهة أخرى فان أحد قسس الكاثوليك الالمان نشر كتاباً معزراً بالصورة الفطوغرافية عن تخريب الانكليز هذه الكنيسة ، فأمرته بأن يرسله الى البابا ونزل المقر العام للفيلق الثالث في (قصر بينون) الخاص بالاميرة (دييوا) التي كانت من قبل بضيافتي وضيافة الامبراطورة في (برلين) ، فزرت أنا هذا القصر واخترت الاقامة فيه . وكان الانكليز قد احتلوه قبلنا فأساءوا فيه كثيراً . وبذل الجنرال فون (لوكوف) وأركان حربه كل عناية لاصلاح ما خربه الانكليز في هذا القصر . وطفقت أنا والجنرال في الدائرة الخاصة بالاميرة ، وهي الدائرة التي لم نسمح قط لجندي ألماني بأن يدخلها ، فوجدنا جنود الانكليز الذين أقاموا هنا قبلنا قد عبثوا بخزانات ملابس الاميرة ورموا ما فيها من الاردية والقمبعات على الأرض . فأمرت بجمع هذه الملابس وتنظيفها باعثناء ووضعها في خزاناتها . ورأينا مكتباً خلعت أدراجها ونثرت الاوراق والرسائل التي فيه هنا وهناك ، فأمرت بجمع الرسائل واعادتها الى ادراجها واقفالها بالمفاتيح . وبعد مدة وجدنا الاواني الفضية الخاصة بالاميرة مدفونة في حديقة القصر ، وعلمنا من القرويين أن الاميرة أمرت بدفن هذه الاواني في التراب من أوائل شهر يوليو ، وهذا يدل على أن الاميرة كانت

من قبل نشوب الحرب على علم بقرب نشوبها • فأمرت بأن تكتب قائمة بهذه
الآواني وأرسلناها الى مصرف (اكس لاشايل) لتكون وديعة فيه حتى تنتهى
الحرب • ثم أرسلت الى الاميرة خبرا بواسطة البارون فون (ريخشتاخ) —
المارشال الأكبر للقصر — أعلمها بما اتخذناه من التدابير للمحافظة على قصرها
وآوانيها وما تملكه ، غير أنها لم تجبني عن ذلك بكلمة ، وفضلا عن ذلك فإنها
نشرت في الصحف الفرنسية كتاباً مفتوحاً زعمت فيه أن الجنرال فون
(كلوك) سرق آوانيها الفضية

وبعد فانه بفضل الاهتمام الذي بذلته أنا شخصياً ، وبفضل المساعي التي
قام بها العلماء والاختصاصيون ورجال الجيش من الألمان ، استطاع الفرنسيون
أن يملكوا من الاشياء والمباني الاثرية ما تساوي قيمته بضعة مليارات
هكذا فعل (الهوفيون) و (البوش)



الفصل الحادي عشر

﴿ البابا والصالح ﴾

حديث مع المونسنيور باتشلي

القاصد الرسولي في كروزناخ

سنة ١٩١٧

زارني المونسنيور (باتشلي) القاصد الرسولي ونائبه في صيف سنة ١٩١٧ في (كروزناخ) . وكان القاصد في منظره الخارجي قدرة أمراء الكنيسة الكاثوليكية ، ذكي الفؤاد ، قريباً من القاب . لطيف المعشر ، متواظفاً بأجل الصفات

وكان يعرف اللغة الالمانية الى درجة تمكنه من فهم الحديث من غير أن يجيد التكلم بها . لذلك دار الكلام بيننا باللغة الفرنسية . وكان القاصد يستعمل بعض العبارات الالمانية بين حين وآخر . أما النائب الذي ينفن استماعاً فكان يتدخل في الحديث من غير أن يدعي اليه خوفاً من أن تؤدي استنتاجاتي الى استدراج القاصد

وقد دار البحث حول التوسط ومفاوضات الصلح . وكانت قد تقدمت ذلك مشروعات واقتراضات في هذا الباب ثم أجمعت بعد مناقشات دارت حوله . وفي ديسمبر سنة ١٩١٦ على أثر رفض اقتراح كنت قد اقترحتة قانت ان من الواجب على البابا أيضاً أن يقوم بمسعى . فقال لي القاصد الرسولي ان من المتعذر على البابا أن يقوم بمسعى جديد ، بعد أن أخفقت مساعيه السابقة . وزاد على ذلك أن البابا لا عمل له الآن غير التفكير في الوسائل التي تنقذ أوروبا المتهددة من كارثة الحرب . وعلى ذلك فان كل مسعى يسذل في هذا السبيل يكون له وقع حسن في الفاتيكان

فقلت : ان البابا يجب عليه - بمسفته رئيساً للكاتوليك ولجميع الكنائس الرومانية - أن يوجه دعوته في بدء الامر الى قسمه وكهنته في جميع البلاد

ليحاربوا الحقد الذي كان متمكناً في القلوب، والذي هو أعظم عقبة في سبيل الصلح. على أن اكليروس الحلفاء كان لسوء الحظ من تلك الطغمة التي « تحمل الحقد » ولا عمل لها الا تحريض الشعوب على مواصلة القتال . وقد ذكرت له بهذه المناسبة التقارير العسكرية العديدة التي وضعت في ابان الحرب وأثبتت أن كهنة وقسماً وخوارة كثيرين وقعوا في قبضة يدينا وهم حاملو السلاح . ثم وسمعت دسائس الكردينال (مرسية) واعمال الاكليروس البلجيكي الذي دخل كثرون من أفرادها في سلك الجاسوسية . واشرت بعد ذلك الى الخطبة التي ألقاها (اسقف لندن) البروتستاني ومجد فيها قنلة (بارالونغ) من اعلى المبر الكندي . فاذا تمكن البابا من حمل الاكليروس الروماني في مختلف البلاد على الاقتداء بالاكليروس الالماني في مقاومة البغض والحقد ، سواء بواسطة الخطب والمراعاة ، أم بالمنشورات الاستقفية والبيانات الكنسية ، فان الخطورة التي منطوها الى السلم تكون واسعة جداً

ووجد (بالتشالي) هذه الفكرة حسنة وجديرة بالبحث ولكنه قال :
« ليس من السهل ان يقبل بها بعض الاساقفة »

فقلت اني أعرف النظام الشديد وسلسلة المراتب السائدين في الكنيسة الرومانية . ولذلك كنت افهم بسهولة كيف ان بعض الاساقفة يأبى ان يعط الناس بالصفح عن العدو واحترامه اذا أصدر البابا بذلك أمراً رسمياً حازماً الى أمراء الكنيسة . ابست الكنيسة بصفتها الدينية فوق الاحزاب ؛ وليس حب الغير والصفح عن الالهانة من اصول الديانة المسيحية ؛ أفلا ينبغي التشديد بمراعاة هذه الأصول والعمل بها ؟

وقد سلم (بالتشالي) معي بذلك ووعدني بفحص هذه الفكرة فحصاً دقيقاً وعرضها على (الثايتكان)

ثم سألتني القاصد الرسولي عن رأيي في خبر الاساليب السياسية التي يمكن أن يلجأ اليها البابا المتوسط في ابرام الصلح من غير أن يكون لها صلة بالمساعي الدينية التي أشرت اليها

فقلت : بما ان ايطاليا والنمسا من الدول الكاثوليكية فالبابا يستطيع ان
ان يؤثر فيهما تأثيراً عظيماً ، وقداسته هو ابن احدى هاتين الدولتين ، وفيها
مقره ، وشعبها يحله ويحترمه ، فيمكنه ان يلقنه المبادئ التي يريد ها . اما
الدولة الثانية فهي النمسا التي يحكمها ملك يلقب نفسه « بالكاثوليكي » وهو
على صلة دائمة بالقاتيكان ككل أفراد أسرته ويعد من أخلص أبناء الكنيسة
الرومانية »

فرد (باتشلي) على ذلك قائلاً ان القاتيكان لاصلة له بالحكومة الايطالية،
وان تموزه معدوم في وزارة الخارجية ، وان من الصعب حمل (القاتيكان)
على قبول هذا الرأي . ثم ان الحكومة الايطالية ترفض من جهة أخرى كل
دعوة الى المفاوضة

وهنا اشترك النائب في الحديث فقال انه يستحيل على (البابا) ان يقدم
على مثل هذا العمل الذي يؤدي على الغالب الى عواقب شديدة الخطر على
القاتيكان ، لان الحكومة تبادر في الحال الى تحريض الرعاع على القاتيكان
الذي لا يستطيع أن يعرض نفسه لهذا التهديد

ولما رأي النائب لم أعلق أهمية على اعتراضه قال بحماسة اني لا أعرف
شعب (رومية) الذي يصبح مخيفاً اذا استسلم الى المحرضين ، وهياج السوقه
على القاتيكان من الحوادث الوحشية العواقب التي تؤدي الى مهاجمة (كنيسة
القديس بطرس) وتهديد حياة (البابا)

فقلت : اني أعرف القاتيكان معرفة تامة ، فايس له ان يخشى الرعاع ولا
السوقه . ثم ان للبابا أنصاراً عديدين في الاندية وبين الشعب يهبون في الحال
للدفاع عنه

وقد واثقني القاصد على هذا الرأي . ولكن النائب لم يرتبك ، بل استمر
يصور لنا خطر السوقه بألوان قاتمة ويدفع الاخطار التي تهدد حياة البابا
فأجابه : ان احتمال القاتيكان لم يتيسر الا بتدافع المتراليوز والمدافع
الضخمة وحشد قوات منظمة من الجنود للهجوم والقيام بحرب حصار طويلة.

ولكن السوق ليس لديهم شيء مما تقدم ، لذلك لا يحتمل ان يجرأوا على مثل هذا العمل . وزدت على ذلك فقلت : ان الثاينكان — على ما سمعت — قد استعد لمثل هذه الطوارئ وأعد عدته لها . فسكت القسيس حينئذ ولم يجر جواباً واستأنف القاصد الكلام فقال : انه يصعب على البابا ان يقوم بسعي عملي مؤثر في سبيل السلم من غير ان يغضب ايطاليا الرسمية ويحدث فيها نوعاً من انواع المعارضة الخطرة « فالكرسي الرسولي ليس حراً لسوء الحظ . فلو كان لثبأوا بلاداً أو مقاطعة ذات سيادة تامة يستطيع ان ينهج فيها الخطة التي يريدونها تغيرت الحالة تغيراً كبيراً . والاب الاقدس مرتبط الآن بمدينة (رومية) الجسمانية ارتباطاً لا يتمكن من العمل كما يريد »

فقلت : « ان واجب اعادة السلم الى العالم هو أقدس الواجبات وأسمهاها ، نستحيل أن يهمله البابا لاسباب مادية ، لاسيما وان صفته الدينية تقضي به عليه . فاذا فاز فيه قام العالم كله وأيد مطالب الثاينكان لدى الحكومة الايطالية » وقد وقع هذا البرهان وقعاً عظيماً في قلب القاصد ، فسلم بان الحق في حائزي ، وانه يجب على البابا ان يحاول القيام بعمل ما

فلفت حينئذ انظار القاصد الى المسألة التالية قائلاً : « انكم لا تجهلون المساعي العظيمة التي يبذلها اشتراكيو العالم كله لتشجيع كل فكرة ترمي الى السلم » وأشرت الى اننا سمحنا للاشتراكيين الالمانيين بالذهاب الى البلاد المحايدة ليعرضوا مسألة الصلح على إسباط البحث في المؤتمرات . وذلك لأنني كنت أعتقد بأن الاشتراكيين واقفون على آمال السواد الأعظم من الشعب . وان الذين يريدون ان يخدموا قضية السلم باخلاص وحسن نية لا يجدون ما يعترض سبيلهم في بلادنا . فضلاً عن أن هذه الاماني السلمية بدأت تنتشر في بلاد الحلفاء ولا سيما بين الاشتراكيين . وقد رفضت الحكومات المتحالفة اعطاء هؤلاء الاشتراكيين جوازات السفر ، ومنعتهم من الاشتراك في المؤتمرات التي عقدت في البلاد المحايدة . ولكن ذلك لم ينقص الميل الى السلم ، بل بالعكس ، فان تعاطش الشعوب اليه كان يزداد بالتدريج . فاذا لم تقدم

حكومة من الحكومات على شد أزر هذه المساعي — وكان اقتراحي قد رفض لسوء الحظ — قامت الشعوب وأخذت المسألة على عاتقها »

وزدت على ذلك فقلت : « وهذا التاريخ أماننا يثبت لنا ان مثل هذه الامور لا يتم بلا اضطرابات وانهيارات قد تضر بالكنيسة والبابا معاً . فإذا يفكر الجندي الكاثوليكي حينما يسمع أن المساعي السلمية لا يبذلها غير الاشتراكيين وان البابا لم يقم بأقل عمل لانقاذه من ويلات الحرب . فاذا احجم البابا عن العمل فمن المحتمل ان الاشتراكيين يكرهون العالم على قبول الصلح فيقضون بذلك على نفوذ الكنيسة والبابوية حتى في نظر الكاثوليك أنفسهم » وقد تغلبت هذه الحجة على معارضة القاصد وتردده ، فقال انه سيعرض هذا الرأي في الحال على الثائت كان ويفرغ قصارى جهده لحمل البابا على الاهتمام بقضية السلم اهتماماً جدياً

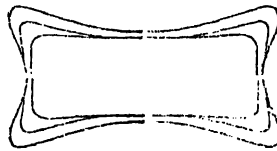
وبلغ قلق النائب اشده في تلك الاثناء ، فتدخل في البحث مرة أخرى ، واعلن ان البابا سيعرض نفسه لاطار عظيمة ، وأن السوقه يمررون على جسده فقلت حينئذ « أنا بروتاني المذهب ، أي هرطوقي في نظركم . ومع ذلك فاني مضطر الى التسليم بما يأتي : ان الكنيسة الكاثوليكية بل العالم كله يعد البابا ممثل المسيح على الأرض . ولما كنت أدرس الكتاب المقدس حاولت كثيراً أن أنفذ الى شخصية السيد المسيح فأتقمصها . ان السيد المسيح — مع أنه لم يكن مخفوراً بحرس مدجج بالسلاح ، ولا معتصماً بقصر منيع كالقلعة — ما خاف السوقه في يوم من الأيام ، بل كان يعيش

بينهم دائماً ، واليهم وجه خطابه الأخير ، ولأجلهم مات رغم عداوتهم له ومع انك يا حضرة القسيس تعرف هذا كله تحاول أن تقنعي بأن ممثل السيد المسيح على الأرض يخاف الموت والهوان في سبيل اعادة السلام الى أم الأرض التي تسفك دماؤها . . . يخاف . . . وممن يخاف ؟ من السوقه الذين يسترون عوراتهم بالخرق البالية . . . اذا كان حقاً ما أسمع فاني كنت

مخدوعاً بقسس الطائفة الكاثوليكية ، وكنت أتمثل للبابا في ذهني مكانة فوق المكانة اللائقة به . وأي أمل يجب أن يكون للبابا أعظم من ذلك الأمل العظيم وأعني به السلام ، حتى لو حالت دونه مخاطر حقيقية تلوح له في الأفق ، بل لو مات في سبيل ذلك وهو يعاني الألم والعذاب ؟
ولما قلت هذا القول رأيت وميض السرور يلعب في عيني القاصد الرسولي ، فقبض على يدي ، وقال لي بلسان متهيج :

— انك على حق ، هذا هو الواجب على البابا ، فما عليه الا أن يقوم بواجبه ويجعل العالم مديناً لشخصه بالسلام . واني سأعرض أقوالكم هذه على الأب الأقدس

فأشاح النائب بوجهه ، وهز رأسه قائلاً يخاطب نفسه :
— آه من السوقه ، آه من السوقه !



الفصل الثاني عشر

﴿نهاية الحرب والتنازل عن العرش﴾

مجلس الامبراطورية وقرار الصلح — تلاشي النمسا — لودندورف — المتقهر
الاول — الانسحاب الى حط انفرس والموز — حكومة البرنس دي
بادن — الحكومة تكبرهني على التنازل عن العرش — مجلس ٩
نوفمبر — اشاعة تنازلي — أسباب سفري الى هولاندة

مجلس الامبراطورية

بقرر المفاوضات في شأن الصلح

دعوت مجلس العرش الى الاجتماع في ٨ أغسطس سنة ١٩١٨ للبحث في
ايضاح الحالة ، وارشاد الكونت (هرتلنغ) الى الخطة السياسية التي يجب
أن يسير عليها ، ووافقت القيادة العليا على هذه الفكرة ، فكرة تمكين المستشار
من استخدام الوسائل اللازمة لتسعي في سبيل التفاهم ، بشرط أن نستدرج
العدو الى خطوط (سيغفريد) وان نهزمه أمامها انهزاماً تاماً . وحينئذ يمكن
الشروع في مفاوضات الصلح . وفد أمرت المستشار بأن يتصل باحدى الدول
المحايدة — هولاندة — وان يعجم عودها ليعلم هل تخطو الخطوة الأولى في
سبيل التوسط أم لا ؟

ومما زاد هذا التسعي صعوبة ان النمسا رفضت ان توافقنا عليه كما رفضت
أن تسامنا التصريح الذي طلبناه منها في هذا الشأن . وكنت قد قررت الاجتماع
بالامبراطور (كرلوس) ، ولكن جلالته أجل هذا الاجتماع مرة أخرى
بعد موافقته عليه ، وذلك لأنه كان يعمل بتأثير (بوريان)

وردت هولاندة علي — وكنت قد سألتها رأيها شخصياً — قائلة انها
تضع نفسها تحت تصرفنا . ولكن النمسا قامت خلسة عنا وعرضت الصلح
المنفرد للمرة الأولى ، فأقامت بذلك العقبات في سبيلنا

وكان الامبراطور (كرلوس) قد عمل سراً ومن تلقاء نفسه على الاتصال بالحلفاء ، وكان قد قرر التخلي عنا من زمن طويل ، ونهج خطة وصفها لرجال حاشيته بما يأتي ، قال :

« حينما اكون مع الألمان أقول اني على اتفاق معهم في كل الشؤون ، ولكنني اذا رجعت الى بيتي لا أفعل الا ما أريده ! »

هكذا كانت (قينة) تخدعني وتخدع حكومتي على التوالي . ولم نكن نستطيع القيام بأقل عمل يقينا شرها ، لأننا كنا نسمع منه دائماً ما يأتي :

« اذا احدثتم لنا شيئاً من المشاكل تركناكم وشأنكم ، وامتنع جيشنا عن القتال في جانبكم »

اننا كنا مضطرين الى درء هذا الخطر في الأحوال التي اكتفتنا ، لأسباب عسكرية وسياسية

تطوّر النمسا

نشأت الأزمة الألمانية عن تلاشي النمسا والمجر . ولو تمكن الامبراطور (كرلوس) من أن يضبط نفسه ويسكن أعصابه ثلثه أسابيع أخرى لتغيرت الحال تغيراً كبيراً . ولكن الكونت (اندراشي) - وقد اعترف هو بذلك - كان قد بدأ يفاوض الحلفاء في سويسرا خلصة عنا . وقد توهم الامبراطور (كرلوس) انه يكتسب عطف الدول المتحالفة بهذا العمل

لودندورف

وأعلن الجنرال (لودندورف) بعد فشلنا في ٨ أغسطس انه لم يعد يكفل انتصاراً عسكرياً ، لذلك لم يبق بد من الشروع في مفاوضات الصلح . ولكن السياسة لم تتمكن من الشروع في مفاوضات تعلق بأمال كبيرة ، وكانت الحالة العسكرية قد تخرجت كثيراً بسبب الدعوة الى الثورة ، فطلب لودندورف في ٢٩ سبتمبر ان نسعى لعقد الهدنة بدلاً من السعي لمفاوضات الصلح

التفكير الاول

في هذه الساعة العصبية التي بات فيها توقيف الحرب ضرورة لا غنى عنها قامت في البلاد حركة ترمي الى تأليف حكومة جديدة . ولم أكن لأستغرب هذه الحركة ، لأن الحكومة التي كانت في دست الأحكام لم تستطع في خلال سبعة أسابيع - من ٨ أغسطس الى اواخر سبتمبر - ان تبدأ بمفاوضات للمصلح تبعث على الأمل بالنجاح

وجاء الجنرال فون (غالويتز) والجنرال فون (مودرا) لمقابلتي في تلك الأثناء - وكانا من قواد الميدان الغربي - فوصفا لي حالة الجيش المعنوية وصفاً يؤخذ منه أن عدد الذين يقتلون وراء الخطوط أخذ في الازدياد ، وان حوادث التمرد والعصيان بدأت تتضاعف ، وان العلم الأحمر ظهر بين الجنود العائدين من الاجازة من ألمانيا

وقال القائدان : ان السبب في هذه الحال هو التأثير السيء الذي أحدثته في الجيش الروح السائدة في البلاد . وقد تسربت الرغبة العامة في توقيف القتال والرجوع الى حياة السلم من وراء الخطوط الى المخافر . ثم بدأت تدب في بعض فصائل الميدان

الانسحاب الى خط انفرس - الموز

وقد حملت الأسباب الآتفة البيان هذين القائدين على الاشارة بوجوب سحب الجيش الى خط انفرس - الموز ؛ فأمرتُ المارشال هندنبورغ بذلك تلقوئياً ، وأشرت عليه بوجوب الاسراع في سحب الجيوش الى وراء الخط المعين . واذا كان لتقهقر جيوشنا - التي انهكها التعب بلا جدال ، ولكنها لم تغلب في ميدان من ميادين القتال - معنى في نظر العالم فهذا المعنى هو انها تراجعت الى خط أقل اتساعاً وأكثر ملائمة للدفاع ، ولو لم يكن قد انشيء فيه شيء من الاستحكامات الجديدة ، وكانت الحاجة ماسة الى استرداد الحرية

في الحركات الحربية . وكنت أرى أن الحصول على ذلك ليس بالأمر المستحيل .
وقد سبق لنا الانسحاب غير مرة في أثناء الحرب رغبة في الانتقال الى مواضع
أكثر ملائمة للتعبئة والقتال

ولست أنكر أن جيشنا في هذه الأيام الأخيرة لم يكن في حالته التي كان
عليها في بداية الحرب ، فان النجيدات التي أرسلت الى الجيش سنة ١٩١٨ كانت
تحت تأثير كثير من مذاهب الدعوة الى الثورة والانتفاض ، وكثرت حوادث
انسلاخ هؤلاء الجنود من خط النار تحت جنح الظلام هارين الى المنازل .
غير أن السواد الأعظم من جيوشي حاربوا حتى الدقيقة الأخيرة بعزم وثبات
محتفظين بالروح العسكري والنظام التام ، وكانت قوتهم المعنوية أعظم من قوة
الاعداء المعنوية رغم تفوق الاعداء في العدد والاسلحة والمهمات والتنكس
والطيارات . وعلى هذا فان جيوشنا الأولى كانت على صواب في كتابتها على
راياتها : « نحن لم نغلب لا في بر ولا في بحر »

ان ما قام به الجيش الألماني في معارك أربع سنوات ونصف كان فوق
كل ثناء . ولست أدري أي حالتيه أسمى وأجمل : أهجوم الشبان المشاة سنة
١٩١٤ على العدو ببسالة واقدام دون أن ينتظروا من مدفعيتنا تمضيذاً ، أم
سهرهم في الليل وهم يحفرون الخنادق رغم سوء غذائهم واستماتهم في النهار
بهجومهم على مدافع العدو وطياراته وسياراته المدرعة واستمرارهم على ذلك
أربع سنوات متواصلة

ان هذا الجيش الذي يعتبر منهك القوى استطاع أن يقوم بالهجوم مرات
عديدة بعد حرب دامت أربع سنوات مع أن العدو لا يستطيع أن يدعي
لجيوشه مثل هذه الدعوى

وبعد فانه لم يكن معقولاً أن نطلب من جيشنا أموراً فوق طاقة البشر ،
وان جيشاً هذا شأنه يحق له أن ينسحب الى الوراء ترويحاً للنفس
وعارض القيلد مرشال (هندنبرغ) في أمر التقهقر بكل قواه فقال :

« يجب علينا ان نبقى حيث نحن - لأسباب سياسية كثيرة منها المفاوضات في شأن الصلح ، فضلاً عن أن سحب المعدات والذخائر لا يتيسر من غير تهديد ، وما شاكل ذلك

وقد قررت حينئذ - اجابةً لرغبة الجيش - أن أذهب الى ميدان القتال لأقيم بين جنودي المشتبكين مع العدو في أعظم ملحمة ذكرها التاريخ، ولكي أدرس الحالة الروحية وموقف الجيش في المكان الذي يجب درسهما فيه وكان تنفيذ هذا القرار سهلاً على ، ولا سيما لأن الحكومة الجديدة والمستشار لم يريا في وقت من الأوقات أن الحاجة ماسة الى وجردى في (برلين) وقد بحث (سولف) ووزارة الحرب ومجلس الرخستاغ في بيانات (ولسن) والرد عليها في جلسات طويلة لم أطلع على شيء مما جرى فيها . حتى انني اضطررت في النهاية - بعد وصول مذكرة ولسن الأخيرة - ان أعلن (سولف) بواسطة رئيس ديواني أنني أريد أن أقف على الرد قبل ارساله ووصل (سولف) يحمل اليّ المذكرة وهو يفاخر بالأسلوب الذي قارن به بين مطالبة (ولسن) ايانا بالتسليم وبين الهدنة التي افترحنها نحن . فافقت نظر (سولف) الى الاشاعات التي تتناقلها الألسنة عن تنازلى عن العرش وطلبت أن تتخذ وزارة الخارجية خطلة في الصحف لقمع الحملة الدنيئة التي حملها بعض الجرائد

فقال (سولف) : ان الناس يبحثون جهاراً في الشوارع في مسألة التنازل عن العرش ، وان أعظم الأندية السياسية تشير اليها كثيراً كما تشير الى أمر بسيط . ولما أعربت عن اشمئزازي قال (سولف) - كأنه يريد أن يعزىنى : - « اذا تنحيتم جلالكم فأنا أيضاً أتنحى لأنني أرى البقاء في منصبي من المحال في مثل تلك الأحوال »

ولكني تركت أنا العرش ، أو بالأحرى خلعتنى حكومتى ، أما سولف فقد بقي في منصبه

حكومة البرنس (ماكس دي بادن)

ومهما يكن من الأمر فقد أفرغ البرنس (ماكس دي بادن) المستشار
قصارى جهده لاقامة الصعاب في سبيلي ، بعد ما علم بعزمي على السفر الى
ميدان القتال . وقد سألتني عن السبب الذي يحملني على ترك (برلين) فقلت :
اني أرى عودتي الى ميدان القتال من أقدس واجباتي ، بصفتي قائداً عاماً
للجيش ، ولا سيما لأنه مضى عليّ شهر وأنا مفصول عن جيشي الذي يحارب
حرب الجبابرة

واعترض المستشار على ذلك قائلاً أن بقائي في (برلين) ضروري جداً .
فقلت : اننا في حرب ، وان الامبراطور هو ملك جنوده . ثم قطعت الحديث
بقولي : انني سأسافر على كل حال

ألم يكن من الضروري بعد وصول مذكرة (ولسن) بشأن الهدنة أن
تدرس هذه المذكرة في مركز القيادة العليا الى جانب الجيش ، وأن يأتي
المستشار نفسه الى (سبا) للاشتراك في درسها وتمحيصها ؟

لذلك سافرت الى ميدان (فلاندر) بعد ما أصدرت الى أركان حرب
(سبا) أمراً آخر بالتقهقر الى خط انقرس - الموز بأسرع ما يمكن ، ليستطيع
الجنود الخارجون من المعركة أن يستريحوا قليلاً . وقد بقيت مصراً على هذا
الأمر رغم الاعتراضات التي قدمت الي وجاء فيها أن ذلك يحتاج الى وقت
طويل ، وأن المواقع لم تكن قد أعدت ، وان المهمات يجب أن تسحب قبل
الجيش .. الخ . ومن ذلك الحين ابتدأ التقهقر

وفي (فلاندر) قابلت مندوبي كثير من فرق الجيش ، وتكلمت مع
أفراد الجند ، ووزعت الأوسمة ، واستقبلني الجنود والضباط بالابتهاج والسرور
في كل مكان ، ولا سيما مستودع المجندين الجدد من أبناء (سكسونيا) ، فانهم
استقبلوني بأعظم حفاوة ، ولما عدت الى القطار كانوا يصفقون لي تصفيقاً حاداً ،
وعند ما كنت أعلق الأوسمة على صدور جنود إحدى فرق الحرس طار

فوقنا اسطول من طائرات الأعداء والتي القنابل في جانب قطاري الخاص
وكان قواد الجيش يصرحون لي جميعاً بأن الحالة المعنوية في جيوش الجبهة
الحرية حسنة ويمكن الاعتماد عليها . ولكن الحالة لم تكن كذلك في
الكتائب الخلفية ، فالدعوة السيئة كان ينقلها الى الكتائب الخلفية اولئك
الجنود الذين يعودون من اجازاتهم الى ميدان القتال ، أما المجندون الجدد
الذين في مستودعات التجنيد فخالهم حسنة

وفيا كنت ذاهباً الى (سبا) كانت الأخبار متواصلة من المانيا عن
ازدياد الهياج ، وانقلاب الرأي العام على الامبراطور ، وعن تهامل الحكومة
وتركها الجبل على الغارب ، فهي واقفة كالمفرج بلا عزيمة ولا ارادة ، حتى
اطلقت الصحف عليها عنوان (نادي المناقشات) . أما الصحف التي كانت ترمي
الى فكرة معلومة فقد كانت تسمي البرنس (ماكس دي بادن) باسم
(رئيس وزارة الثورة)

وعلمت بعد ذلك أن المستشار لزم فراشه مدة عشرة أيام بالنزلة فلم يتمكن
من مباشرة الأمور بنفسه ، وإنما كان يتولى ادارة الأمور فون (بير)
و (سولف) بالاتفاق مع وزارة الحرب التي كانت في حالة اجتماع دائم . وفي
اعتقادي أن سفينة الحكومة لما تكون مهددة بالأخطار كما هي في هذه
الازمة لا يجوز أن تدار الأمور بأيدي وكلاء الحاكم المسئول الذين لا يملكون
ما يملكه هو من سلطة وتقوذ

وكان الحل الوحيد الذي يستدعيه الواجب يومئذ هو أن يتولى ادارة
البلاد رجل ذو شخصية أقوى من شخصية البرنس (ماكس دي بادن) ، وبما
أن بلادنا خاضعة للنظام الدستوري فقد كان في استطاعة الاحزاب أن
تسعى لذلك فنقترح علي اقامة من يخلف البرنس (ماكس دي بادن) ولكنها
لم تفعل

الحكومة نكرهني على التنازل

وبدأت الحكومة والمستشار بعد ذلك يسميان لحلي على التنازل عن العرش
جاء وزير الداخلية (دروس) لمقابلي في (سبا) كمندوب للمستشار ، بحجة
اعلامي بمحبة الحال ، فوصف لي الحوادث المعروفة التي وقعت في الصحف
والجمهور وبين كبار المتمولين ، وأعلن أن المستشار لم يعين خطته ازاء مسألة
التنازل ، ومع ذلك فقد رأى من الواجب أن يوفد اليّ وزيره . فاستنتجت
أن مهمة (دروس) كانت اقناعي بالتنازل عن العرش من تلقاء نفسي لكي
لا يظهر للعالم ان الحكومة ضغطت علي

وعلى ذلك وصفتُ للوزير العواقب الوخيمة التي تنشأ عن تنازلي ، وسألته
كيف يستطيع - وهو موظف روسي - ان يوفق بين الانذار الذي يحمله
اليّ وبين يمين الاخلاص التي حلفها للمليكة

فاضطرب (دروس) واعتذر بأنه تلقى بذلك أمراً من المستشار الذي لم
يجد من يقبل هذه المهمة سواء . على أنني أبلغت فيما بعد أن (دروس) كان
في مقدمة الوزراء الذين تكلموا عن تنازل الامبراطور

وقد رفضت في النهاية ان أتنازل عن العرش ، وأبلغت (دروس) اني
سأجمع جنودي وأعود معهم لمساعدة الحكومة على توطيد دعائم الأمن
وعلى أثر هذا الاجتماع زار (دروس) المرشال (هندنبرغ) والجنرال
(غرونز) خاصة غني ، وبسط لهما المهمة التي كلفه بها المستشار . ولكن
القائدين قابلاه بمقابلة غير لطيفة . وأرسلاه باسم الجيش ليجت فيما يعنيه

وكان (غرونز) خاصة قد وصف البرنس (ماكس) وخطته وصفاً مؤلماً
اضطرنني في النهاية الى أن أسلي الوزير وأسكن روعه . اما القيلد مارشال
فقد لفت انظار (دروس) الى أن الجيش لا يقاتل بعد تنازلي عن العرش ،
بل يختل نظامه ، ويستعفى قواده ، ويصير الجنود بلا رؤساء

وأبلغني أحد أولادي بعد مدة أن المستشار كلفه بمثل المهمة التي كلف

بها (دروس) فرد ابني على ذلك بكل اشمزاز قائلاً انه لن يقترح على والده التنازل عن العرش

وكنيت في تلك الأثناء قد أرسلت الهر فون (دلبروك) رئيس ديواني الملكي الى (برلين) ليعرض على المستشار بياناً من البيانات اليومية أعدده للنشر محل الخطبة التي أقيمتها في الوزارة الجديدة ، ولم يشأ المستشار اذاعتها وكان هذا البيان - الذي أوضحت فيه الحالة تماماً - يعين موقعي ازاء الحكومة وازاء تيار السياسة الجديدة بكل دقة ووضوح . ولكن المستشار أهمل نشر هذا البيان في بدء الأمر ، ولم يقرر اذاعته الا بعد مرور بضعة أيام عليه ، وعلى أثر كتاب أرسلته الامبراطورة اليه كما قيل لي فيما بعد

وقد أبلغني الهر فون (دلبروك) أن هذا البيان وقع أحسن وقع في (برلين) وفي الصحف ، وانه سبب انتراج الحال ، واعدد السكينة الى البلاد فتنوسيت فكرة التنازل ، واضطر اشتراكيو اليمين انفسهم الى ارجاء البحث فيها لكن الأخبار المقلقة عادت فراجت كثيراً في الأيام التالية لسوء الحظ ، وكانت تنبئ بأن الاشتراكيين عقدوا النية على اضرار نار الفتنة في (برلين) فبلغ قلق المستشار أشدّه من جراء ذلك . ثم ان التقرير الذي رفعه (دروس) الى الحكومة بعد عودته من (سپا) أحدث فيها أعظم تأثير . فان هؤلاء السادة كانوا يريدون الاتصال عني ولكنهم خافوا من عواقب هذه المغامرة

وكانت آراؤهم أقل وضوحاً من خطتهم ، لأنهم عملوا كأنهم لا يريدون الجمهورية ، غير أن اعمالهم كانت تؤدي الى الجمهورية رأساً وان كانوا لا يشعرون ، فاتخذ الناس خطتهم دليلاً على رغبتهم في انشاء جمهورية في البلاد ويعتقد كثيرون ان البرنس (ماكس) لم ينهج الخطة التي نهجها ازاوي ولم يعمل على ابعادي الا رغبة منه في ان يعلن رئيساً للجمهورية بعد ما يعين نائباً عن الامبراطور . ولكن هذا الاعتقاد اهانة للبرنس (ماكس) لأن

مثل هذه الحسابات لا تليق بسليل بيت عريق في المجد من اقدم البيوت
الحاكمة في المانيا

وذهب الجنرال (غرونز) الى (برلين) للوقوف على الحالة ، فعاد منها
وقد خابت آماله من جرّاء الروح السائدة في الحكومة وفي الاهلين ،
واقترعائه بان البلاد تسير الى الثورة بخطوات واسعة

واشتد الخلاف بين أعضاء الوزارة واستفحل أمره ، فتعذر عليهم القيام
بأي عمل جدي . وكان الشعب يريد الصلح مهما يكن ثمنه . وقد تلاشى تفوذ
الحكومة ، واتسع نطاق الحملة المنظمة ضد الامبراطور ، حتى ضعف الرجاء
بملافاة التنازل عن العرش

أما جنود الداخلية فلم يكونوا ممن يصح الاعتماد عليهم . ولو قامت الفتنة
لفوجئنا على الغالب مفاجآت مؤسفة ، فقد عثر البوليس في حقيبة سفير
السوفييات على وثائق خطيرة الشأن تدل على ان الثورة البلشفية المنظمة على
الطراز الروسي قد وجدت الوقت الكافي لان تعمل بدقة تامة وبكل سكينة
وهدوء على يد سفير روسيا وبمساعدة جماعة سبارتاكوس . وقد تم ذلك كله
تارة بعلم من الخارجية وتارة خلسة عنها . فالت هذه الوزارة كانت تتلقى
المعلومات الوثيقة في هذا الشأن وتغض الطرف عنها بحجة انه لا يجوز اغضاب
البلشفيك . وقد فعلت ذلك على مرأى من البوليس ، فغلت يده وجعلته
- باصرارها على هذه الخطة - عاجزاً عن العمل

وعاد الجنود الموبوءون من اجازاتهم يبتشون السم في الجيش الذي ظهرت
فيه عوارض الداء

مجلس ٩ نوفمبر

لقد بتنا نخشى امتناع الجيش عن محاربة الثوار بعد ما يتوارى شبح الحرب أمامه ويعود الى وطنه . لذلك لم يكن لنا بدّ من قبول الهدنة في الحال ، مهما تكن شروطها قاسية ، لان الجيش لم يعد في طاقتنا الاعتماد عليه ان الوطن كان يرى الثورة منتصبة أمامه !

وفي صباح ٩ نوفمبر أبلغني المستشار البرنس (ماكس دي بادن) مرة أخرى - تأكيذاً لما قاله يوم ٧ منه - أن الاشتراكيين والوزراء الاشتراكيين أنفسهم يطلبون تنازلي عن العرش وقد انضم اليهم سائر الوزراء الذين لم يكونوا قبل الآن على هذا الرأي . وان حزب الاكثرية في الرخستاغ يرى ذلك أيضاً . فرجا مني المستشار ان أعلن تنازلي في الحال ، والا قامت في شوارع (برلين) فتنة تراق فيها الدماء سدى ، وكانت هذه الفتنة قد ظهرت بوادرها حينئذ في بعض الاحياء

فطلبت المرشال (هندنبورغ) والجنرال (غرونز) الى مقابلتي حالا ، فصرح لي الجنرال (غرونز) بأن الجيش لم يعد يريد القتال ، وانه لا يطمح الا الى الراحة والسلم ، فمن الواجب والحالة هذه أن تقبل الهدنة بأسرع ما يمكن ، لان المئونة الموجودة تحت تصرف القيادة العليا لا تكفي الجيش اكثر من ستة أيام الى ثمانية أيام ، ولان مخازن التموين صارت كلها بيد الثوار الذين احتلوا حصور الرين وقطعوا طريق التموين

وهنا وقعت حادثة لا يدركها العقل ، فان لجنة الهدنة التي سافرت من (برلين) الى فرنسا وفيها الهر (ارزبرغر) والسفير الكونت (اوپرندورف) والجنرال فون (وترفلد) اجتازت خطوط العدو الامامية ، ولكنها لم ترسل

الى مركز القيادة العليا أقل نبأ عن الشروط المعروضة علينا ووصل ولي العهد ومعه الكونت (شولنبورغ) رئيس اركان حربه واشترك في المفاوضات

وبينما نحن نبحث في الامر وصلتنا عدة اشارات تليفونية مستعجلة من المستشار تنبيء بأن الاشتراكيين تركوا الحكومة وان الحالة باتت شديدة الخطر . وقال وزير الحربية ان فريقاً من حامية (برلين) انضم الى الثوار ، وذكر الا لاي الرابع عشر من الرماة ، والفصيلة الثانية من ألاي (الكسفور) وبطارية (غوتربوغ) الثانية . ولم يكن قد وقع شيء في الشوارع الى ذلك الحين وأردت ان أحقن دماء شعبي وأمنع وقوع الحرب الاهلية ، فوافقت على التنازل عن مقامي الامبراطوري منذ الدقيقة التي رأيت فيها ان ذلك هو الوسيلة الوحيدة لحقن الدماء ، ولكني تمسكت بمركزي كملك بروسيا رغبة في البقاء الى جانب جنودي بهذه الصفة . ألم يقل كبار القواد ان تنازلي التام يجعل الضباط يتركون ميدان القتال ، فيصبح الجيش بلا قواد ، ويتدفق جنوده على ألمانيا تدفق السيل فيلحقون بها اضراراً عظيمة ويعرضونها لاطار فادحة ؟

وفد أجبنا المستشار بأن المسألة يجب أن تدرس بدقة تامة ، وأن يفرغ القرار في صيغة حسنة ، ثم يرسل اليه

شيوخ الاخبار الطائفة في برلين

عن تنازلي

لم يكد يصل هذا الرد الى المستشار حتى تلقينا منه جواباً مدهشاً ، وهو ان قراري وصل متأخراً ، وان المستشار أعلن من تلقاء نفسه تنازلي عن العرش - مع أنني لم أكن قد قررته بعد - كما أعلن تنازل ولي العهد الذي لم يستشره أحد في الامر

أودع البرنس (ماكس دي بادن) الحكومة في يد الاشتراكيين ، ودعا (ايبرت) الى منصب المستشار . وقد أذيعت هذه الاخبار في كل مكان.

بالتلغراف اللاسلكي وغيره ، وعرفها الجيش في حينها وهكذا حال جماعتي بيني وبين القرار الذي يمكنني من البقاء أو السفر

ومن التنازل عن عرش الامبراطورية والبقاء على عرش پروسيا
 وجاتز الاكاذيب على الجيش، فتوهم ان مليكه تركه في الساعات العصيبة،
 فخارت قواه وتسرب اليأس الى صميم فؤاده
 واذا نظرنا الآن نظرة اجمالية الى سياسة المستشار البرنس (ماكس دي
 بادن) رأينا ما يأتي :

بدأ اعماله باصدار بيان رسمي تعهد فيه بأن يقوم هو والحكومة بالدفاع
 عن العرش . ثم حال دون نشر بلاغ مني لو نشر في حينه لغير سير الحوادث .
 وترك بعد ذلك الامبراطور في عزلة . وألقى المراقبة فحملت الصحف على
 الامبراطور حملة عنيفة جداً . وقد ختم هذا كله بما بذله من السعي لحل
 الامبراطور على التنازل عن العرش . ثم أعلن خبر هذا التنازل بالتلغراف
 اللاسلكي على غير علم من الامبراطور

وتدل هذه الحوادث كلها على أن (شيدمان) - الذي جعل المستشار آلة
 في يده - كان يلعب دوراً شديداً الخطر على الدولة . وقد ترك (شيدمان)
 زملاءه الوزراء على جهل تام بحقيقة آرائه ، وجعل يقود البرنس خطوة خطوة
 وهو يقنعه بان العامة لم تعد تنقاد الى الزعماء . وهكذا حمله بالتدريج على ترك
 امبراطوره وأمرائه وبلاده ، وجعله « مخرب الامبراطورية الالمانية »

ولما حقق (شيدمان) هذه الاكمال أنزل البرنس (ماكس دي بادن)
 السياسي الضعيف عن منصة الحكم

أسباب سفرى الى هولندة

وتفاقت الحال بعد وصول التلغراف اللاسلكي عن تنازلي عن العرش .
 وكانت فصائل الجند قد دعت الى (سبا) لتسكين القيادة العليا من مواصلة
 عملها بالطمأنينة اللازمة . ولكن المارشال رأى انه لا يصح الاعتماد التام على
 هؤلاء الجنود ، ولا سيما اذا وصلت فرق ثائرة الى (سبا) قادمة من (اكس
 لاشايل) أو من (كولونيا) . لأن جنودنا سيجدون أنفسهم حينئذ مضطرين

الى مقاتلة اخوانهم . لذلك أشار عليّ بترك الجيش والبحث عن بلاد محايدة
أقيم فيها درءاً لمثل هذه الحرب الاهلية

وشعرت حينئذ في صميم قوادي بأعظم نزاع نفسيّ : فكنت من جهة
أنور ثورة الغضب لدى تفكري بأنّي - أنا الجندي - أترك جيوشي الباسلة
التي حافظت على اخلاصها لي . ثم أذكر من جهة أخرى ان العدو أعلن انه
لا يبرم معي صلحاً تتحمّله ألمانيا . وأذكر أيضاً أن حكومتي أكدت لي
مراراً أن الحرب الاهلية لا يمكن اجتنابها الا اذا تركت البلاد الى الخارج

وقد صرفت النظر في هذا النزاع عن كل ملاحظة شخصية ، وضحيّت
بشخصي وعرشي عن طيبة خاطر في سبيل وطني المحبوب . ولكن هذه
التضحية ذهبت سدى ، لان سفري من ألمانيا لم يخفف شيئاً من شروط
الهدنة والصلح المفروضة علينا ، ولم يمنع الحرب الاهلية ، بل زاد الموقف
حرجاً ، لانه استعجل تمزيق الجيش والبلاد

لقد كان الجيش عنوان مجدي وافتخاري مدة ثلاثين عاماً . فاني عشت
من أجله ، وشقيت من أجله . ولكنه بعد حرب أربعة أعوام ونصف كلها
مفاخر وانتصارات ، وبعد ما رأى الصلح على مقربة منه ولمسه بيده : أصيب
في ظهره بخنجر الثائرين نحرّ مضرراً بدمه . . .

ولما سمعت ان أسطولي المجيد - الذي هو صنع يدي أيضاً - قد شعر
باشمئزاز شديد في بدء الامر ، ثارت عواطفني وبلغ التأثر أشده في نفسي
وقد كثر اللغط بسبب انسحابي من الجيش وسفري الى بلاد محايدة .
فقال فريق من الناس : كان الواجب على الامبراطور أن يسير على رأس فرقة
من جيوشه وينقضّ على العدو محاولاً أن يموت في معركة أخيرة . ولكنني
لوفعلت ذلك لما اقتصر الامر على استحالة عقد الهدنة التي أشتد ميل الشعب
اليها ، وأرسلت (برلين) لجنة لمفاوضة الجنرال (فوش) في شأنها ، بل لضحينا
- بلا فائدة - حياة كثيرين من الجنود ومن أشدهم مراساً واكثرهم اخلاصاً

وقال آخرون : كان يجب على الامبراطور أن يعود الى المانيا على رأسه جيشه . ولكن مثل هذا العمل ما كان يتم بصورة سلمية ، لان الثوار احتلوا جسور الرين ومراكز اخرى منيعة وراء الجيش . نعم كان في امكاني المرور في مقدمة جنودى المخلصين القادمين من الميدان ، ولكنى لو فعلت ذلك لقصيت على المانيا القضاء المبرم ، لان الحرب الاهلية تضاف حينئذ الى الحرب مع العدو الذي يحاول بلا جدال ان يزحف ورأى على البلاد

وقال غيرهم : كان يجب على الامبراطور أن ينتحر . ولكن اعتقادي الديني الوثيق كان حائلاً بيني وبين هذه النتيجة التي لو وقعت لصاح كثيرون قائلين : « ياله من جبان ! لقد تخلص الآن من التبعة بالانتحار »

ثم اني لم اعمد الى هذه الخطة لاعتقادي بانى قد أستطيع أن أخدم أمتى وبلادي في ابان المصائب المحدقة بهما . فضلاً عن أنى كنت واثقاً بان مسألة التبعة التي دخل البحث فيها حينئذ في دور جدى ، والتي كانت المحور الاكبر لمصيرنا ومستقبلنا ، ستدعوني حتماً الى الدفاع عن مصالح شعبي ، لاني أستطيع أكثر من كل انسان أن أثبت حسن نية ألمانيا ورغبتها الاكيدة في السلم فاذا كنت قد عقدت النية على ترك الوطن الى بلاد اجنبية ، بعد نزاع نفسي شديد في صميم فؤادي ، وبعد النصائح المؤثرة التي أسداها الى اناس كانوا حينئذ مستشاري المسئولين ؛ فما ذلك الا لاني صدقت تلك النصائح ، واعتقدت بأنى أقدم لبلادي بعملى هذا أعظم خدمة . وقد أيقنت بأن تنازلي عن العرش سيمكنها من أن تنال شروطاً حسنة للهدنة والصلح ، وينمها من تقديم ضحايا جديدة في الرجال ، ويدراً عنها غائلة الحرب الاهلية وما تؤدي اليه من المصائب والويلات



الفصل الثالث عشر

﴿ محكمة الاعداء ، ومحكمة المحايدين ﴾

غرض الحلفاء من طلبهم محاكتنا — هل كان في تسليمي نفسي فائدة لأمتي ؟ — كيف يمكن تعيين تبعه الحرب ؟ — لا يكون الحكم حكماً — كتاب المارشال هندنبرغ — جوابي على كتاب هندنبرغ

غرض الحلفاء من طلبهم محاكتنا

لما علمتُ بعزم دول الحلفاء على أن تطلب محاكتي ومحكمة قواد الجيوش الالمانية جعلت أحاسب نفسي أمام ضميري . وتساءلت عما اذا كان مفيداً لوطني تسليم نفسي برضا مني ودون وقوع طلب من أمتي الالمانية ومن حكومتها . وكان ظاهراً لي بكل وضوح أن الحلفاء يريدون تقويض سلطة الامة الالمانية وحكومتها تقويضاً أبدياً ، بما يطلبونه من تسليم الاشخاص الذين يربدونهم ، لئلا يكون لنا بعد اليوم مكان في الصف الاول من صفوف الامم ، ولئلا تتمتع معهم فيما يتمتعون به من الامتيازات ، ولسكون محرومين من الحرمة والكرامة ومن عقد اتفاقات تضمن لنا الحرمة والكرامة

هل كان في تسليمي نفسي فائدة لأمتي ؟

لقد كنت مدركاً الواجب المحتم علي ، لذلك لم أكن راضياً بتضحية شرف ألمانيا وكرامتها . والشيء الذي كان ينبغي أن أعلمه هو ما اذا كان ثمة فائدة تعود على أمتي من تسليم نفسي في مقابل الاضرار التي أشرت اليها آنفاً . ولو أنني وجدت لذلك فائدة واحدة لما ترددت قط في تقديم هذه التضحية وازافتها الى ما ضحيته من التضحيات العديدة من قبل . واني أعلم بأن بعض الاندية الالمانية السليمة النية فكرت بكل جد في مسألة تسليمي نفسي . ولكن الرضى بحل المشكلة بهذه الطريقة قد يكون ناشئاً عن فهم الاحوال النفسية

فهما سيئاً ، واذا كانوا يستحسنون مني أن أقدم على تلك الخطة فلا ريب أنهم يجهلون بأن ما أرتضيه حينئذ لنفسي من المهانة والانحطاط لا يفيدنا عند الحلفاء شيئاً ولا معنى له غير احتمال العذاب العقيم . ويكفي لظهار ذلك أن نعيد النظر الى الاسباب الحقيقية التي حملت الحلفاء على المطالبة بما أشرت اليه ، اننا اذا فعلنا ذلك نصل الى نتيجة بديهية جداً وهي أن من الواجب علي الامتناع من تسليم نفسي

لو كنت أظن أن الاقدام على هذه التضحية يجعلني في نظر العالم متفرداً في حمل تبعة كل القرارات المتعلقة بالحرب ، وفي حمل تبعة جميع أعمال حكومتي ، ويخفف عن طاق بني قومي شيئاً من عبء مصيرهم ، لكان لي في هذا الامر شأن آخر ؛ ولم يكن يحول حينئذ بيني وبين تحمل التبعة كون القانون الاساسي للامبراطورية قد حصرها في شخص المستشار دون الامبراطور . ولكني لم أكن أظن أن في هذا العمل مثقال ذرة من التأثير في اصلاح موقف ألمانيا ، ولو ظننت فيه مثقال ذرة من فائدة لأقدمت عليه بلا تردد . واني قد برهنت على استعدادي لقبول التضحية باصفائي الى ما مناني به بعضهم ^(١) من الالامى الباطلة - من منع نشوب الثورة في وطني ، وعقد الصلح بشروط حسنة لبني قومي - ففارقت حدود بلادي ، وتنازلت عن عرش آبائي . فانهم زعموا أن الثورة لا تنشب في ألمانيا اذا أنا خرجت منها ، فخرجت منها ولم يتحقق ما زعموه . والآن فاني في ريبة من أن في تسليم نفسي أية فائدة لأمتي ، بل أجزم بأن هذا العمل لا ترجى منه للامان فائدة قط

كيف يمكنهم تبعة الحرب ؟

ان تعيين تبعة الحرب لا تستطيع محكمة في الدنيا أن تصدر فيه حكماً عادلاً ما لم تحصل على جميع أوراق كل الدول المتحاربة ومستنداتها . أما ألمانيا فقد أظهرت للبيدان كل ما يختص بها من الاوراق الرسمية . ولكن من هو ذلك الرجل الطيب القلب الذي يصدق بأن دول الحلفاء ترضى بأن تقدم الى محكمة العدل كل ما لديها من المستندات السرية التي كتبت بعد معاهدة (فرساي) ؟

اذن فقد كان واجباً عليّ ان لا أسلم نفسي ، وان أربأ بها عن الاقتداء بعمل (فرش جيتوريكس) الذي كان يرجو خيراً لأمته من تسليمه نفسه الى ايدي اعدائه

لا يذكروه الخصم هكذا

ان أطوار وحركات اعدائنا في أثناء الحرب والمفاوضات كانت تدعو الى الظن بأنهم سيكونون أكرم من (قيصر) . ومعلوم ان قيصر قيد يدي (فرش جيتوريكس) بالحديد ثم لم يمنعه مانع من استعباد قومه بعده وأريد بوجه عام أن ألفت الانظار الى ان من الخطأ الاصغاء الى النصيحة التي تأتي من العدو ورسم الخطط بحسبها . ومن المؤكد أن الاندية الالمانية التي تذهب الى ضرورة تسليم نفسي انما كانت حسنة النية ، غير أنها اتخذت بمزاعم الاعداء على غير علم منها . لاجل ذلك وجب عليّ ان لا أهمل بنصائحهم ان الحل الوحيد لقضية تبعة الحرب هو ان يعهد بها الى محكمة دولية محايدة تحكم في كل الاضرار التي نشأت عن الحرب الكونية لافي الاضرار التي لحقت بأشخاص معدودين . ويجب على هذه المحكمة — بعد أن فتحت ألمانيا جميع أوراقها — ان تدقق النظر في جميع افعال وحركات الدول المتحاربة ، وتصدر احكامها مؤيدة بالأدلة والمستندات الصحيحة . ان ألمانيا

توافق على هذا الحل تمام الموافقة ، وكل من يتردد في قبوله يكون قد وجه الى نفسه تهمة الاشتراك في المسؤولية

* * *

ولقد شرحت وجهة نظري هذه في كتاب لم ينشر بعد بعثت به الى الفلده مارشال (فون هندنبيرغ) رداً على كتاب شكر أرسله الي بعد ما أهديته نسخة من كتابي (مقارنة بين حوادث التاريخ) . ولاجل ان يكون كتابي مفهوماً أثبت هنا كتاب المارشال ثم اتبعه بكتابي :

كتاب المارشال هنر نبرغ

هانوره : ٣٠ مارس ، ١٩٢١

ألتس من جلالتم الامبراطورية والملكية أن تتقبلوا ما اشعر به من عواطف الشكر والامتنان لما ابدىتموه من الاهتمام بالمرض الذي أصاب قرينتي ولا يزال حتى الآن باعثاً على القلق

ليس هناك موضوع يسرني الكلام فيه عن الوطن ، فالاضطراب في ألمانيا الوسطى أشد خطراً مما اعترفت به حكومة بروسيا . ورجاؤنا أن نحمد الثورة عن قريب

ان العباء الذي يتحملة عاتق الامة الالمانية بمعاهدة (فرساي) ما برح يزداد ثقلاً عند التنفيذ . وفي كل يوم تظهر للعيان نية أعدائنا في ابادتنا . والمحور الذي تدور حوله سياسة الضغط على الشعب الالماني هو الخرافة التي يكررونها بأن ألمانيا مسئولة عن الحرب . ومع أن المستر (لويد جورج) - وهو ترجمان أفكار اعدائنا المتحالفين - كان قد صرح في ٢٠ يناير من السنة الماضية بأنه لم يكن ولا واحد من رجال الحكومات يرغب في صيف سنة ١٩١٤ بوقوع الحرب ، وأن الامم كلها قد انجرت الى الحرب بالتدريج حتى هوت في هويتها السحيقة ، فانه رجع في (مؤتمر لندن) يوم ٥ مارس فزعم

بخطاب بارد أن ألمانيا هي المسئولة عن الحرب العظمى

فالاساس الذي شيدوا عليه بناء معاهدة (فرساي) هو هذه التبعة التي يوجهونها الى الالمان ، ولولا اتخاذهم ذلك قضية مسامة لسقط حكم المعاهدة المذكورة

ان ممثلي الالمان في (فرساي) جاروا القوم — على خلاف اعتقادهم — في هذه المسئولية الموهومة التي يتهمون بها ألمانيا ، ونحن الآن نعانى العقوبة الهائلة جزاء تلك المجارة التي اضطر مندوبونا اليها بضغط الحلفاء . وكذلك نتحمل نحن العبء الذي وضع على كاهلنا بقبول الوزير (سيمون) في مؤتمر لندن) كون ألمانيا مسئولة عن الحرب « مسئولية خفيفة »

انا متألم مع جلالتيكم من كل قلبي ، فقد نلت السعادة والشرف بالعلاقة الشخصية التي كانت لي مع جلالتيكم مدة حياتي العسكرية الطويلة . واني أعلم شدة حرصكم على الاحتفاظ بالسلم طول مدة حكم جلالتيكم ، وأشعر بمبلغ كدركم وحزنكم لأنكم ممنوعون من الاشتراك في العمل مع الساعين لاجل الوطن

ان كتابكم (مقارنة بين حوادث التاريخ) الذي تقضاتم بآليفه واهدائي نسخة منه قد أوضح سبب الحرب وفند كثيراً من الامور التي كانت مبنية على الخطأ . واني آسف لأن هذا الكتاب الذي نشرتموه جلالتيكم قد تداولته ايدي قراء محدود عددهم . وأرى — بعد المعلومات الناقصة التي اذاعتها الصحف الاجنبية عن الكتاب — أن ينشر بواسطة الصحف الالمانية ولقد سررت جداً بما علمته عن تحسن صحة جلالة الامبراطورة في المدة الاخيرة ، فأرجو لها من الله الشفاء العاجل

وتقبلوا يا صاحب الجلالة احترام عبدكم المخلص الشاكر

الفيلد مارشال

فون هندنبورغ

مرواني على كتاب لغز نبرغ

دورن : ٥ ابريل ، ١٩٢١

عزيزي المرشال ،

أشكرك شكراً جزيلاً على ما ورد في كتابك المؤرخ في ٣٠ مارس قاف .
الحق كله في جانبك . والذي يؤمني أكثر من ذلك هو اضطراري الى الإقامة
في بلاد الاجانب ارقب بقلب يتفطر أسى مصير وطننا العزيز الذي خصصت له
كل سني حياتي ، ثم أرى نفسي الآن غير قادر على مؤازرة الذين يعملون
لانتقاذه

لقد كنت الى جانبي في الساعات العصيبة التي اجتزناها سنة ١٩١٨ . وأنت
تعلم أنني لم اتخذ القرار المؤلم الخطير الشأن الذي قضى علي بمغادرة الوطن الابناء
على المحاك والحاح الرجال الذين كانوا معي . وقد اكدتم جميعكم لي ان
تركى البلاد هو الوسيلة الوحيدة التي تمكن شعبنا من الحصول على شروط
حسنة للهدنة ، ومن حقن الدماء الزكية التي تراق في حرب أهلية هائلة . ولكن
هذه التضحية ذهبت سدى . لان الاعداء كانوا ولا يزالون يريدون ان يكفر
الشعب الالماني عن الجناية المزعومة المسندة الى « المانيا الامبراطورية »
واني اتوخى في كل عمل من أعمالي ان اضحي بمصالحى الخاصة على مذبح
المانيا المحبوبة ، لذلك تجبني صامتا ازاء ما يحيط بي من الكذب والنيمة التي
اكتنفني بهما الاعداء . واني أرى الرد على الاكاذيب والاهانات من الامور
التي تحط من مقامي

وقد راعيت هذا التحفظ في كتابي (مقارنة بين حوادث التاريخ) الذي
اشرت اليه في رسالتك ولم أظهره الا لعدد قليل من معارفي . فبأية وسيلة
« أو بأية سرقة » أذيعت محتويات هذا الكتاب ؟ ذلك ما لم أتوصل الى معرفته
وكانت غايتي وأنا أولف هذا الكتاب كما يأتي : جمع المعلومات التاريخية

بصرف النظر عن الحوادث وعرضها على القارئ ليرسم في مخيلته صورة حقيقية لما كانت عليه الحالة قبل الحرب . ولا بد لي من الإشارة في هذا المقام الى ان أحسن المصادر التي استقيت منها معلوماتي والتي أخذت منها الأدلة المقتنعة انما هي الآداب التي ازهرت بعد الحرب عند أعدائنا . لذلك مررت كثيراً لعلمي بأنك رأيت ان هذا العمل التاريخي الصغير لا يخلو من الفائدة ، وقد أشرت علي بنشره في الصحف الالمانية ، فاشكرك على ذلك ، وسأفعل حسب اشارتك

ولا ريب في ان الحقيقة ستظهر للعيان بقوة العاصفة . والذين لا يدعون معرفة كل شيء يسارعون الى الاعتراف بها ، ويمتقدون بأن سياسة المانيا الخارجية لم تكن ترمى طول مدة حكمي التي دامت ٢٦ سنة حتى الحرب ، الا الى المحافظة على السلم العام . وقد توخت غاية واحدة هي وقاية أرض الوطن المقدسة من كل تهديد يأتيها من الغرب أو الشرق وضمان نمو التجارة والصناعة الوطنيتين نمواً سليماً

ولو ان الحرب كانت تخطر على بالنا لاقدمنا عليها سنة ١٩٠٠ حينما كانت انكلترا منهمكة بحرب البوير وروسيا بحرب اليابان . فان النصر كان حينئذ ييسر لنا ويتراعى في احضاننا

وعلى كل حال فاننا لم نكن نختار سنة ١٩١٤ لاعلان الحرب بعد ما رأينا قوات هائلة تتكاتف ضدنا . ولا ريب في ان كل رجل بعيد عن التحيز يعترف بان المانيا لم تكن تتوقع شيئاً من الحرب . أما العدو فكان على عكس ذلك ينتظر منها كل شيء لتحقيق اغراضه الصريحة المقررة منذ زمن بعيد ، والتي كانت تربي الى القضاء علينا قضاء مبرماً

وان الجهود العظيمة التي بذلتها أنا وحكومتى في الايام العصيبة التي اجتزناها في شهري يوليو واغسطس سنة ١٩١٤ تجد ما يؤيدها وينبئها بأدلة قاطعة في الآثار الادبية والوثائق الرسمية التي نشرت في المانيا وفي بلاد الاعداء خاصة

والعبارة التي فاه بها (سازونوف) هي من اكبر الادلة على ما تقدم فقد قال : « ان حب السلم الذي تحلى به الامبراطور الالماني أكبر ضمان لنا على اننا نستطيع ان نقرر ميعاد اعلان الحرب متى شئنا ذلك » فهل من حاجة الى شهادة أخرى لاثبات براءتنا ؟ ان هذه العبارة تدل على الرغبة في مفاجئة خصم لا يفكر في شيء من ذلك . والله يشهد على اني فعلت اقصى ما أستطيعه لاجتناب الحرب ، وخاطرت كل مرة لم تكن فيها المخاطرة اهمالا لواجي الذي هو ضمان طمأنينة وطني المحبوب والدفاع عن سلامة املاكه

فالقول بان المانيا هي المجرمة قول لا يمكن سماعه . ويستحيل اليوم ان يكون في العالم رجل واحد يشك بان الاعداء المتحالفين هم الذين نظموا الحرب وأعدوها واعلنوها وان المانيا لم يكن لها يد في ذلك

ولكي يخفى الاعداء عملهم هذا عن العيون انتزعوا - في ساعة العار التي ابرمت فيها المعاهدة - الاعتراف الكاذب بجنائية المانيا واصروا على محاكمتي امام محكمة معادية . وانت تعرفني حق المعرفة يا عزيزي المرشال وتعلم اني لا أستعظم التضحية مهما تكن عظيمة اذا كانت في سبيل وطني المحبوب . ولكن محكمة يظهر فيها مجموع الاعداء بصفة قضاة وخصوم لا يمكن ان تكون اداة للعدل بل للاستبداد السياسي المنظم

ولا ريب في ان حكم هذه المحكمة لا يكون في جانبي وان هذا الحكم يعد مبرراً لشروط الصلح الجائرة التي اكرهنا على قبولها

أما أنا فكان من واجبي ان أرفض طلب الاعداء بطبيعة الحال ولكن ظهوري امام محكمة محايدة تؤلف حسب الاصول ليس موضوع البحث بالنسبة الي . فاني استناداً الى الدستور ، وبصفتي امبراطوراً وملكا - أي ممثلاً دستوريا غير مسئول للامة الالمانية - خدمت بلادي على أحسن أسلوب رأيته ، أرفض الرضوخ لحكم كل محكمة بشرية مهما تكن سامية . لاني لو فعلت غير ذلك لوضعت شرف الامة الالمانية الممثل بشخصي تحت رحمة الاعداء

فكل تهمة تعزى الى رئيس دولة محاربة وكل عقاب ينزل به ينتزعان من تلك الدولة حق مساواتها بالدول الاخرى كما ينتزعان منها السلطة التي تتمتع بها بين الامم

• واذا نظرنا الى التأثير الذي شاء الاعداء ان يحدثوه ، أدركنا انهم كانوا يعملون في كل ماله صلة « بمسألة التبعة » كما لو لم يكن في العالم سوى أمة واحدة يمثلها رئيس واحد

فيستنتج من ذلك أن الحكم في مسألة « التبعة » حكماً بعيداً عن الهوى لم يكن ممكناً الا اذا شملت الاجراءات القضائية رؤساء الحكومات المعادية وأعظم رجالها وعرضت أعمالهم على بساط البحث والتنقيب . لان موقف دولة واحدة في ساعة الحرب لا يمكن تقديره والحكم عليه ما لم ينظر في موقف الدول الاخرى المعادية وتدرس أعمالها درساً دقيقاً خالياً من الغرض والبحث الحقيقي في مسألة التبعة يهيم المانيا كما يهيم أعداءها ولكنه لا يعد ممكناً الا اذا أنشئت له محكمة دولية محايدة خاصة لا تصدر أحكامها على بعض الافراد بمقتضى قانون الجنائيات بل تنظر في الاعمال التي أدت الى الحرب كما تنظر في الاحوال التي وقعت فيها حوادث الاعتداء على حقوق الشعوب ان تصدر بعد ذلك حكماً عادلاً على الرجال المسؤولين من الفريقين

وقد عرضت المانيا هذا الاقتراح الشريف رسمياً بعد الحرب ولكن الاعداء ، على ما أعلم ، رفضوه أو انهم لم يجدوه جديراً بالرد
ثم ان المانيا فتحت دفتارها بعد الحرب بلا حذر في حين ان أعداءها أحجموا عن افتقاء أثرها الى الآن • ولم يعلن من أوراقيهم السرية سوى الونائق الروسية التي تطبع اليوم في أمريكا

فهذه الخطة التي نهجتها الدول المتحالفة تكفي وحدها للدلالة على الفريق المسئول عن الحرب ، فضلا عن التهم العظيمة التي تؤيدها . أما المانيا فيهمها

قبل كل شيء ان تدرغ قصارى جهدها لجمع كل الوثائق التي لها صلة بمسألة
التبعة ، وان تدرس هذه الوثائق وتنشرها ، وتزيح الستار عن الاسباب الحقيقية
التي أدت الى الحرب

هذا وقد ساءت صحة جلالة الامبراطورة لسوء الحظ واستولى القلق
علي . فليكن الله معنا
المخلص غليوم

الفصل الرابع عشر

﴿ تبعة الحرب ﴾

رعا' المانيا وعناها

وأسباب تكوين « التحالف »

لم يذكر التاريخ حرباً تضارع حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ أو تقاس بها .
وليس في التاريخ أيضاً حرب اضطرت الاسباب التي أدت الى نشوبها
كاضطراب الاسباب التي نشأت عنها هذه الحرب
الحرب الكونية حادثة كبيرة تميز الالاباب من حيث وقوعها على مرأى
جيل من البشر تهذب تهذيباً سياسياً راقياً ، وتحلى بالعلم والنور ، ومن حيث
ظهور اسبابها ظهوراً ساطعاً . أما الاضطراب الظاهري لأزمة يوليو سنة ١٩١٤
فانه لن يخدع أحداً عن رؤية الحقيقة

وهناك أهمية عظمى للرسائل البرقية التي دارت بين وزارات الدول
وملوكتها ، ولمساعي الرجال غير الرسميين والرسميين الذين كانوا يتفاوضون مع
رجال دول الحلفاء . فان كل كلمة ينطق بها رجل مسئول أو يطيرها على جناح
البرق لا ريب أن لها معنى ثابتاً ومدلولاً قاطعاً

ولكن دواعي الحروب - في مظاهرها العامة - لم تتغير عما كانت عليه من قبل ، بل لا تزال هي هي . فاذا نشبت حربٌ ما فيجب ، على البصير أن لا يخاف قط من استخراج هذه الدواعي بسكينة وانصاف ، وتجريدها من كل ما يحيط بها من الامور المبهمة

لقد كان الموقف العام للامبراطورية الالمانية في السنوات التي تقدمت الحرب موقفاً ناجحاً فيزداد رونقاً وبهاءً يوماً بعد يوم ، ولهذا السبب وحده كانت بلادنا مقبلة على دور كثير المصاعب في سياستها الخارجية

وكان ارتقاء ألمانيا في الصناعة والتجارة والاعمال العامة قد صار ينبوع سعادة ورخاء للامة الالمانية بما لم يسبق له مثيل . غير أن هذا الارتقاء ، وما نتج عنه من نجاح الالمان وتقوهم حتى تمكنوا بحق من أن يستولوا استيلاء سلباً على أسواق العالم ، لم يرق في أعين بعض الامم القديمة وفي جملتها انكلترا هذا أمر طبيعي جداً ، ولم يكن سرّاً من الاسرار . ومن الذي يسره ظهور رقيب ينافسه في استمالة زبائنه القداماء وصرفهم عنه ؟ وعلى هذا فانا ليس لي ما أعترض به على امتعاض انكلترا من فلاح ألمانيا وبسط نفوذها في أسواق العالم

وكانت انكلترا تستعمل حقها لو أرادت أن تغلب على الالمان بسلوك طرق تجارية أقرب الى النجاح ، فان أمير الخصمين وأعظمهما كفاءة هو الذي يتغلب على خصمه من هذا السبيل . وليس عيباً أن تنافس أمة أمة أخرى منافسة تستند الى الوسائل السلمية ويظهر أثرها في حياة الامتين ، لأن الامتين تتسابقان في هذه الحال الى ما فيه تفعهما

أما اذا عمد أحد المتنافسين الى استعمال القوة لمنع خصمه من منافسته ، وتوسل بالوسائل الحربية للقضاء عليه فان المسألة تدخل حينئذ في طور آخر غير طورها الاول

ان موقفنا لم يصبح حرجاً الا منذ اضطررنا الى انشاء اسطول نحافظ به على

رخائنا وثروتنا اللتين لا تستندان الى صادرات ألمانيا ووارداتها بالبالتين
١٩ ملياراً

ولا حاجة الى القول بأننا لم ننشئ أسطولاً لنكسر به الأسطول
الانكليزي ، لأننا اذا نظرنا الى النسبة الحقيقية بين الاسطولين لو تقابلا
وجهاً لوجه لا نستطيع أن ندعي بأن في إمكاننا احراز النصر على الانكليز
في البحر

ومن جهة ثانية فان نجاحنا في اسواق العالم كان سائراً في طريق التقدم
سيراً مطرداً بحسب ما نريد ، ولم يكن هناك ما يدعونا الى التذمر والشكوى .
اذن فلماذا نعمل على تعريض مساعينا السلمية المثمرة لتهلكة والخطر ؟

أما في فرنسا فكانوا يبشون روح الانتقام منذ سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ •
وهم يربون هذا الشعور وينمون به بكتاباتهم الأدبية وبمقالاتهم السياسية
والعسكرية ، وبين ضباط الجيش ، وفي المدارس ، وفي الجمعيات

تلك حالة نفسية كنت على علم بها . وادا نظرنا الى الأحوال من وجهة
الفكرة القومية ومبلغها من الصواب نحكم بأن سعى الأمة لتلافي خذلانها
واصلاح فسادها محترم في نظر الناس ، وبمعكس ذلك ايثارها الخمول ورضاها
بالخذلان

ان (الألزاس واللورين) وطن ألماني منذ عصور ، وكانت فرنسا قد
قد اغتصبته منا فاسترجعناه عام ١٨٧١ • وعلى ذلك فان حرب الانتقام التي
تعلن للاستيلاء على بلاد ما برحت ألمانية منذ زمن طويل انما هي حرب جائرة
ومنافية للأخلاق . وأما تدهال يصدر منا في هذا الباب كان من شأنه أن يمس
عواطفنا القومية القائمة على مبدأ العدل . وما دام انزعاج (الألزاس واللورين)
من أيدينا لن يكون برضى منا فان نتيجة ذلك هي أن أمنية الانتقام التي
تضمهرها فرنسا لن تتحقق الا بالحرب ، وكانت ألمانيا لا ترغب في أن تعرض
للخطر ثمرة انتصارها عام ١٨٧٠ — ١٨٧١ ، لذلك بذلت هي جهدها لأن
تعيش مع فرنسا بسلام ، ولا سيما بعد ان ظهر في الأفق ذلك البرج الذي

أنشئ من عدة دول وأخذ يزحف على الاتفاق الألماني النمساوي وكانت دولة القيصرية في روسيا موجهة أنظارها الى السواحل الجنوبية باحثه لها عن منفذ على البحر ، وتلك أمينة لا غبار عليها . غير أن هنالك منافسة بين النمسا وروسيا على بلاد الصرب بوجه خاص ، وهي منافسة جذيرة بالاعتبار . وبما أن ألمانيا حليفة النمسا فقد كان لها علاقة بذلك الى درجة تما . ومن جهة أخرى فإن روسيا القيصرية كانت تتمخض في داخلها بالثورة في كل آن ، فكانت كل وزارة روسية تبحث عن مشاكل خارجية تشغل البلاد بها عن المشاكل الداخلية ، وكان ذلك الوسيلة الوحيدة التي تتوصل بها حكومة روسيا لتقرير الامن

ثم ان القرض العظيم الذي كانت روسيا في أشد الحاجة اليه قد وجدته في فرنسا ، وبذلك انتقل الى روسيا عشرون ملياراً من الفرنكات الذهب بشرط أن يكون لفرنسا شيء من الرأي في كيفية اتفاق هذا المبلغ

ولم تكن روسيا مكبله من فرنسا بسلاسلها الذهبية فقط ، بل كانت — في الوقت نفسه — آلة لفكرة الانتقام الفرنسية أيضاً . وهكذا كانت انكلترا وفرنسا وروسيا تسيرون في طرق مختلفة الى غاية واحدة وهي مناصبة ألمانيا العداء . أما انكلترا فقد اندفعت الى هذه الغاية من طريقي السياسة والتجارة . وأما روسيا فكانت تقصد هذه الغاية تبعاً لفرنسا ، ثم استرسلت في ذلك بدافع من مشاكلها الداخلية ، وبرغبتها في منفذ على البحار الجنوبية . وهذه السياسة التي اشتركت الدول الثلاث في اتباعها للوصول الى تلك الغاية الواحدة هي التي نسميها نحن « سياسة الخنق » ، يضاف اليها « اتفاق الاشراف » الذي تكلمت عليه في الفصل الثالث الخاص بالمستشار (هو هنلو^(١)) وهو الاتفاق الذي علمته أخيراً وكنت أجهله طول مدة حكمي . فلما علمت به بادرت الى الاستفهام عنه من فون (بتمن) فأجبنى جواباً مبهماً فهمت منه انه ربما كان بين أوراق وزارة خارجيتنا شيء من المعلومات عن هذا الاتفاق

وفي الواقع ان فون (هولن) سفير ألمانيا في (واشنطن) كان قد أرسل بعض الاخبار السرية في هذا الشأن ، ولكن وزارة الخارجية لم تعبأ بما أرسله اليها ولم تطلعني على ذلك ، لأن السفير لم يذكر المصادر التي استقى منها أخباره . وعلى ذلك فاف هذا الاتفاق لم يحدث قط تأثيراً في السياسة الألمانية ، غير أن العالم الانغلو سكسوني شرع يناصبنا العداء منذ سنة ١٨٩٧ . والآن صرنا نفسر بهذا الائتلاف ما كان يقع من المشاكل الكثيرة لألمانيا ، وفهمنا به سبب الخطة التي سلكتها الولايات المتحدة في اثناء الحرب العظمى أما التحالف الودي المعروف بالاتفاق الثنائي ^(١) فكان — على عكس ذلك — معروفاً عندنا من حيث المبدأ والغاية وكان له تأثير حقيقي على شئون السياسة

ولم يكن اتحاد الفرنسيين والانكليز والروس ليؤثر في موقف ألمانيا الا تأثيراً واحداً من الوجهة السياسية، فكان الواجب علينا أن ندرأ التهديد الخارجي الذي يتوقف عليه مصير ألمانيا الى أن نبلغ اقتصادياً وحرية — في البحار وفي السياسة العالمية — منزلة تجعل الأعداء يفكرون مرتين في الأمر قبل أن يقدموا على المجازفة بعمل فاصل . وحينئذ يضطرون الى الموافقة على اشتراكنا في استثمار ما بقي من الكرة الارضية ، من غير أن يحاولوا انتزاع القسط الذي تمكننا مواهبنا من المطالبة به . واننا لم نرد ولم نكن لنريد أن نعرض للخطر هذه النتيجة التي احرزناها بمجهود طويل

وصفوة القول ان الحالة ظهرت بمظهرها الحقيقي كما يأتي : ان اغراض الحلفاء لا يمكن أن تنال بغير الحرب ، أما اغراض ألمانيا فلا تتحقق الا اذا ساد السلم

وهذه هي الفكرة الجوهرية التي يجب العناية بها ، لأنها تدل على حقيقة الحال أكثر من كل دليل آخر . ولا يهمني الآن ان أبحث في الحوادث الفردية ولا في البيان البلجيكي وغيره من البيانات ولا في التسلفات التي

تبودلت قبل الحرب مباشرة ،لأنني أريد أن اترك تدقيق هذه المسائل الخاصة الى مجهودات المؤرخين

وقد عملنا بما يقضي به هذا الموقف علينا بعد ما قدرنا حالتنا حق قدرها ولكي أنكلم عن انكلترا مرة أخرى أقول : اننا أفرغنا قصارى جهدنا وفعلنا أكثر مما نستطيع للوصول الى اتفاق معها . وقد قبلنا مبدأ تحديد للقوات البحرية كما ذكرت في اثناء بحثي عن زيارة (هلدان) الى (برلين)^(١) وكنت أحاول الاستفادة من صلات القرابة التي تربطني بالاسرة الانكليزية ، ولكن ذلك كله لم يجد نفعا ، لأن خطة الملك (ادورد السابع) كانت خطة الملك الانكليزي الذي يعمل على تحقيق برنامج حكومته . أضف الى ذلك أطاع هذا الملك الذي ارتقى عرش المملكة متأخراً

لقد بذلنا كل ما في الطاقة في سبيل مصادقة انكلترا ، ولكن مساعينا كلها ذهبت ادراج الرياح ، لأن تجارتنا الخارجية كانت آخذة في النمو ، ولانه لم يكن في امكاننا توقيف مجهوداتنا التجارية اكراماً للانكليز

على أن الذين اهتموا بتدقيق سياستنا اراء الانكليز انتقدونا كثيراً لرفضنا التحالف الذي جاءنا به المستر (تشمبرلن) وزير المستعمرات البريطاني في أواخر سنة ١٨٩٠ . ولكن هذه المسألة اذا نظر اليها من قريب ظهرت بغير الشكل الذي يتوهمه الانسان لأول وهلة . وذلك لأن (تشمبرلن) كان يحلم ككتاباً من اللورد (سالسبوري) رئيس الوزارة الانكليزية الى البرنس فون (بيلوف) جاء فيه : ان (تشمبرلن) يعمل من تلقاء نفسه ، وان الوزارة الانكليزية ليست على رأيه

رووب فان يقول ان هذا الكتاب ربما كان في من الماورات السياسية العنيفة التي ترمي الى عدم تنفيذ الوزارة الانكليزية التي تنويع اعمالنا على غير انكار اننا لم نكن لنا سياسة واحدة ، اننا رأينا اننا نسير في طريقين مختلفين ، اتفاق بين انكلترا ، ألمانيا - فرنسا - هولندا ، بل اننا لم نكن

وبما ان هذا العمل كان على الغالب من المناورات السياسية ، وبما ان الحكومة الانكليزية التي أوفدت (تشمبرلن) الى (برلين) ارادت ان تحفظ لنفسها حرية العمل ، فان البرنس (بيلوف) دخل بالاتفاق معى في مفاوضة طويلة مع المستر (تشمبرلن) فأتضح لنا حينئذ ان هذا التحالف الألماني الانكليزي سيوجه الى روسيا . وقد بحث تشمبرلن بكل صراحة في الحرب المقبلة التي تعلنها انكلترا وألمانيا على الروس . ورفض البرنس بيلوف بادب — ولكن بشدة وبالاتفاق التام معى — ان يعمل على تمكير صفو السلم في أوروبا . وكانت خطته هذه مستمدة من روح المستشار الأكبر لان البرنس (بسمرك) كان قد وضع المبدأ التالى — وقد سممته مراراً يصرح به في محيط الأسرة البسمركية — : « ان ألمانيا يجب عليها ان لا تكون سيف انكلترا في البر »

وهكذا واصلنا خططنا السياسية وفقاً للبرنامج الذي وضع لها . أي اننا رفضنا الموافقة على كل عهد قد يعكر صفو السلم ويدفعنا الى حرب لا يكون سببها الاساسى الدفاع عن أرض الوطن . وان رفض اقتراح (تشمبرلن) لمس الأدلة الكثيرة على حب ألمانيا للسلم

وقد حاولنا ان نجعل علاقاتنا مقبولة مع فرنسا . ولكن ذلك كان صعباً جداً علينا ، لاننا كنا في نظر الفرنسيين اعداء بلادهم الالاء منذ القدم . وبديهي انه لم يكن في طاقتنا ان نوافق على مطالب سياسة الانتقام . على اننا توصلنا مع ذلك الى تسوية مشكلة (المغرب الاقصى) تسوية سلمية ، من غير ان يفكر رجل واحد في ألمانيا بامكان وقوع الحرب بسببها . وقد قبلنا حينئذ من أجل السلم ان تعزز فرنسا مركزها وفقاً للمنافع المتبادلة التي ذكرت في معاهدة (مصر — مراکش) والتي ابرمت سراً مع انكلترا بصرف النظر عن المصالح العظيمة التي كانت لألمانيا في (المغرب الأقصى)

ولكن (مؤتمر الجزيرة) كان من النذر الاولى للحرب العظمى

ولم يكن من المستحسن أن نلتزم سياسة التقهقر في هذه المرة أيضاً كما التزمناها في مسألة (المغرب الاقصى) ، غير أننا وضعنا رغبتنا في المحافظة على السلم العام فوق أي اعتبار آخر فآثرنا التضحية في هذه المسألة أيضاً ، وكانت نتيجة ذلك أن فرنسا أساءت تفسير الكياسة واللين اللذين أظهرناهما للوضول الى هذا الغرض

وأريد أن أشير هنا الى رحلة والدتي الامبراطورة (فردريك) الى (باريس) . فقد كنا نظن أنهم سيحسنون هنالك وفادتها مدة اقامتها بينهم لأنها أميرة انكليزية ، وقد قصدت باريس لتشاهد ما فيها من الفنون الجميلة بصفتها من أهل الاختصاص في هذه الفنون . وكان قد سبق لي زيارة الامبراطورة (اوجيني) مرة في قصر (فارف بوروخ) عند عودتي من (الدرستون) ومرة في مخنها الراسي في مياه نوروج اذ كنت يومئذ هناك ، وكنت أرى هذه المجاملات من الامور الطبيعية

ولما جاء الجنرال (بونال) الفرنسي الى (برلين) دعي مع جميع ضباطه الى تناول الطعام على مائدة الاي الحرس الثاني، فحضرت أنا أيضاً هذه المأدبة وشربنا نخب الجيش الفرنسي ، ولعلمهم لم يكونوا يتوقعون أن أجاملهم هذه المجاملة

وقد كنت أفعل ذلك عن حسن نية . واستدعيت الى بلادنا بعض المتفنيين من الفرنسيين رجالاً ونساء . ومع أننا كنا نفعل ذلك بمقتضى السياسة الكبرى فان هذه الاعمال لم تكن تخلو من الدلالة على حسن نيتنا أما روسيا فقد عانت في سبيلها أعظم المشاق ، ورسائلتي التي كانت تنشر بين حين وآخر لم أرسلها بالطبع الا بعد موافقة مستشاري الامبراطورية عليها . وقد بعثت بها بعد استشارتهم بل بالاحرى بعد اصرارهم علي بارسالها . ومن المحتمل ان روسيا ما كانت لتخوض غمار الحرب ضد ألمانيا في عهد القيصر (اسكندر الثالث) لأن هذا القيصر كان رجلاً أميناً واثقاً بنفسه .

اما القيصر (نقولا) فقد كان على عكس ذلك ضعيفاً ومذبذباً . يرى الحق دائماً في جانب آخر رجل يكلمه . ولم يكن في امكانى بطبيعة الحال ان اكون هذا الرجل على الدوام

على أنى أفرغت قصارى جهدي مع هذا القيصر لتوطيد الصلات الودية التقليدية التي كانت تربط ألمانيا بروسيا . وكان الوعد الذي صدر مني لجدي وهو على فراش الموت من أكبر العوامل التي حملتني على نهج هذه الخطة بصرف النظر عن جميع العوامل السياسية

وقد نصحت للقيصر (نقولا) غير مرة باجراء الاصلاحات الحرة في داخل امبراطوريته ودعوة المجلس المسمى (مجلس الدوما الاكبر) وهو الذي كان موجوداً في عهد ايثان البطاش . ولم أكن أتوخي من هذا العمل أن أتدخل في شئون الروس الداخلية ولكنى كنت أسمى - لمصلحة المانيا - في درء اخطار الثورات الداخلية التي تؤدي في أغلب الاحيان الى مشاكل خارجية ، وفي تحسين حالة روسيا الداخلية المشربة باخطار الحرب

وقد أقدمت على ذلك بكل سرور ، ولا سيما لانى كنت أعلم اننى أخدم القيصر وأخدم روسيا معاً

على أن القيصر لم يكن يريد ان يسمع شيئاً ، وقد دعا مجلس الدوما الجديد الى الاجتماع من غير ان يمكنه من القيام بالمهام المناقاة على طاقه . ولو أنه دعا مجلس الدوما الفسديم لتكن على الاقل من ان يفاوضه شخصياً ، وان يناقش كل مندوب من مندوبي امبراطوريته الواسعة ، وبعبعد بدلتك الثمينة الى الامداد

ولما فرد القيصر اسلان الحرب على اليابان ابلغته انى سأمنع خدمته من اخذ من الزراء . أقيم المصاب في وجه من يتناول ذلك . وقد برزت ألمانيا بدها شذا

وسار في الحرب سيرها الطبيعي فلم يلق القيصر ساكالت

ووقف الجيشان وجهاً لوجه بضعة أسابيع من غير ان يقدموا على عمل حربي كبير . فاضطربت لذلك الحكومة الروسية . وجاء الفرندوق (ميخائيل) شقيق القيصر لزيارتي في (برلين) ولم نكن نعلم ماذا يبتغيه الفرندوق منا . وقد طلب مني الپرنس (بيلوف) - وكان حينئذ مستشاراً - ان اسأل الفرندوق عن حالة روسيا ، لان الپرنس كان قد تلقى أخباراً سيئة عنها وفكر بان الوقت قد حان لتضع روسيا حداً للحرب

وقت بالمهمة التي كلفني بها المستشار ، وظهر الفرندوق كأن صخرة كبيرة أزيحت عن صدره لما كلفته بصراحة ، فأكد لي ان الحالة سيئة جداً . فقلت ان القيصر يجب عليه ان يفكر في الصلح لان المعلومات التي تلقيتها من الفرندوق تقسه والتي دلت على ان الحال المعنوية في الجنود والضباط لا يمكن الاعتماد عليها هي في نظري شديدة الخطر كبوادر الهياج التي ظهرت في داخلية البلاد

وثان الفرندوق (ميخائيل) مرتاحاً الى الفرصة التي سنحت له ودعته الى الكلام . فقال لي ان القيصر متردد شأنه في كل حين ، وان الواجب يقضى عليه بابرام الصلح ، وهو لا يحجم عن ذلك اذا اسديته هذه النصيحة . ثم رجا مني أن اكتب كلمة بهذا المعنى نقلها هو الى القيصر

وقد وضعتُ باللغة الانكليزية مسودة لهذا الكتاب وذهبت الى بيلوف لابسطة له خلاصة ما دار بيني وبين الفرندوق من الحديث ، ولكي اطلمه على مسودة الكتاب . ففكر الپرنس ملياً في الامر ثم استصوب فكرتي

وقد أخبر الفرندوق الكونت (اوستن ساكن) السفير الروسي في (برلين) بما جرى ، ثم كرر شكره لي ، وعاد الى القيصر رأساً يحمل كتابي . وحينئذ بدأ القيصر بمفاوضات الصلح

وقال الكونت (اوستن ساكن) حينما اجتمع بي للمرة الأولى بعد هذه الحادثة انني خدمت القيصر وخدمت روسيا اعظم خدمة . فسررت حينئذ

من هذا القول لأني أدركت ان الجماعة فهموا خطي ، ورجوت أن تتحسن العلاقات المقبلة بين روسيا وألمانيا . وكنت بهذا العمل قد أبعدت اخطار الثورة الروسية عن حدودنا ، لأن هذه الأخطار كانت عظيمة لو وقعت الثورة في ابان الحرب الروسية اليابانية

على أن ألمانيا لم تقابل بما تستحقه من عرفن الجليل . وقد كانت خطتنا في ابان الحرب الروسية اليابانية أعظم دليل على حبنا الحقيقي للسلم . وكنت دائماً اسعى لتوحيد اركان هذا السلم في العالم . لذلك القيت شبكة المفاوضات التي أسفرت عن مقابلة « بجوركة » — يوليو سنة ١٩٠٥ — حيث بحثنا في عقد تحالف بين ألمانيا وروسيا وجعلنا باب التحالف مفتوحاً لحلفاء انتريتين ولسائر الدول . ولكن هذا المشروع لم تتم الموافقة عليه بسبب معارضة الحكومة الروسية « ايزولوسكى »

ولدي الآن بضع كلمات اقولها عن امريكا صارفاً النظر عن « اتفاق الاشراف » الذي ورد ذكره فيما مضى وكان يقضى مبدئياً على امريكا بمساعدة انكلترا وفرنسا اذا وقعت حرب عالمية . فاذا استثنينا هذا الاتفاق فان امريكا لا تعد من دول التحالف الودي الذي انشأه الملك ادورد تنفيذاً لأوامر حكومته . لذلك يمكن أن نؤكد — على قدر ما تسمح لنا الوثائق المعروفة — بأن امريكا لم يكن لها يد في اضرار نار الحرب . وكل ما يمكن ان يقال في هذا الشأن هو أن الجواب غير الودي الذي أرسله الرئيس (ولسن) الى الحكومة الألمانية في بدء الحرب كان ذا صلة « باتفاق الاشراف » الذي تقدم الكلام عنه

وهذا لا يعنى ان امريكا بدخولها في الحرب ، وبما كانت ترسله من المقادير الهائلة من الذخيرة ، قد اضعفت آمال دولتي الوسط بالنصر

على ان الانتقادات التي اساسها العواطف لا يمكن أن توجه الى امريكا أو الى غيرها من الدول ، لان السياسة العليا لا تعرف غير الحوامل الحقيقية ،

وأمرىكا كانت بالرغم من (اتفاق الاشراف) تستطيع ان تبقى حرة محايدة كما تستطيع ان تخوض غمار الحرب معنا أو مع الحلفاء . وليس في العالم من يستطيع ان ينتقد أمة فيما تقرره بشأن الحرب أو السلم الا اذا كان هذا القرار مخالفاً لمهود قطعية ثابتة وليست هذه حالة امريكا . ومع ذلك فمن المناسب ان نشير في هذا المقام الى ان المستر (جون كنيث تورز) اثبت في كتابه (هل تتكرر ؟) الذي سبقت الاشارة اليه ^(١) أن جميع الحجج التي ادلى بها (ولسن) لتبرير دخوله في الحرب لم تكن الا حججاً وهمية ، أما الحقيقة فهي ان الرئيس قد عمل مدفوعاً بمصالح كبار الممولين في « وال ستريت » . ومن أكبر الأدلة على الفوائد المادية العظيمة التي جنتها امريكا من الحرب انها جمعت في خلالها أكثر من خمسين في المئة من ذهب العالم كله . وهذا ما جعل الدولار يحل الآن محل الجنيه الانكليزي ويدير حركة القطع في العالم .

ولكن هل يمكننا ان نحقد على أمريكا من أجل ذلك ؟

ان كل أمة تجد نفسها في مثل هذا الموقف الذي تغبط عليه لا تحجم عن أن تسمى بكل سرور في أسواق العالم لتكسب هذه الثروة الطائلة وهذا لننفوذ العظيم . اما نحن فلا نستطيع الا أن نأسف لان أمريكا لم تفضل الاتجار مع دولتي الوسطى

وبعد فان لألمانيا الحق في أن تحتج على دول الحلفاء لمقابلتهم مساعيها السلمية بالسلاح الحربي ، كما أن لها الحق في أن تحتج على الولايات المتحدة لما ارتكبته نحوها في أواخر الحرب من الأمور المخالفة للحقوق

تبعه الرئيس ويلسن

لا تقع على أمريكا

أنا مقتنع بأن أمريكا لا تقع عليها نبعة شيء من هذه الأعمال . ولو انه
نساء أمريكا على الخصوص استنارت لمن الحقيقة في حينها لعارضن الرئيس
(ويلسن) من الساعة الأولى التي حاد فيها عن مبادئه الأربعة عشر
وقعت أمريكا — أكثر من كل بلد آخر — في شرك الدعوة الانكليزية
الكاذبة . وهذا هو السبب الذي جعل الرئيس (ويلسن) يتوهم في باريس
بمفاوضات واسعة النطاق كأنه الحاكم المطلق حتى أدى ذلك به الى الانخراط
عن قواعده وايصال بلاده الى أخرج المواقف

وكما أن مستر (ويلسن) تغاضى — فيما بعد — عن الحصار الانكليزي الذي
كان احتجاج عليه من قبل كذلك فعل في مبادئه الأربعة عشر التي وافقت
عليها ألمانيا رغم ما فيها من الشدة . وان الحلفاء أيضاً وافقوا على هذه المواد
إذا استثنينا مسألة حرية البحار

ومع أن (ويلسن) قد ضمن هذه المواد الأربعة عشر فاني لا أرى منها
في معاهدة (فرساي) غير المواد الموافقة لأمال الحلفاء الاستبدادية ، وهذه
أيضاً لم تدخل في المعاهدة الا بعد أن اصبحت بالتحريف والتصحييف

ان ألمانيا جلت عن بلاد الأعداء التي كانت تحتلها ، وألقت سلاحها من
يدها دون ان تدافع عن نفسها ، وذلك كله اعتماداً على الضمانات التي أعلنها
الرئيس (ويلسن) . وما موقفنا الحاضر الا نتيجة الثقة العمياء التي وثقناها
بالرئيس (ويلسن) من جهة وظهور الثورة الألمانية من جهة أخرى . ويرى
(تورر) ان مواد (ولسن) الأربعة عشر كان المقصود منها حمل ألمانيا على
ترك السلاح منذ عقدت الهدنة ، فلما حصل المقصود منها تناسى (ولسن)
هذه المبادئ . وان فريقاً كبيراً من الامريكيين وقفوا للرئيس (ولسن)
موقف المعارضة لئلا يصيبهم ما أصابه من الفشل

واني لا أطمع في أن تنبري الولايات المتحدة الى مساعدة ألمانيا من تلقاء نفسها ، ولكنى واثق بما للأمريكيين من حسن البصيرة ، وسيأتي يوم يدركون فيه ما يجب عليهم من تلافي الخطأ الذي ارتكبه رئيسهم السابق بعدائه للالمانيين . واذا حل اليوم الذي تناقش فيه المسائل السياسية الكبرى فسيذكر الناس - ليس في ألمانيا فقط بل في كل الدنيا - ان الثقة التي فاتها رئيس الولايات المتحدة كانت مبنية على الخطأ . وان الغلطة التي كان يجب أن تسجل في قائمة أعمال رئيس الجمهورية وحده ستقيد في حساب الأمة الأمريكية جمعاء ، ولن ترجح أمريكا شيئاً في مقابل ذلك . وأي فائدة ترجى من سياسة طبعت بطابع عدم الوفاء بالعهد ؟ ان الناس لن يذكروا المستر (ولسن) اذا أصدروا حكمهم في المستقبل على السياسة التي اتبعتها أمريكا ، وسينسون أن (لويد جورج) و (كليمنسو) خدعا هذا الرجل

لقد اتيحت لي فرصة الاجتماع بكثير من الرجال والنساء الأمريكيين ولا سيما في أسبوع (كيال) . والامريكيون لا يوافقون على لعبة كاللعبة التي صدرت من مستر (ولسن) ، واني عظيم الأمل بأن أمريكا ستقف في يوم ما موقفاً ملائماً لوطننا ألمانيا

واني أضيف هنا الى ما قلته عن اهمال مواد (ولسن) الأربعة عشر أن أمريكا كانت أول من طلب ابعاد (آل هوهنزولرن) بدعوى أن ذلك مما يضمن للألمان شروط صلح حسنة . وكان يجب على وزارة البرنس (مكس دي بادن) - قبل ان تطلب الي التنازل عن العرش - ان تحصل من المستر (ولسن) على ضمانات حقيقية في هذه القضية التي كانت السبب الأول في موافقتي على الانتقال من ألمانيا الى بلاد أجنبية ، لأنني قنعت يومئذ بأني أدت بعلمي هذا خدمة لبلادي ، فآثرت هذه الخدمة على مصلحتي الشخصية وعلى مصلحة أسرتي بعد جدال اليم قام بيني وبين نفسي ، ثم ما لبثت أن تأكدت من أن القابضين على أزمة الأمور في ألمانيا لم يكونوا

حاصلين على شيء من الضمانات الحقيقية ، ولم يكن لدي الوقت الكافي لاعلم مبلغ أقوال المستشار من الصحة في ذلك الوقت الذي كانت الحوادث تجري فيه بسرعة ، فتلقيت أقوال المستشار كأنها قضية مسلمة

ان الحلفاء الذين كانوا قد اتخذوا الرئيس (ولسن) ترجيحاً لأفكارهم قد تبين الآن غرضهم من المطالبة بإبعادي . فهم كانوا متأكدين من أن إبعادي عن البلاد الألمانية يدعو إلى حدوث أزمة سياسية وعسكرية فيها فيسهل عليهم وضع الشروط القاسية عليها لاختفيف الشروط كما كان يقال . اذ من المؤكد عندهم أن بقاء علي عرشي أنفع لألمانيا من نزولي عنه . وهم على صواب في رأيهم هذا الذي أنا أشاركهم فيه . أما حكومة الهرنس (مكس دي بادن) فانها لم تكن تستند إلى أساس صحيح عند ما كانت تقول ان تنازلي عن العرش يضمن لألمانيا شروطاً أصح لها

ان قوانين حماية العمل التي منحتها لبلادي دليل على أن سياستنا الداخلية كانت قائمة على مبادئ السلم منذ ارتقيت عرش الامبراطورية . ومن هذه المبادئ استوحينا قوانيننا الاجتماعية التي جعلت ألمانيا في مقدمة أم الارض من حيث التضامن الاجتماعي

ولقد تقدمنا في هذه السياسة السامية خطوات واسعة حتى كان جيشنا قليل العدد بالنسبة إلى عدد الشعب وإلى كون التجنيد اجبارياً . وان الامبراطور وحكومته وافقوا على التخفيض الذي قرره (الرخشتاغ) في الجيش وفي الاسطول . وقد وضع نواب الالمان حدوداً وقفت عندها أهمية الاسطول الحربي الالماني ، وما هكذا تكون خطة الدولة التي تريد الحرب وتستعد لها وعندما كانت سياسة العداء والحقن تظهر لنا من دول الحلفاء ظهوراً واضحاً كانت وظيفتنا منحصرة في تقوية الوسائل للدفاع عن رخائنا وسعادتنا . وهذا القلق الطبيعي الذي كان يحملنا على تنظيم اسباب الدفاع عن كياننا قد ساقنا في النهاية إلى اتخاذ تدابير غير ذات بال ، بقصد الذب عن قوميتنا . وان

الرأي العام السلمي في ألمانيا قد حال بيننا وبين تكوين قوة لنا في البر وفي البحر تناسب قوتنا المالية وتعداد شعبنا . وهذا الذي نتحملة الآن ليس نتيجة ما ينسبونه إلينا من الميول الحربية بل هو نتيجة حبنا للسلم حباً لا يكاد يصدق ، وإخلاصنا الى الثقة والطمأنينة اخلاذاً أسمى

ولقد أوضحتُ فيما تقدم المبادئ السياسية لدول الحلفاء المخالفة لسياستنا تماماً ، وأشارت الى المساعي التي قننا بها لدى كل واحدة منهم رغبة في مجاملتهم وحسن معاشرتهم . وأريد بهذه المناسبة أن لا أهمل الإشارة الى أمور بالدرجة الثانية قننا بها تخفيفاً لروح العداء التي كان الحلفاء قد ضربوها علينا نطاقاً كان أسبوع (كيال) يأتينا بالضيوف من كل البلاد . فكنا نقف في جانب الحياد من ميدان الالعب الرياضية فنمثل دور التوسط في الصلح في هذا الميدان أيضاً . وكذلك لم نخرج عن هذه الخطة في الميدان العلمي عند تنظيم مبادلة الاساتذة . وكنا نتفانى في اعداد وسائل التسهيل والمساعدة لكل من يرغب - من الضباط الاجانب - في فهم أوضاع جيشنا وتشكيلاته . ولعل عملنا هذا يعدّ اليوم غلطة من الغلطات ، ولكنه أحد الامثلة التي تدل على ميولنا السلمية

ولم تعمل ألمانيا قط لانتهاز أية فرصة تؤهلها للحصول على ضمانة النصر في حرب تخوض غمارها . وقد ذكرت آنفاً موقفنا الحميد تجاه الحرب الروسية اليابانية . ولما دخلت انكلترا في الحرب مع البويركان في استطاعتنا أن نحاربها أو أن نحارب فرنسا التي لم يكن حصولها على مساعدة انكلترا ممكناً في ذلك الحين ، فلم تفعل شيئاً من ذلك

ولا أعود الى ذكر الازمة المراكشة التي أفضت الكلام عليها من قبل (١) وإنما أقول اننا رفضنا يومئذ باشمئزاز كل فكرة ترمي الى اعلان الحرب ، وكذلك برهنا على ميولنا السلمية في خلال الازمة التي نشأت عن الحاق

(البوسنة والهرسك) بالتمسك

ان الذي يعمن النظر في مجموع هذه الوقائع السياسية الصريحة جداً ،
ويلاحظ التصريحات التي أعلنها (بوانكاره) و (كليمنسو) و (إزفولسكى) و
(تارديو) وغيرهم من ساسة الحلفاء . لا بد أن يتساءل عن معاهدة الصلح
كيف قامت على قاعدة أن ألمانيا هي المسؤولة عن الحرب الكونية . ان قراراً
كهذا مبنياً على الكذب لن تتجاوز محكمة التاريخ عن سيئة الذين أصدروه
قال أحد الفرنسيين . وهو المسيو (لويس كيتان) مندوب (جمعية
حقوق الانسان) في (ليون) : « يجب علينا أن نبصر الأمور كما هي بلا
تعصب ، وأن لا نبالي بعد ذلك الى أي زاوية من زوايا الأرض يوصلنا حظنا
اننا اذا فعلنا ذلك نتوصل أولاً الى أن حرب سنة ١٩١٤ نشأت عن
حرب سنة ١٨٧٠ ، لأن عاطفة الانتقام الخفية في نفوسنا لم تنقطع عنا قط
- قليلاً أو كثيراً - منذ حرب سنة ١٨٧٠ التي أرادت وأعلنتها الحكومة
الفرنسية بتحريض حزب التوسع الاستعماري والفئات الدينية المتعصبة .
وكانت الامبراطورية الفرنسية في حاجة الى هذه الحرب لتتغذها من المشاكل
الداخلية ومن الاستياء العام . وكان (غامبتا) خطيب المعارضة المقرس يقول
يومئذ : اذا اعطتنا الامبراطورية الساحل الأيسر من نهر (الرين) فاني اصالحها
غرب سنة ١٨٧٠ كانت حرب فتح بكل معنى الكلمة : فلم نكن نبالي
برأى اهالى البلاد التي سنفتحها ؛ بل كنا نرى ان الانتصار سيملى عليهم ارادتنا
وبرغمهم على الاذعان لها

ولكن الفرصة أضيعت . فان البرنس (ليوبولد) أعلن تنازله عن حقه
حينما رأى ان ترشيحه قد أدى الى ما أدى اليه من المشاكل السياسية
واخطار الحرب ، وهكذا لم تبق في يدنا وسيلة لاعلان الحرب . فنفضنا
أيدينا من الغنائم الدموية والمجد والنصر ومن الشاطئ الايسر لنهر (الرين)
بل ومن (بلجيكا) ، فكان مثل ذلك كمثل العجل والبقرة والدجاجة الرنقاء

في قصة (الفتاة الحلاّبة) من قصص (لافونتن) . ولما كان ذلك من الخسائر المؤلمة فقد اقتضت الحال بذل المساعي مرة أخرى لاقتناص الفرصة ، فأنبرت لذلك الصحف المتعصبة المتحيزة للكنيسة حتى وجدت المخرج الآتي : ندب وزير خارجيتنا (غرامون) سفيرنا (بنديتي) لمقابلة الملك (ولهم) الذي كان يبذل الهواء في (ايمس) والحصول منه على تعهد كتابي بأن الرئيس (ليوبولد) اذا عدل عن قرار التنازل عن حقه فان الملك (ولهم) يعارض في ذلك بصفته كبير الاسرة

ولقد وافقت اسبانيا بصورة رسمية أكيدة على تنازل (ليوبولد) بحيث لم يكن سبيل الى الاشتباه في ذلك . وبالرغم من كل شيء فان صحف (باريس) كانت كلها تحرض على الحرب ، حتى أن (روبر ميتسل) أهين لما كتب في جريدة (كونستيتوسيون) مستبشراً بإمكان الصلح ، وحتى كان (غامبتا) يقول :

-- انكم تستبشرون ، أليس كذلك ؟ ان عملكم هذا جناية...

فغمسوا جريدة (روبر ميتسل) في الماء وضربوا بها وجهه وكتب (اميل دوجيرار دين) يقول : « هذه فرصة لم تكن مأمولة ، فاذا أضاعتها الامبراطورية فانها تشرف على الاضمحلال » ان هذه الاصوات يجب أن لا تبديد في زوايا النسيان لأنها شهادات لألمانيا براءتها

لنراكم نكبت ألمانيا على مات سياسية

ولكن عاقلاتها ليست جرائم

وان لا أزعج أن ألمانيا كانت بريئة من الخطأ في تصرفاتها السياسية خلال لسنوات الدشر الأخيرة ، ولكن هذا الخطأ قد ناتجاً عن رغبتنا في المحافظة على السلام ، فهو ليس بشبهة . مثال ذلك أني أعتبر (مثير) بل أن

غلطة كما ذكرت ذلك من قبل ^(١) لأن هذا المؤتمر زاد علاقاتنا بروسيا تراخياً ، وانما كان مؤتمر برلين فوزاً أحرزه (دزرائيلي) لانكلترا والنمسا على روسيا فأدّى الى سخط روسيا على ألمانيا . وبالرغم من ذلك فاننا بذلنا فيما بعد كل الوسائل لاستمالة روسيا الينا ثانية . وقد ذكرت (في اوائل الكتاب) أن البرنس (بسمرك) انما كان يقصد من الدعوة الى مؤتمر برلين أن يحول دون نشوب حرب طامة

ولما تلقى المستشار فون (بتمن هولويغ) الاوامر القطعية في عام ١٩١٤ بالمحافظة على السلم ارتكب بعض الغلطات فدل على أنه لا يصلح - بوجه من الوجوه - لأن يكون رجل حكومة في خلال ازمة كونية . ولكن اعداءنا مع استفادتهم من غلطتنا يريدون أن يحملونا تبعة الحرب ان (بتمن هولويغ) أراد - مثلنا جميعاً - أن يحول دون وقوع الحرب ، وقد ثبت - من أطواره وحركاته السياسية ، ومن اصراره حتى اغسطس على مفاوضة الانكليز الى النهاية - أنه كان يؤمل عبثاً بأن يجعل الانكليز خارجين عن دائرة الحلفاء

وبهذه المناسبة أريد أن اذكر القاريء بالغلطة التي ارتكبها البرنس (ليشنوفسكى) سفير المانيا في (لندن) . فانه لما وصل الى منصبه الجديد دعاه الملك (جورج) الى مأدته فاقتدت أندية (لندن) بالملك واستقبلت السفير وقرينته استقبالا حسناً ، فاستدل البرنس (ليشنوفسكى) من ذلك على أن علاقاتنا بانكلترا تحسنت . وظل مصرّاً على اعتقاده هذا الى أن نبهه السر (ادورد غراي) بلهجة باردة قبيل اعلان الحرب الى أن ما يقابل به من مظاهر اللطف والود يجب أن لا يستنتج منه نتائج سياسية . وهذه الحادثة تدل على الفرق الذي بين الانكليز والالمان في العواطف والشعور . فسفيرانا فهم من الجاملات التي يبدونها له أن ذلك من مظاهر الميول السياسية ، لأن من عادة

الامان ان يعربوا عن رغبتهم وعن نفرتهم بالمقابلات التي تعرض لهم في
الاندية والجامع ، وأما الانكليز فيفرون بين المعاملات الشخصية
والمعاملات العامة

ان عدم تجديد الاتفاقيات القديمة التي كانت تربطنا بروسيا لم يكن ليؤثر
على الحرب أو السلم . وقد كثر الكلام على هذا الاتفاق ، لكنني أعتقد بأن
« معاهدة الضمانات المتقابلة ^(١) » لم تكن لتمنع القيصر من الالتحاق بالحلفاء ،
وعلى عكس ذلك (اسكندر الثالث) فان ذلك مما لا لزوم له بالنسبة اليه

وكان (سمرك) يقول ان الكونت (شوالوف) شقيق سفير روسيا
مستعد لتجديد المعاهدة معه ^(٢) ولكنه لا يميل الى تجديدها مع خلفه ،
وتلك مسألة شخصية محضة فلا علاقة لها بموقف الدولتين . بل ان الكونت
(برشام) مستشار البرنس قال في أحد تقاريره ان المعاهدة لا يمكن تجديدها حتى
ولا بواسطة (شوالوف) . وأنا أرى انه كان يجب - بدلاً من تجديد المعاهدة
القديمة - عقد اتفاقيات جديدة مبنية على أغراض أخرى وأن تكون النمسا
أيضاً داخله فيها ، أي ان تعقد معاهدة تشابه « اتفاق الامبراطرة الثلاثة »
غير ان الاتفاق مع (نقولا الثاني) لم يكن ممكناً كما تقدم ، ولا سيما بعد أن
صارت الاندية الروسية النافذة الكلمة معادية لألمانيا

ان الخطة التي جرينا عليها هي أن نجعل موقف ألمانيا قوياً وان نحافظ
على السلم لنضمن لبلادنا الثقة والمكانة في العالم . وكنت أنا أؤيد هذه الخطة
لأسباب شخصية أيضاً ، فأنا لم أدع للغرور الحربي سبيلاً الى تقسي في وقت
من الأوقات . وكان والذي قد وصف لي في أيام شبابي ميادين حرب ١٨٧٠
- ١٨٧١ وصفاً فظيماً مؤلماً ؛ فنشأت حريصاً على أن لا أدفع الأمة الألمانية

(١) انظر ص ٤٦

(٢) انظر ص ٤٧

والدنيا كلها الى مصيبة أعظم من تلك المصيبة وأشد منها فظاعة وآلاماً
وكان ذلك الشيخ الجليل المارشال الكونت (مولتكي) يقول: « ويل
للرجل الذي يضرم لأوروبا نار الحرب »

وكنت قد اتخذت كلمة الهرنس (بسمرك) الآتية وصية سياسية منه
وهي: « يجب على ألمانيا أن لا تعلن حرباً ، فنحن لسنا في حاجة قط الى
الحرب »

كانت أنظار ألمانيا متجهة الى السلم فقط . وكانت خطتها تجنب الحرب
والسعي لتسوية المسائل التي تؤدي اليها تسوية سلمية . وقد قضت بذلك
الخطة المعينة التي نهجناها ، وطبعتي الشخصية ، ووصايا رجلين من أعظم
رجالنا هما (بسمرك) و (مولتكي) ، ورغبة الشعب الألماني في ان يعمل
وينمو في السلم بعيداً عن المغامرات

ان كل ما قيل في الاندية السيئة النية عن وجود حزب في ألمانيا يريد
الحرب انما هو من الاكاذيب الملفقة لغاية في النفس . فقد وجدت عندنا كما
في جميع البلاد عناصر تجبذ الالتجاء الى القوة في ساعات الشدة مدفوعة الى
ذلك بعوامل شريفة أو غير شريفة ، ولكن هذه العناصر لم تؤثر في سير
السياسة الألمانية أقل تأثير

وقد اتهموا هيئة اركان الحرب الألمانية خاصة بالعمل على تكبير صفو
السلم ، ولكن هذه التهمة لا تستند الى أساس ، لان هيئة اركان الحرب
البروسية عدهم ، ما يكسبها رطلها أجل خدمة بلاديته من الجمهوريات الديمقراطية .
فانها كانت تعنى في اباد السلم بشجدة . ألمانيا تها هو الجاهل المتروك
عالمها . ولكن تأتبه دائما في السياسة كاذباً عما كان الجيش الألماني -- كما يعلم
الجميع -- قليل الاعتماد على القوة المادية

على اننا نعلم اننا -- ونحن ننظر الى الماضي -- اننا نرى العسكرية العليا
لندسات في شرف السياسة لسكان ذلك غمرا ان

تأثير الدعوة الانكليزية

في اسناد الفظائع الى ألمانيا

ولا ندري كيف شيد صلح (فرساي) على أساس تبعة ألمانيا ، بالرغم من الحقائق الساطعة التي أشرنا اليها . ولكن هذا السر ينكشف لنا تماماً اذا انعمنا النظر في الأساليب الجديدة التي ابتكرت للحرب وعادت بأعظم النتائج ، وأعني بذلك الدعوة السياسية التي بنتها انكلترا ضد ألمانيا ، تلك الدعوة التي نظمت على أوسع منوال وتعدت بأعظم ما يمكن من الجراءة على تشويه الحقائق . ولا يسعني ان اقتصر في كلامي عن هذه الدعوة على اعلان الاشتمزاز الشديد منها ونعتها بالالفاظ التي تستحقها ، كالقول بانها « دناءة » مثلاً . لان الفائدة التي جناها العدو منها جديرة بأن تلفت الانظار اليها مهما تكن فظيعة في حد ذاتها ، فقد كان خطرنا علينا أعظم من خطر جيوش الاعداء كلها

ان مثل هذا السلاح اذا وضع في يد الخبث والرياء لا يمكننا نحن الالمان ان نقابله بشيء من الارتياح ، لأنه لا يتفق مع اخلاق شعبنا ، ولاننا لا نستخدم في سبيل الاقناع غير سلاح الحقيقة ، ولو كان ذلك في مصلحة أعدائنا ولكن الحرب لا قلب لها ولا وجدان ، وهي تجدد في النصر مبرراً للجميع الأفعال حتى أشدها فظاعة . وهل في العالم أقطع من أناس يقذفون قنابل المدافع الضخمة على رجال متمدين ويدمرون المدن الزاهرة والآثار القديمة ؟ ان هذا ما كان يفعله الفريقان المتحاربان في ابان الحرب

على أننا لم نكن لنستطيع أن ننظم أسلوباً واسع النطاق لبث الدعوة أسوة بأعدائنا ، لاننا كنا محصورين وكانوا هم احراراً . فضلاً عن ان الشعب الألماني لا يملك الموهبة التي تجعله قادراً على التأثير في ذهنيات الشعوب المختلفة . فالانكيز امتازوا علينا بهذا السلاح ، سلاح الدعوة المؤثر ، كما امتازوا بدباباتهم التي ظهرت في ميدان القتال ولم يكن لدينا ما نستطيع ان نقاومها به

ولا ريب في ان حكم (فرساي) القائم على الخطأ لم يكن ليقرر تبعة المانيا لو لم تسبقه الدعوة الانكليزية — التي روجها دعاة السلم من الالمان أنفسهم — الى اختلاق هذه التبعة وترتيبها واقتناع اكثر من مئة مليون من البشر بها ، بحيث ظهر حكم (فرساي) عادلاً لكثيرين من الناس .
على أن الحالة تغيرت كثيراً فيما بعد . فالحواجز العظيمة التي كانت تفصل الشعوب بعضها عن بعض دكت من أساسها ، ورأت الشعوب كيف خدعت ، وكيف سبقت الى الخطأ بتأثير الكذب والرياء . وسينشأ عن ذلك رد فعل عظيم يسحق صلح (فرساي) سحقاً ويكون أعظم عضد لالمانيا

ولا أرى حاجة الى القول بأنه ليس بين الحلفاء من قادة أمورهم الى ساستهم الى صحافيتهم رجل واحد يعتقد بجناية المانيا . وذلك لأنهم يعلمون كلهم كيف اتصلت الحوادث بعضها ببعض ، وكيف نشأت وتفاقت . وبديهي انه لم يكن في العالم سرّ ابتسم له مثل هذا العدد العظيم من العرّافين الذين تأمروا فيما بينهم كما تأمرت دولهم — وعددها ٢٨ دولة — على ألمانيا

ولكن التاريخ العام لا يؤلف من ابتسامات العرافين ، فالحقيقة ستظهر للعيان كالشمس في رائعة النهار فيصدر التاريخ حكمه العادل حينئذ على ألمانيا .
واذا نظرنا الى معاهدة (فرساي) مادة مادة رأيناها بلا فائدة ولا جدوى لان تنفيذها يتعذر على الحلفاء وعلى ألمانيا معاً . ولقد ظهر لأقطاب الدول منذ بضعة أشهر ان هذه المعاهدة المضحكة عقبة كؤود في وجه الغالبيين وفي وجه ألمانيا أيضاً ، وان معول الدول المتحالفة أخذ يعمل في صرح المعاهدة المتداعي . وذلك لانه يستحيل على ثلاثة رجال مجتمعين في أي مكان أن يدعوا لاثبتهم حق تنظيم العالم وفقاً لمبادئ وضعوها على الورق . والعالم اليوم بلغ أقصى درجات الرقي ، بفضل التبادل الحر المنتظم في جميع الشؤون المادية والادبية . فكيف أمكنهم والحالة هذه ان يعتقدوا في أنفسهم القوة الكافية للقيام بمثل هذا العمل ؟

ان معاهدة (فرساي) باعثة على القلق ، ليس لالمانيا وحدها بل لدول الحلفاء ولا أمريكا أيضاً . لأن المشاكل الاقتصادية لا يمكن حلها من جانب أحد الفريقين وحده ، ولا مناص من اشتراك الفريق الآخر في السعي لحلها ، ولا سيما في هذا الزمان الذي تنظم فيه الشؤون الحيوية بحسب حاجة الشعب لا بالقول المجرد . واذا كان في امكان جماعة أن يخالفوا سنة الكون في اتخاذ قرارات قاسية وغير معقولة ولا تنطبق على حاجات الامم فان عاقبة ذلك أن تضيق هذه الامم ذرعاً بهذه القرارات ، وذلك هو موقف العالم اليوم ، وهو موقف لا تستطيع المدافع ولا الدبابات ولا الاساطيل الجوية على ادامته . ولو كانت معاهدة (فرساي) معقولة ومفيدة للعالم لما كان ثمة حاجة الى تعدد المؤتمرات وتنوع المفاوضات بعدها . وان ما يشعرون بالحاجة اليه من احداث تفسيرات وتأويلات جديدة لهذه المعاهدة دليل على انهم لم يلاحظوا حاجات الامم المتقدمة الراقية عند ما وضعوها

ولو كان النصر في الحرب العظمى بجانب الالمان لوضعوا للصلح شروطاً أقرب الى العدل ليتمكن احتمالها . ومع أن معاهدتي (برست ليتوفسك) و (بوخارست) لا نسبة بينهما وبين معاهدة (فرساي) بوجه من الوجوه فانه لا يجوز اتحادهما دليلاً على شدة ألمانبا في وضع المعاهدات ، لانها وضعتا في أثناء الحرب والغرض منهما تحقيق الضمانات لنا الى أن ينتهي القتال . وكان في العزم - لو كان النصر في جانبنا - أن نحدث في شروط تينك المعاهدتين تعديلاً جوهرياً من أنفسنا ، أما الشروط التي وضعت أثناء الحرب فقد لوحظت فيها الدواعي الحرية يومئذ

والآن فان الاغلاط التي تضمنتها معاهدة (فرساي) قد أخذت تتعدل ، وان اللوازم الحيوية للامم العصرية هي التي تلمي ارادتها على ضمائر الامم الغالبة والامم المغلوبة . وستأتي - بعد سنوات الآلام المدهشة - سنة يزاح فيها عن أمة كبرى قوية مخلصه ذلك النير الذي وضع في عنقها ظلماً وعدواناً ، ويومئذ يشعر الالماني بالسعادة فيفتخر بأنه ألماني !

الخاتمة

﴿ كيف يكون مستقبل ألمانيا ؟ ﴾

أنا لا أبالي بكل ما وصمني به أعدائي ، لأنني لا أعتبرهم قضائي . وإذا رأيت الذين كانوا من قبل يتملقون لي يرشقونني الآن بالوحل لا أشعر نحوهم بشيء غير الرحمة . ولكنني أتألم إذا رأيت بني قومي يتكلمون عني في وطني باهتمام ويشهد الله انني كنت أريد الخير دائماً لقومي ووطني ، ولذلك كنت اظن أن كل الألماني طرفٌ بحسن نيتي هذه ومقدرها قدرها

انني لم انقطع قط عن اتباع الأوامر الالهية في سياسي وفي جميع حركاتي وسكناتي بصفتي امبراطوراً وبصفتي انساناً . وقد حدثت أمور كثيرة على خلاف ارادتي ، ولكن ضميري مطمئن وظاهر ، لأنني كنت أرمي في كل أعمالي الى غاية واحدة وهي : مصلحة قومي وامبراطوريتي وجلب الخير لها واني أحتمل ما كتبتة عليّ الأقدار متوكلاً على الله ، وعالماً بحكمة الله فيما قضى علي به في دور الامتحان الذي نجتازه الآن . وسألتني كل ما يحدث بشجاعة وصبر ، غير متألم الا من شيء واحد وهو الآلام والحن التي يعانها أبناء ألمانيا ، ذلك هو الجرح الحقيقي الذي أشعر به في نفسي لا أعيش في هذه العزلة الا من أجل الشعب الألماني ، ولا افكر الا فيه . واني اتساءل على الدوام كيف أستطيع أن أساعده أو ان اخدمه بنصائحي واقتراحاتي

ان ألد أعدائي وأشدهم تحاملاً علي لا يستطيعون أن ينكروا حيي العظيم لبلادي وشعبي . وسأظل مخلصاً للألمان مهما تكن خطة فريق منهم اراي واني اشكر الذين حافظوا على اخلاصهم لي في ابان محنتي ، لأنهم شجعوني بذلك علي مواصلة الجهاد ، وخففوا عني آلام الغربة والشوق الى الوطن . وأحترم الذين يعملون ضدي لأغراض شريفة . أما الباقون فاني أدعوهم الى محاسبة ضمائرهم ، وتقدير حكم الله والتاريخ عليهم . ولكنهم مهما فعلوا فهم

عاجزون عن حملي على كره الألمان

ان الوطن والشعب واحد في نظري . وقد أعلنت يوم ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ في القصر الإمبراطوري ببرلين ابان افتتاح مجلس الرخستاغ ما يأتي :
« لا أنعرف بالأحزاب من الآن فصاعداً ، ولا أرى أممي الألمانين »
وها أنا اعيد هذا الكلام الآن

اتقد ادمت الثورة قلب الامبراطورة فساءت صحتها منذ نوفمبر سنة ١٩١٨ وخارت قواها فلم تعد قادرة على تحمل المصائب . وبدأ مرضها المزمن منذ ذلك الحين مشفوعاً بالآلام الغربة والشوق الشديد الى المانيا والى الشعب الألماني ، ومع ذلك فهي تحاول ان تعزيني وتسليني

ان الثورة التي شبت في ألمانيا في الوقت الذي اشرف فيه الألمان على الانتهاء من جهاد قام في سبيل حياتهم ، وفي الوقت الذي كان يجب ان يتفرغوا فيه لحصر جميع القوى في تجديد ما تخرب من الكيان القومي ، قد قضت على جميع ما في الأمة من نشاط وأمل ، ولذلك كانت جناية على المانيا لا تغتفر انا اعلم بأن كثيرين من المنضوين تحت لواء الاشتراكية امتنعوا من ايقاد نار الثورة ، واعلم ان بعض رؤساء الاشتراكيين الديمقراطيين لم يرغبوا في الثورة ، وكان كثيرون منهم مستعدين لأن يعملوا معي . ولكن الاشتراكيين يقع عليهم بعض تبعة الموقف الحاضر لأنهم لم يهتدوا السبيل الى منع نشوب الثورة ؛ بل ان نصيبهم من التبعة اعظم من نصيب الزعماء الملكيين لأنهم كانوا اعظم نفوذاً واشد تأثيراً على الجماعات الثائرة

ومع ذلك فان زعماء الاشتراكية عندنا كانوا يبثون الدعوة الى الثورة من قبل الحرب . وكان الاشتراكيون الديمقراطيون اعداء للحكومة الملكية يعملون على اسقاطها . وهم الذين زرعوا الهواء ليحصدوا العاصفة

أن كثيرين من الزعماء لم يسرهم الوقت الذي وقع عليه الاختيار لاعلان الثورة ولا الشكل الذي ظهرت به . ولكنهم جميعاً مسئولون وموومون لأنهم

تركوا دفة المملكة للمتطرفين في أشد الاوقات حرجاً ، ولم يستعملوا تفويضهم في الدفاع عن الحكومة

وكان في امكان حكومة البرنس (ماكس دي بادن) أن تحمي كيانه الحكومة القديمة . ولكنها اعتمدت على زعماء الاشتراكية الذين كانوا قد فقدوا ما لهم من النفوذ في الجماعات المتطرفة ، فأهملت وظيفتها المقدسة . اذن فالخطأ الأعظم هو الذي ارتكبه الزعماء ، وان اتنازع سيلعن افعالين الحقيقين للثورة ، ولست أعني جماهير العامة بل أولئك الرؤساء الذين لم يمنعهم ، وأعني أيضاً حكومة البرنس (ماكس دي بادن)

أما العمال الألمانىون فانهم قاتلوا أصدق قتال في خلال الحرب عند ما كنت لا أزال على عرشي . وهم الذين كانوا يصنعون الذخائر وراء جبهة الحرب . هذه حقائق يجب أن لا ننساها أبداً . أما ما أصيب به جماعات العمال من كارثة التفرفة فيما بعد فتقع تبعته على المحرّضين والمسيبين للثورة . ويجب أن لا يدخل في غمار هؤلاء أولئك العمال الذين ظلوا مخلصين ووطنيين حتى النهاية ، لان المسؤولين عن اضمحلال ألمانيا هم المحرضون الذين لا ضمير لهم ، وسوف يأتي يوم تفهم فيه طبقة العمال هذه الحقيقة

والآن فان ألمانيا تحتاز دور الاكلام . وبالرغم من ذلك فاني لا أخشى قط على مستقبل أمة قوية صحيحة البنية . فالامة الالمانية - التي ما برحت تتقدم وترتقي من سنة ١٨٧١ الى سنة ١٩١٤ حتى بلغت من القوة مبلغاً وقت فيه امام ٢٨ حكومة متحالفة - لا يمكن أن تمحى من الوجود . وان نظام البشر الحاضر لا يستغني عنا

وعلى كل حال فيجب على ألمانيا أن لا تنتظر معونة من الخارج لتستعيد مكانتها في العالم ، فهي لن تلقى معونة من أحد ، وكل ما ينتظر أن ينجيها من الخارج انما هو الاستعداد ...

أن المعونة التي كان ينتظرها الاشتراكيون الديمقراطيون من

« اللاقومية » ؟ لقد اتضح الآن أن برنامج « اللاقومية » كان غلطة عظمى ان طبقة العمال في دول الحلفاء زحفت على الأمة الألمانية اثناء الحرب العظمى بقصد ابادتها ؛ فلم يظهر يومئذ على وجه الارض تضامن « عام » بين جماعات العامة ، وكان ذلك سبباً من اسباب انتهاء الحرب بالضرر على المانيا ، لأن طبقة العمال في انكلترا وفرنسا قد احسن زعماءها قيادتها فساروا بها في الطريق القويم ؛ اعني به « طريق القومية » بينما كان العمال الألمان يون منحرفين الى طريق الضلالة اعني طريق « اللاقومية »

يجب على الأمة الالمانية ان لا تعتمد على معونة امة من الامم . ومتى استيقظ الضمير القومي في جميع طبقات الشعب فيومئذ نعود الى مكانتنا في العالم . فعلى جميع صنوف الامة ان ينضوا حول العاطفة القومية وحدها مهما اختلفت آراؤهم في الشؤون الاخرى من شئون الحياة الاجتماعية

ان العاطفة التي بثت القوة في انكلترا وفرنسا بل وفي پولونيا هي « عاطفة القومية » ولن يكون التعاضد بين جميع أبناء وطننا الا اذا نما فيهم حس الافتخار بأنهم ألمان فأدركوا به الكرامة القومية حق الادراك . وما الذي رفع ألمانيا الى تلك الدرجة من القوة التي كانت فيها من قبل الا « قوة العاطفة القومية » . فاذا استعادت ألمانيا هذه العاطفة فانها تستطيع حينئذ أن تمثل دور النشاط الذي لا مثيل له في مجموع الامم ، وأن تتفوق على جميع شعوب الارض في الفنون والصناعات

وبعد فاني مقتنع بأن احكام (فرساي) ستنقض ؛ وأعتمد في اقتناعي هذا على المانيا نفسها وعلى آراء الجماعات التي تفكر تفكيراً معقولاً في البلاد الاجنبية . ولى الثقة التامة بأن المانيا ستعود الى عملها السلمي الذي انقطع مؤقتاً بسبب الحرب المدهشة

ان المانيا لم تطلب هذه الحرب ، ولذلك لن تقع عليها تبعاتها

(انتهى)

فهرس

صفحة

١	الفصل الأول : بسمرك
	صلي بيسمرك وأنا أمير
٢	صورة بسمرك
٣	« غليوم الثاني وهو أمير بروسيا
٤	« غليوم الأول مؤسس الاتحاد الألماني.
٥	في وزارة الخارجية
٧	الاستعمار والأسطول
	خريطة مستعمرات الألمان في أفريقية
٩	صورة أخرى للأمبراطور غليوم الأول
١٠	سياسة بسمرك مع روسيا وانكلترا
١١	مؤتمر برلين (وانظر ص ٢٣٧—٢٣٨)
١٢	صورة مؤتمر برلين
١٤	رحلي الأولى الى روسيا
١٥	مهمتي في برست ليتوفسك
	صورة فرنسيس يوسف امبراطور النمسا السابق
١٦	« غليوم الثاني بيزة مشير عثماني
١٧	سياسة بسمرك مع روسيا
٢٠	صورة الامبراطورة اوغستا فكتوريا زوجة غليوم الثاني
٢١	وفاة الأمبراطور فردريك الثالث (والد غليوم)
٢٢	صورة « « « « «
٢٣	« طفولة غليوم الثاني وأخيه البرنس هنري مع أبويهما

الرجال الذين استعنت بهم	٢٤
صورة غليوم الثاني سنة تنويجه	
سياحتي الأولى في عهد امبراطوريتي	٢٦
صورة فكتوريا ملكة الانكليز	٢٧
بسمرك وتركيا	٢٨
الأحزاب السياسية	٢٩
سلطة بسمرك	٣١
اعتصاب المعدّنين	٣٢
معارضة بسمرك	٣٤
صورة بسمرك في آخر حياته	
المؤتمر الاجتماعي العام	٣٥
انقطاع صلتى ببسمرك	
سياسة بسمرك الاجتماعية العنيفة	٣٦
قانون حماية العمال	٣٧
غفلة الانكليز عن الأنظمة الألمانية	٣٨
مساعدة البحرية التجارية	٤١
الفصل الثاني : كاپريشي	٤٤
كاپريشي وزير البحرية	
دعوة كاپريشي الى منصب المستشار	٤٥
انكار معاهدة الضمانات مع روسيا (وانظر ص ٢٣٩)	٤٦
(هامش) : معاهدة الضمانات	
مناوأة المحافظين ومعارضة بسمرك	٤٨
تملك جزيرة هليغولند ومزاياها	٤٩

٥٣ الفصل الثالث : هوهنلوه

البحث مرة أخرى عن مستشار

٥٤ شخصية البرنس هوهنلوه

٥٥ مقابلة البرنس لوبانوف بعد عودته الى بطرسبرغ

٥٦ ألمانيا ومحطات الفحم في الصين

٦٠ خطة انكلترا في طلبنا محطة للفحم

٦٢ الاتفاقية الانكليزية الفرنسية الأمريكية سنة ١٨٩٧

٦٥ شكواي من وزارة خارجيتنا :

مسئولية بسمرك - وصعوبة تربية الساسة في المانيا

٦٧ تقدم تشنغ تاو وحسد انكلترا

٦٨ الخطر الأصفر - مخاوف تقولا الثاني (وانظر ص ١٤٥)

٧٠ مسألة سيمونوزاكي

٧١ التلغراف الاضطرابي الى كروغر

٧٤ خرافة اتفاقنا مع الروس والفرنسيين على انكلترا

٨٦ سكة حديد الكاب - القاهرة وفكرة سكة حديد بغداد

٧٧ سياحاتي

٧٨ استقالة هوهنلوه

٨١ الفصل الرابع : ييلوف

صلاتي السابقة بالكونت ييلوف

٨٣ نصائي للكونت ييلوف في الخطة التي يجب ان تتبع ازاء انكلترا

٨٤ تحذيري الكونت ييلوف من هولستين

٨٦. احتضار الملكة فكتوريا

٨٨ فكرة اتفاق ألمانيا مع الانكليز

٩٠ السفر الى طنجة

٩٢ سقوط دلکاسه

٩٤ الحكومة الالمانية والاحزاب

٩٦ اجتماع بيلوف بالملك ادورد السابع في كييل

٩٧ زيارتي ويندسر

٩٨ حديثي مع الديلي تلفراف

١٠٠ نهاية بيلوف

١٠١ الفصل الخامس : بتمن هولويغ

شخصية بتمن

١٠٣ ادورد السابع في برلين

١٠٥ وفاة ادورد السابع

١٠٦ عيوب بتمن هولويغ (وانظر ص ٢٣٨)

١٠٨ لماذا لم يعزل بتمن هولويغ ؟

١١٠ اصلاح الانتخابات في روسيا

١١٢ صلة المستشار بالامبراطور في الدستور

١١٤ زيارة قيصر روسيا بوتسدام

سياحتى الى لندن بمناسبة الاحتفال بتمثال الملكة فكتوريا

١١٧ السرارنست كاسل وبلاغه الشفهي

١٢١ مفاوضات هلدان

١٢٣ المناورة الانكليزية

١٢٥ الاختلاف على المشروع البحري

صفحة

- ١٣٠ البرنس دى قيد امير البانيا
- ١٣٢ اجتماعي الاخير بالقيصر في مرفأ البلطيق
- ١٣٣ الفصل السادس : أعوانى
- فون استيفن والبريد
- ميخائيلس والاصلاح المالي
- ١٣٥ سكك الحديد زمن ما يباخ
- ١٣٦ تيلن ، بود ، بريتنباخ
- ١٣٨ استطاعة ذوي التيجان خدمة بلادهم
- ١٣٩ وزارة المعارف
- ١٤٠ شباب الالمان وشباب الانكليز
- ١٤٣ الفصل السابع : العلوم والفنون.
- المدارس العليا
- الاستاذ سلابي
- ١٤٤ الاستاذ شيمان
- ١٤٥ جمعية القيصر ويلهلم
- ١٤٦ عنايتي بالآثار الالمانية
- ١٤٧ اهتمامي بالآثار القديمة والجمعية الالمانية للآثار الشرقية
- الاستاذ ليتزشه والآثار الآشورية
- ١٤٨ آثار كورفو
- ١٥١ الفصل الثامن : رأيي في الاديان
- الخلاف بين الكاثوليك والبروتستان

اتصالي برؤساء الاديان

١٥٢ زيارتي البابا الاول الثالث عشر

١٥٤ في سبيل اتفاق الكنائس البرتستانية

١٥٥ القسيس درياندر

١٥٦ كتابي الى الاميرال هولمان

١٦٠ الفصل التاسع : الجيش والاسطول

صليتي بالجيش

١٦١ الجيش مدرسة

١٦٣ معدائنا الحربية

الاميرال هولمان والاسطول

١٦٤ الاميرال تريپتز

القانون البحري وما لقيه من المعارضة في الرخشتاغ

١٦٥ الغرض من الاسطول الالماني

١٦٧ كيف وافق الرأي العام الالماني على القانون البحري

١٦٩ اصلاح هليغولند وقنال القيصر ويلهلم

١٧٠ اختراع الدريدنوط وتأثيره في اساطيل الدول

١٧٢ الفواصات

١٧٣ مواهب تريپتز

١٧٥ الفصل العاشر : اعلان الحرب

في زوج

١٧٦ لا استعداد للحرب في المانيا

١٧٩ دلائل تأهب الاعداء للحرب

صفحة

١٨٥ مساعي محفل الشرق الاكبر الماسوني

١٨٧ مجهودات الالمان في الحرب

حماية الالمان لما في فرنسا من الآثار والاملاك

١٩٠ الفصل الحادي عشر : البابا والصلح

حديث مع القاصد الرسولي سنة ١٩١٧

١٩٦ الفصل الثاني عشر : نهاية الحرب والتنازل عن العرش

مجلس الامبراطورية يقرر المفاوضة في شأن الصلح

١٩٧ تلاشي النمسا

لودندورف

١٩٨ التقهر الاول

الانسحاب الى خط انقرس — الموز

٢٠١ حكومة البرنس ماكس دي بادن

٢٠٣ الحكومة تكرهني على التنازل

٢٠٦ مجلس ٩ نوفمبر

٢٠٧ شيوع الاخبار الكاذبة في برلين عن تنازلي

٢٠٨ اسباب سفري الى هولندة

٢١١ الفصل الثالث عشر :

محكمة الاعداء ، ومحكمة المحايدين

غرض الحلفاء من طلبهم محاكمتنا

هل كان في تسليمي نفسي فائدة لامتي

٢١٣ كيف يكون تعيين تبعة الحرب

لا يكون الخصم حكماً

٢١٤ كتاب المارشال هند نبرغ سنة ١٩٢١

٢١٦ جوابي على كتاب هند نبرغ

٢٢٠ الفصل الرابع عشر : تبعة الحرب

رخاء المانيا وغناها وأسباب تكوين التحالف

٢٢١ امتعاض الانكليز من استيلاء ألمانيا على أسواق العالم

٢٢٢ نماء روح الانتقام في فرنسا منذ سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١

٢٢٣ انقياد روسيا لفرنسا في عداء ألمانيا

٢٢٤ اتفاق الاشراف (وانظر ص ٦٢ — ٦٥)

٢٢٥ سعي ألمانيا لمصادقة الانكليز

٢٢٦ محاولة ألمانيا تحسين علاقاتها مع فرنسا

٢٢٧ العمل لتوطيد الصلات الودية مع روسيا

٢٣٠ ألمانيا وأمريكا

٢٣٢ تبعة الرئيس ويلسن لا تقع على أمريكا

٢٣٤ في أن المانيا كانت متبعة خطة سلمية

٢٣٦ شهادة فرنسوي في أن حرب ١٩١٤ نشأت عن حرب ١٨٧٠

٢٣٧ غلطات المانيا الناشئة عن رغبتها في السلم

٢٤١ تأثير الدعوة الانكليزية في اسناد الفظائع الى المانيا

٢٤٤ الخاتمة : كيف يكون مستقبل المانيا ؟

غليوم يبرىء نفسه ويذكر حملة أعدائه عليه .

٢٤٥ زعماء الاشتراكيين الالمان ونصيبهم من تبعة الثورة

٢٤٦ تبعة حكومة البرنس مكس دي بادن

٢٤٧ القومية واللاقومية

الحقيقة

مجموعة أدب بارع ، وحكمة بليغة ، وتهذيب قومي

جمها ووقف على طبعها

محب الدين الخطيب

في ٢٨٨ صفحة * ثمنها ٥ قروش صاغ غير اجرة البريد

فمصر من نار

رواية وطنية ، تتضمن تاريخ نهضة الترك بعد الحرب العظيم ،

تأليف

خالدة أديب

الوزيرة التركية الشهيرة

تعريب : محب الدين الخطيب

في ٢٠٨ صفحات كبيرة * ثمنها مع البريد ٧ قروش

نسيب سعد باشا غزل

تأليف الشاعر الكبير

مصطفى صادق الرافعي

مجموعة ادب حافلة ، وكتاب اجتماعي مفيد

ثمنه مع البريد قرشان * يطلب من (المطبعة السلفية ومكتبتها) بمصر

